

القسم الثاني

جنرالات هتلر

obeikandi.com

الفصل الحادى عشر

سادة الحرب الأرستقراطيون

هم أولئك القادة العسكريون من الضباط الألمان العظام الذين صنعوا جيش ألمانيا النازية ، وتولوا قيادته ، سواء فى انتصاراته أو فى هزائمه ، والذين سواء كانوا يؤيدون أو يحبون الدكتاتور النازى أو هم عكس ذلك ، وظلوا فى خدمته حتى النهاية ، وضحوا بتاريخهم وأحياناً بحياتهم من أجله .

وهم كذلك انعكاس للطابع الجرماني الذى تفوق فى فنون الحروب ، وما تتطلبه هذه الفنون من دهاء فى الاستراتيجية ، وذكاء فى التكتيك ، وشجاعة قلب تصل إلى حد الاستخفاف بالحياة ، وإنكار للذات يبلغ درجات التضحية بها ، وهى من الصفات التى اقترنت منذ أزمان بعيدة بالأذهان عن الجندى الألمانى .

ثم هم سادة الحرب الأرستقراطيون الذين اختاروا أقدارهم بأنفسهم ، وتبعاً لما فرضته عليهم تربيتهم أولاً وعقليتهم من بعد ذلك ، وهى أقدار لا ترتبط إلا بأمر واحد هو القتال . ولقد خاضوا القتال فى كل مرة لا يصبح أمامهم مفر من ذلك ، وكانت ميزتهم أنهم يطعمون الحاكم الذى يكون على رأس ألمانيا دون مناقشة للدوافع التى تجعله يقرر خوض الحرب ، وبغير أدنى حساب .

وقد أطاعوا جميعاً أدولف هتلر طاعة عمياء نتيجة لعوامل شتى ، فى مقدمتها بكل تأكيد تلك الجاذبية السحرية التى كانت تكن فيه ، وهى جاذبية بلغت فى تأثيرها حداً عجيباً ليس عليهم فحسب ، بل على الشعب الألمانى على بكرة أبيه . ومن الأمثلة التى تذكر فى هذا الصدد أن قائداً عظيماً مثل (بلومبرج) كانت عيناه تفيضان بالدمع لمجرد كلمة إشادة بسيطة يوجهها هتلر إليه .

وكان ضيقاً ، نتيجة لهذه التربية وهذه العقيدة ، أن يصبح الجنرالات الألمان بعيدين كل

البعد عن السياسة ، لا يعرفون شيئاً عن مدلولها ولا هدفها . إنهم تخلوا عنها بمحض اختيارهم ، وتركوها لسيد ألمانيا يعالجها كيف شاء ، وبالأسلوب الذى يراه مناسباً . ثم انصرفوا هم لشيء آخر هو الحرب والتخطيط لها وخوض القتال . وقد ظلوا يفعلون ذلك ، حتى عندما أدركوا أن الجولة خاسرة ، ولو أن واحداً منهم أو أكثر حاول الخروج عن هذه القاعدة لكأنت نهايته دامية .

إن الصورة التى تجسد فى الذهن لدى استعادة سيرة أولئك الرجال الذين احتكروا الحرب وجعلوها كل دنياهم ، ومنتهى آمالهم ، هى أنهم انغلقوا داخلها كما ينغلق الإنسان على فكرة تملك حواسه ، أو الذى يعيش منقطعاً لمثل أعلى خاص به . ولقد كانوا فى سلوكهم هذا مثل فرسان القرون الوسطى الذين كانوا يضعون أنفسهم داخل الدروع الحديدية ، فلا يستطيعون أن يروا سوى العدو الذى أمامهم ، أو الطبقة الخاصة التى يتسمون إليها . كأنما مهنة الجندية تحول بين الرجل وبين كل شيء آخر فى الحياة .

• • •

ومجدربنا ، قبل أن نسوق بالتفصيل قصة أولئك الجزالات ، ونعرض لسيرتهم العسكرية والإنسانية ، أو ما ابتكروه من نظريات فى الاستراتيجية ، وأسس فى التكتيك ، أو نتصدى لما حققوه من انتصارات فى معارك النازية الأولى ، وما انتهى إليه أمرهم من هزيمة - أن نلقى نظرة سريعة على الجيش الألمانى الذى خاض الحرب عام ١٩٣٩ فى مواجهة أوروبا كلها ، فمحق جيوشها جميعاً كما لو كانت لعباً من الورق !

والواقع أن هذا الجيش لم ينشأ فى العهد النازى أساساً ، ولا هو من صنع هتلر أو غرس يديه ، ولكنه تكون أصلاً فى بروسيا منذ القرن الماضى ، ثم أعيد تكوينه خلال الأعوام التى أعقبت الهزيمة الألمانية فى الحرب العالمية الأولى مباشرة .

وفى خلال عقدين من الزمن تحول هذا الجيش إلى قوة هائلة مروعة تبعث الرعب فى النفوس ، وأصبح (أرمادا) حقيقية يخاف بأسها العدو والصديق ، وكان ذلك منذ أيام حكومة جمهورية (فيمار) . التى ما كادت تسقط حتى تحول هذا الجيش ، ليصبح الأداة الفعالة فى أيدي النظام النازى .

وعندما يتأمل المؤرخون فى الكوارث التى تعرضت لها البشرية بصفة عامة ، والشعب الألمانى والأوربى بصفة خاصة نتيجة لنشوء المذهب النازى فى ألمانيا ، فإنهم لا يسعهم إلا أن

يدرفوا الدموع أسفاً على مصير تلك الجمهورية التي لم تساعدها أى دولة فى أوروبا ، وكذلك الظروف التي أحاطت بها ، فلم تبق فى الحكم فترة أطول .

على أنه ينبغي ألا ننسى أنه إذا كانت جمهورية فيمار قد قامت أصلاً فى ألمانيا ، ثم استطاعت الاستمرار ثلاثة عشر عاماً ، فإن ذلك إنما يرجع قطعاً إلى التأييد الذى لقته منذ يومها الأول من جانب جماعة ضباط أركان الحرب الألمانية التي كانت حتى فى ذلك الوقت قوة لا تنكر ، وإليها يعود الفضل فى أن ألمانيا لم تتحول فى الفترة الحرجة التي مرت عليها فيما بين عامى ١٩١٨ ، ١٩١٩ : لكى تصبح واحدة من الجمهوريات الشيوعية .

° ° °

والحق أن قدراً كبيراً من مصير أوروبا قد تحدد فى تلك الأيام الحالكة التي أعقبت الهدنة التي وقعت يوم ١١ من نوفمبر ١٩١٨ : فقد اعتقدت الدول التي خرجت منتصرة فى الحرب العالمية الأولى أن فى إمكانها أن تعثر فى هذا النصر على ما يعوضها عن تضحياتها ، فلم تلق بالآ إلى المهزيمين الألمان الذين عاشوا فى أدنى درجات الجحيم . لقد رأوا أن كل شيء قد انهار حولهم ، وأنه لا أمل لهم فى أى مستقبل ، برغم المليونين من القتلى الذين سقطوا منهم فى الخنادق الباردة . وفى تلك الفترة اختفت كل القيم ، وضاع كل شيء ، وبدا المستقبل أكثر ظلاماً من الحاضر ، وهو ما استقر فى أعماق الزعماء الألمان من أبناء القرن التاسع عشر . ولقد فات المتصرين والمهزيمين على السواء أن هذا الواقع الذى يدعو إلى اليأس لا يمكن أن يدوم ، وأن الزمن الذى كان يمكن فيه إنزال هزيمة كاملة شاملة ونهائية بأمة من الأمم عن طريق تحطيم إرادتها ، أو إبادة أهلها والقضاء على كل مقوماتها . قد ولى وانتهى . ولذلك فإن الذى حدث بعد عام ١٩١٨ لم يكن مجرد مناقشة احتمال أن ألمانيا قد هزمت حقيقة وانتهى الأمر ، وإنما المناقشة كانت حول احتمال أن هذه الهزيمة لها معنى فى العلاقات المقبلة بين الأمم . وربما كا السؤال الذى يحول فى الأذهان هو : كيف أمكن لألمانيا هذه التي تحطمت وذهب ربحها ، أن تنهض ثانية من كبوتها القاتلة عقب هزيمة ١٩١٨ ؟ أو كيف نالت الأحداث وتلاحقت بحيث أدى بعضها إلى بعضها الآخر ، ثم انتهت إلى قيام نظام قوى وخطير فيها ، هو الحكم النازى ؟

إننا سنكتفى هنا بالإشارة إلى أهم الأحداث التي كان لها تأثير مباشر فى تحديد مصير الشعب الألمانى ابتداء من عام الهزيمة وعبر الأعوام التالية له : حتى عام الهزيمة (الثانية) فى الحرب

العالمية الثانية عام ١٩٤٥ .

ففي عام ١٩١٨ كان تمرد رجال البحرية الألمانية في ميناء (كيل) ، وهو التمرد الذي لم يلبث أن تحول إلى ثورة انتشرت ووصلت إلى الموانئ الأخرى مثل برين وهامبورج وهانوفر ، ثم إلى ميونيخ وغير هامن المدن . وإزاء هذه الثورة لم يجد الإمبراطور غليوم الثاني إلا أن يتزل عن العرش ، فجاء الاشتراكي (شايدمان) وأعلن الجمهورية في برلين .

وفي عام ١٩١٩ وقع الإضراب العام الذي عرف في التاريخ باسم (أسبوع الدماء) . فاجتمعت عقب ذلك جمعية تأسيسية في مدينة فيمار ، ومن ثم قامت جمهورية فيدرالية برلمانية عرفت بهذا الاسم .

وقد تميز عام ١٩٢٠ بأن الحكومة الألمانية قد أصدرت فيه أوامرها للجيش ، لكي يخمّد حركات التمرد التي نظمها الشيوعيون في منطقة الرور . وفي هذا العام بالذات تأسس في مدينة ميونيخ الحزب الوطني الاشتراكي الألماني للعامل الذي تولى أدولف هتلر زعامته في العام التالي . فلما كان عام ١٩٢٣ حدث أن تأخرت ألمانيا في سداد أقساط تعويضات الحرب ، وإذا بفرنسا تبعت بمحوشها لاحتلال إقليم الرور الألماني ، وفي هذا العام وقعت محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها هتلر .

وفي عام ١٩٢٥ انتخب (هندنبورج) رئيساً للجمهورية الألمانية ، ثم سارت الأمور حثيثة بعد ذلك إلى أن كان عام ١٩٣٠ الذي جرت فيه انتخابات أحز في الحزب الوطني الاشتراكي نصراً لم يسبق له مثيل ، إذ قفز عدد نوابه من ١٢ إلى ١٠٧ نواب ! وفي عام ١٩٣٢ أجريت الانتخابات الرئاسية ، فحصل أدولف هتلر على ثلاثة عشر مليون صوت . غير أنه هزم أمام هندنبورج الذي أعيد انتخابه رئيساً للجمهورية ، وكان ذلك بمساعدة فون بابن . فعينه هندنبورج مستشاراً جديداً خلفاً لبرونينج .

وفي عام ١٩٣٣ استدعى الرئيس هندنبورج أدولف هتلر ، ثم عينه يوم ٣٠ من يناير مستشاراً للبلاد . وفي يوم ٢٧ من الشهر التالي كان الحدث التاريخي المعروف ، ألا وهو حريق الرايخستاج .

□ . □ . □

كان حريق البرلمان الألماني فرصة استغلها هتلر جيداً ، إذ جمع بين يديه جميع السلطات في ألمانيا ، فسارع إلى حل الحزب الشيوعي وإلغاء النقابات العالية ، وأعلن الحزب الوطني

الاشتراكي حزباً وحيداً .

وفي عام ١٩٣٤ كانت المذبحة التاريخية الكبرى التي اشتهرت باسم «ليلة السكاكين الطويلة» . وفيها تم الإجهاز على خصوم نظام الحكم الجديد ، فلما توفى الرئيس هيندنبورج يوم ١٩ من أغسطس من العام نفسه جمع هتلر بين منصبي رئاسة الجمهورية ومستشارية الرايخ . وجاء عام ١٩٣٦ الذي تميز بقرار إعادة تسليح إقليم رينانيا ، ثم انضمام ألمانيا إلى تحالف مع إيطاليا الفاشية . فنشأ تبعاً لذلك ما عرف باسم محور روما - برلين الذي لم تلبث اليابان أن انضمت إليه .

وفي عام ١٩٣٨ تولى هتلر القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة ، فعمل على إجبار المستشار النمساوي (شوشنيغ) على الاستقالة من منصبه ، ثم لم يلبث أن احتل النمسا باعتبار أنها أرض ألمانية .

وفي يومي ٢٩ و ٣٠ من سبتمبر من العام نفسه عقد مؤتمر ميونيخ الذي كان موضوع البحث الوحيد فيه مشكلة السوديت التي طالبت بها برلين .

وفي شهر مارس عام ١٩٣٩ ضمت ألمانيا إقليم السوديت الذي كان تابعاً لتشيكوسلوفاكيا ، وفي يوم ٢٣ من أغسطس تم التوقيع على الميثاق الألماني السوفيتي ، وبعد ذلك بأسبوع - أى في يوم الأول من سبتمبر - اجتاحت القوات النازية الأراضي البولندية . فلما كان يوم ٣ من سبتمبر سنة ١٩٣٩ اندلعت الحرب العالمية الثانية بدخول كل من بريطانيا وفرنسا الحرب ضد ألمانيا .

وتوالى الأحداث بعد ذلك : فغزت القوات الألمانية يوم ٩ من أبريل عام ١٩٤٠ كلاً من الدانمرك والنرويج ، وفي يوم ١٠ من مايو شنت هجومها الكبير على الجبهة الغربية ، وفي خلاله احتلت هولندا وبلجيكا وفرنسا . ومع مطلع يوم ١٣ من أغسطس ١٩٤٠ الذي أسماه هتلر (يوم النسر) - بدأت المعركة ضد بريطانيا .

وفي يوم ٢٨ من أكتوبر من هذا العام نفسه دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا ، وبدأت على الفور هجومها على اليونان . وفي يوم ٢٢ من بوية ١٩٤١ بدأت القوات الألمانية عملية (ذو اللحية الحمراء) بالشروع في غزو الأراضي الروسية ، وذلك عقب فراغها من احتلال يوغوسلافيا .

ثم دخلت اليابان الحرب إلى جانب ألمانيا وإيطاليا عقب غارتها الجوية البحرية الكبرى

والمفاجئة على قاعدة بيرل هاربر الأمريكية ، وتلا ذلك دخول الولايات المتحدة الحرب ضد دول المحور . فلما كان عام ١٩٤٢ بلغت معركة المحيط الأطلنطي ذروتها ، وفيه وقع الهجوم الألماني الكبير الثاني على الجبهة الروسية ، وتم غزو شبه جزيرة القرم .

وفي يوم ٣٠ من يونية شرع الفيلق الأفريقي بقيادة المارشال الألماني (روميل) في الزحف على العلمين ، وفي يوم ٨ من سبتمبر نزلت قوات الحلفاء في أفريقيا ، وقام الجنرال مونتجومري بهجوم عام بالقوات البريطانية من مصر بعد انتصاره على الألمان والإيطاليين في موقعة (العلمين) .

وكانت هذه هي أولى هزائم النازية ، ثم أعقبها في نوفمبر من العام نفسه الهجوم الروسي المضاد على نهر الفولجا إلى الشمال والجنوب من مدينة ستالينجراد . فراجع عنها الألمان يوم ٢ من فبراير ١٩٤٣ .

وفي ٨ من سبتمبر وقعت الهدنة بين الحلفاء الغربيين وحكومة الجنرال بادوليو الإيطالي . فما كان من هتلر إلا أن أمر القوات الألمانية باحتلال إيطاليا .

وجاء ربيع عام ١٩٤٤ ومعه هجوم روسي جديد كاسح على نهر الدنيبر .

وفي يوم ٦ من يونية كان نزول القوات الأمريكية والبريطانية المشتركة على سواحل نورماندى الفرنسية إلى أن وقعت معركة (الأردن) في الفترة من ١٦ إلى ٢٨ من ديسمبر . وفيها تمكنت القوات الأمريكية من صد الهجوم الألماني المضاد .

وفي يناير ١٩٤٥ قام الروس بآخر هجوم لهم على الجبهة الشرقية . وفي يوم ٦ من أبريل اجتازت القوات الأمريكية نهر الراين عند (ريماجن) . ثم توغلت في الأراضي الألمانية ذاتها . وفي الساعة الثالثة والنصف من فجر يوم ٣٠ من إبريل ١٩٤٥ انتحر أدولف هتلر في كهف المستشارية ببرلين عندما أطلق رصاصة من مسدسه داخل فمه . وفي يوم ٧ من مايو . وقع الجنرال الألماني (جودل) وثيقة استسلام الرايخ الثالث .

• • •

وبرغم أن هناك اعتقاداً سائداً بأن المؤسسة العسكرية الألمانية هي التي فتحت الأبواب على مصاريعها أمام هتلر فإن الحقيقة في الواقع شيء آخر مختلف تماماً :

ذلك أن الدكتاتور النازي لم يحرز عند بداية ظهوره في مشارب البيرة في ميونيخ إعجاب طبقة الضباط الألمان الذين كانوا منصرفين إلى التفكير في صرامة في بنود وأحكام معاهدة

الصلح التي فرضها الحلفاء على ألمانيا عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، وحرمت عليها صنع أى شيء له صفة عسكرية . وقد فات الحلفاء وقتها أن يسدوا مصدراً آخر للتسلح كان يمكن أن تطرقه ألمانيا المتعطشة إلى السلاح ، فلم تجدبداً من أن تطرقه بالفعل . وكان هذا المصدر هو روسيا السوفيتية : فقد اتجه إليها الجنرال الألماني (فون سيكت) ، فحصل على ما يكفي تزويد الجيش الوطني الذي كان حينئذ في دور التكوين .

ثم شرعت بعض الشركات بعد ذلك - وخاصة شركة (فوكر) - في بناء قاذفات قنابل في المدن الروسية مثل موسكو ولننجراد وكيف ؛ كما أخذت بعض المصانع الروسية تنتج لحساب الجيش الألماني الجديد الغازات السامة والقنابل الحارقة . وكانت السفن الروسية تحمل هذه الأسلحة ، وتنقلها سرّاً إلى الموانئ الألمانية على أمل في أن تستخدم في إشعال الثورة العالمية . ولقد كان في ألمانيا خلال الفترة التي بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٢ - أربعة جيوش قوية تتجابه فيما بينها ، وقد تزود كل منها بعناد رهيب ، وكان لكل منها زيه الخاص ، وأعلامه الخاصة ، وخططه السرية والمعلنة : فهناك ذوو القمصان البنية وهم جيش هتلر ، وقد بلغ تعدادهم عام ١٩٣٢ حوالى نصف مليون رجل ، وإلى جانبه الجيش الأحمر الذي لم يقل عن مائتي ألف متطوع شيوعي ، ثم الجيش الأسود الاشتراكي الذي كان قادراً على تعبئة مليون ونصف المليون من أنصاره المتطرفين ، وأخيراً الجيش الرمادي الذي ضم جميع الضباط وصف الضباط والجنود المخلصين للرئيس هندنبرج ولفكرة قيام ألمانيا العظمى .

• • •

وفي هذه الفترة من تاريخ ألمانيا عادت الدماء لتجري أنهاراً في جميع أرجاء البلاد ، على حين راح جيش الرايخ يتفرج على ذلك ، ويتطلع في عجز إلى صراع هذه القوى التي كان ضعفه العددي يجعل من المستحيل عليه أن يسيطر عليها . وعندما حاول الجنرال (جروين) الذي عين وزيراً للجيش عام ١٩٢٨ حل هذه التنظيمات العسكرية - وبصفة خاصة فرق العاصفة القتالية والجيش الأحمر - إذا به يصطدم بمعارضة برلمانية عنيفة كانت تقوم بلعبة سياسية يزداد عقمها يوماً بعد يوم .

عند ذلك ازداد امتعاض طبقة الضباط من أدولف هتلر ؛ كما أنه لم يصادف ارتياحاً للوهلة الأولى لدى الرئیس هندنبرج الذي اجتهد ومعه الجنرال (جروينر) للحيلة دون وصول هتلر إلى وضع قدمه في دار المستشارية ، ولكنه عاد فقبل ذلك بعد فشل جميع الصيغ التي

وضعت لحل الأزمة الألمانية .

والواقع أن نجاح هتلر في الانتخابات قد فتح له بطريقة مشروعة الأبواب ، ليعبر منها إلى السلطة التي بدأ بأن استخدمها بصورة غير مشروعة . إلا أن ماله معناه فيما يتعلق بموقف الضباط الألمان من النظام النازي في بداية عهده ، أنهم طالبوا بأن يتولى وزارة الجيش في حكومة هتلر التي شكلها في مارس ١٩٣٣ جنرال غير نازي هو فون بلومبرج .

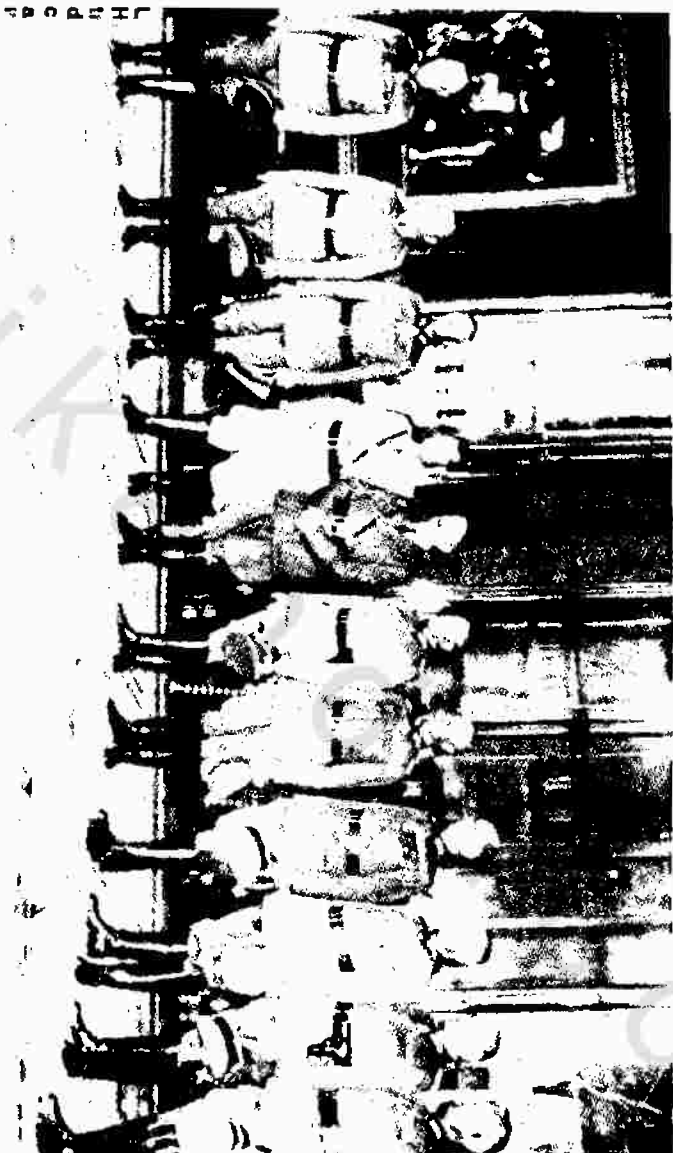
وبعد عام كامل من سيطرة هتلر على السلطة ، وبعد انتهائه من إزاحة العقبات كافة من طريقه بما في ذلك جميع الأشكال الديمقراطية في الجمهورية ، فإنه اضطر أن يعين جنرالاً آخر غير نازي في منصب القائد العام للجيش الألماني هو فون فريتش ، الذي يعتبر من أذكى الضباط الذين تخرجوا على أيدي القائد العظيم (فون سيكت) ، كما كان وراءه تاريخ طويل في القيادة ، وتميز بصفة خاصة بأنه رجل شريف .

• • •

وقد قام الجنرال فون فريتش بدوره بإلحاق عدد من الضباط في المراكز الرئيسية في القوات المسلحة لهم مثل أمكاره وصلابته وخلقه . وكان هؤلاء يقفون معه وراء المحاولات التي بُذلت لإقصاء هتلر عن المغامرة بمقدرات ألمانيا ، وآخرها تلك المحاولة التي وقعت يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ ، وأعدموا بعد فشلها .

يمكن القول إذن بأن الضباط الألمان القدامى لسواهم الذين مكثوا لهتلر من التسلط على ألمانيا ، ولكن اليد الطولى في ذلك ترجع إلى جمهورية فيمار التي كانت تعرف أنها تحتضر . ولكنها تعجز عن ترجمة المشاعر العميقة والآمال التي تعتمل في الشعب الألماني برفضها الانتفاض على الهزيمة ، كما أنها لم تستطع أن تدرك أن المشكلة الحقيقية للأمة الجرمانية - إنما تتعلق بالوجود ذاته ، والمستقبل مباشرة .

على أي حال فإنه برغم إغلاص جمهورية فيمار بوصفها نظام حكم ديمقراطي فإنها انتهجت سياسة ترويم الشعب ، وتحذيره ومحايلته بغير أن تضع لنفسها برنامجاً ولاخطة . والأدهى من ذلك أنها تركت الجيش القديم في عزله المتباعدة المتعالية ، واستمرت هي في تكرار واجترار شعاراتها البالية ، وهي الشعارات المناهضة للترعة العسكرية ، والفارقة في أوامهم السلام . وربما كان الجيش الألماني قد بدأ في هذه الحقبة بالذات يشعر بشيء من التعاطف نحو النازية الصاعدة ، ولا سيما ذوو الرتب الصغيرة فيه ، ولكن ذلك لم يحل دون واحد من قادة



آدولف هتلر وسط کادر جنرالان بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وهما يبدون من حوله عناصر وقبضهم إلى رتبة المارشال ،
 وهم من اليسار إلى اليمين) كيتل وفون دويشت وحديج وفون براونيش وفون لب وفون بشت وفون كلرجه وفون فتر لين
 وفون رايشتر

هذا الجيش ، هو الجنرال (جروينر) وليس أى برلمانى فى الجمهورية ، ومن المطالبة بصدور مرسوم بحل الحزب النازى ، وقد صدر هذا المرسوم بالفعل فى ١٥ من أبريل ١٩٣٢ . وقد سار كل من فون شتاين وفون فريتش على الدرب نفسه ، فنظم الأول ضد هتلر محاولة انقلاب (بوتسدام) ، وذلك فى الأسبوع الذى سبق صعوده إلى الحكم ، كما أن فون فريتش عارض باستمرار أى تدخل لهتلر فى شئون الجيش ، وظل يفعل ذلك حتى شهر فبراير ١٩٣٨ ، عندما وجه هتلر ضربه الحاسمة إلى (القلعة) العسكرية التى ظلت مغلقة إلى ذلك اليوم فى وجهه

والواقع أن هتلر كان دائماً شديد الكراهية لطبقة الضباط العظام ، غير أنه كان حريصاً على عدم التعرض لها إلا بعد أن يث فيها روح الفرقة والانقسام . ومن سوء حظ ألمانيا أن لعبته هذه قد نجحت فى النهاية بعد أربع سنوات كاملة قضائها فى وضع الخطط والمؤامرات ، حتى الدنىء منها وما يتصل بالأخلاق .

وإذا كانت هيئة الضباط العظام قد عجزت عن مواجهة هذه المؤامرات ، فإن ذلك يرجع إلى تمسكها بأهداب الشرف العسكرى أكثر مما يرجع إلى ضعفها . فلقد كانت مضطرة أن تقاتل فوق أرض ليست معتادة عليها ، واستخدام أسلحة تأتى عليها كرامتها أن تلجأ إليها وهكذا انهارت هذه الطبقة أمام عقبة لم تكن هى أو أى أحد آخر يتوقعها أو يستطيع معرفة أبعادها ، هى العقبة التى تمثلت فى الانعدام المطلق للقيم الأخلاقية والإنسانية فى الديكتاتورية النازية .

وفى يوم ٤ من فبراير ١٩٣٨ - وفى هذا التاريخ فقط - انفرط فجأة عقد جنرالات ألمانيا العظام ، لكى تحمل محلهم جماعة الجنرالات السياسيين ، الذين كانوا بمثابة الخدم تحت إمرة هتلر .

الفصل الثاني عشر

فون رايشناو

نامت العدالة فانتصرت النازية !

من بين الضباط العظام في الجيش الألماني القديم الذين أيدوا السلطة النازية التي كانت لا تزال ناشئة في مطلع الثلاثينيات - ثم ناصروها منذ ذلك الوقت - يبرز على الفور اسم ضابط من هذه الطبقة ، لم يكن قد وضع حينئذ على كفيه بعد رتبة الجنرال . هو فالتر فون رايشناو .

وقد ولد لأب دبلوماسي في كارلسروه عام ١٨٨٤ ، وعمل ضابطاً في سلاح المدفعية في الجيوش الألمانية في عهد غليوم ، فلما كانت هزيمة بلاده في الحرب العالمية الأولى ظل فترة طويلة واقعاً في حيرة : أياظل يعمل في الجيش ، أم يتخلى عن بزمته العسكرية ؟

والواقع أن البدائل المحتملة لم تكن قليلة أمام فالتر فون رايشناو : ذلك أن أمرته كانت لها في ذلك الوقت علاقات واسعة بالطبقات العليا في ألمانيا ، كما أنه قضى مع والده عندما كان غلاماً وقتاً طويلاً في أمريكا الجنوبية ، وعاش في الولايات المتحدة ، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة كبيرة .

واختار أن يظل في الجيش ، فهي مهنة يمكن أن ترضى تطلعاته المغامرة التي جبل عليها للظروف الخاصة التي كانت تجتازها ألمانيا في فترة ما بعد الحرب .

وسرعان ما تكشف أن رايشناو ضابط حصيل مطبوع بحاسة سياسيه ، مما جعله يتنبأ مقدماً بأن جمهورية فيمار عمرها قصير . غير أنه كان يعرف كذلك أن طبقة الضباط المغلقة على نفسها ، والتي هي من حيث الواقع الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية الحاملة ألقاب النبلاء الألمان ، ليس في استطاعتها وحدها أن توجه الضربة القاضية التي ينهار على إثرها نظام الحكم

الديمقراطي ، وإنما هي في حاجة إلى حليف يكون من جانبه قادراً على إثارة حركة جماهيرية عريضة تتجه نحو الديكتاتورية . .

• • •

ولقد سارع فون رايشتاو إلى إقامة علاقات مع الحزب الوطني الاشتراكي الذي يتزعمه أدولف هتلر بمجرد أن تبين أنه شيء أكبر من زعيم غوغائي يخطب في حانات البيرة في مدينة ميونيخ ، ولو أن هذه العلاقات قد شابها الكثير من الغموض . وقد اتضح ذلك عندما تشكلت الحكومة الألمانية الأولى التي أصبح أدولف هتلر مستشاراً لها ، إذ ظهر رايشتاو كأنه الذراع اليمنى لوزير الحرية الجديد فون بلومبرج . وعلى عكس الجزال بلومبرج الذي كان مسحوراً بما يقال عن (عبقريّة) هتلر ، فإن رايشتاو قد اعتاد أن يتأمل الأمور ويضع حساباته بعقل بالغ الهدوء ، وعلى أساسه يضع قراراته . وقد أسر إلى زوجته يوماً بملاحظة قال فيها : «إنني أمقت هؤلاء الدهماء الذين يرتدون القمصان البنية وصلبانهم المعقوفة !» .

إنه يمقت إذن هتلر ورجاله ، ولكنه يعرف أن الجيش الألماني في حاجة إليهم ، مثل حاجة هؤلاء الرجال إلى الجيش . والواقع أن النازيين كانوا أمام أحد طريقتين : فلقد كان إرنست روهم قائد فرق الهجوم يصرخ بأعلى صوته : بأنه يتعين القيام بانقلاب كامل في ألمانيا ، والقضاء تماماً على التقاليد ! وبمعنى آخر فإن روهم يريد أن يتزعزع القوات المسلحة من سيطرة أولئك الجزالات القدامى الذين وصفهم بالأكياس الفارغة ! والذين لا يزالون متأثرين بالطابع البروسي الجامد ، وتحويل فرق الهجوم التي تخصصت حتى ذلك الوقت في عمليات المدن ، بحيث تندمج تماماً في مجموع القوات المسلحة ، ويجعل الجيش يتدفق فيها . ومعنى ذلك أن تمتص الميليشيا الوطنية الاشتراكية الجيش الألماني التقليدي القديم ،

غير أن هتلر كان له رأى آخر مختلف تماماً : لقد كان تأييد الجيش له ، أو على الأقل موقف الحياد المرحب الذي يتخذه الجيش منه أمراً لا غنى عنه ، ثم إن هندنبرج يرغم أنه في آخر مراحل الشيخوخة ويعاني في بعض الأحيان تبدل الذهن ، فإنه مازال رئيساً للدولة بوصفه رئيساً لجمهورية فيمار . وفي الإمكان خلال لحظة إشعاع ذهني أن يصدر أمراً إلى الجيش الألماني للاعتراض بحزم على المشروع الذي يلوح به روهم وأعدائه . وقد شارك أغلب الزعماء هتلر في موقفه الحذر من الجيش . وفضلاً عن ذلك فإن روهم لم يكن لديه برنامج عمل

عدد ؛ وإنما مجرد أفكار نظرية غامضة ، لكنها تشكل تهديداً يسعى الجيش الألماني لإبعاده بصفة نهائية .

وكانت التصفية الجسدية للجنرال روهم ومعه عدد غير محدد من كبار أتباعه في تلك المذبحة التي عرفت باسم « ليلة السكاكين الطويلة » التي وقعت يوم ٣٠ من يونيو ١٩٣٤ ، وعمليات التطهير التي أعقبتها ، ومكنت النازيين من اغتيال اثنين من الجنرالات هما فون شلايشروفون وبريدوف ، وعدد كبير من معارضيه ، وكل ذلك كان من الأعمال التي دبرها رايشنآو . فلقد كان بارساً بصورة شيطانية في تصويره لما وقع على أنه « خلاف » بين هتلر وروهم ، فجعل الجيش الألماني يقف مكتوف الأيدي إزاء هذه التسوية الدموية للحسابات داخل الحزب الوطني الاشتراكي ،

• • •

والواقع أنه لو كانت العدالة قد تحركت في تلك الفترة في ألمانيا لوضعت يدها على أدولف هتلر نفسه لتورطه في المذبحة : فلقد شوهد يدخل وهو ممسك بمسدس ضخم إلى غرفة الجنرال روهم في فندق (بادفيشي) ، وسمعه البعض وهو يصرخ فيه قائلاً : « روهم . . إنك معتقل ؟ » .

وقد قيل كذلك : إنه أطلق بنفسه الرصاص في الهواء فوق رأس الجنرال ، ثم أصدر أمره بنقله إلى (ليشتر فيلد) حيث أعدم رمياً بالرصاص وكذلك لو أن الجيش الألماني قد ثار دفاعاً عن الشرعية ، لكانت جميع التنظيمات النازية قد انهارت .

غير أن رايشنآو هو الذي أسهم أكثر من غيره في جعل الجيش يقف على الحياد في هذه الموقعة الدموية : فقد كتب جواقيم فست في ترجمته لحياة هتلر يقول : « لقد لجأ كل من رايشنآو وهيملر إلى التزييف والكذب والتدليس ؛ لكي يحولا دون قيام أى شك في مصير أولئك « المتأمرين » ؛ كما أنها ساعدا في نشر جو من الخوف على إثر ترويج شائعة تقول : إن قوات العاصفة هددت بذبيح الضباط العظام في القوات المسلحة ! » .

وهكذا تغاضت القيادة العليا عن المذبحة ، وأعلن رايشنآو وهو لا يخفى سروره ، أنه لم يكن من اليسير بالتأكيد العمل على أن تمضي الأمور كما لو أن ما حدث كان مجرد تسوية للحسابات داخل الحزب .

ومن سخرية القدر أن هذا التصرف من رايشنآو جعل هتلر يأمر تشكيلاته الخاصة بالتدخل

في الاستقلال الذاتي الذي كان يتمتع به حتى ذلك الوقت الجيش الألماني . وفضلا عن ذلك فإن رايشناو لم يحصل على الثمرة التي كان يرجوها : فلقد رقى إلى رتبة الفيلد مارشال بعد ذلك بكثير : أى بعد معركة فرنسا في يوليو ١٩٤٠ مع أحد عشر جنرالاً آخرين .

لقد كان يتوقع أكثر من ذلك من هتلر بعد أن عاونه بكل هذا الإخلاص في التخلص من روهم : كأن يعينه على الأقل رئيساً لأركان حرب الجيش ، وهو أعلى منصب عسكري . وقد أيده في مطلبه هذا فون بلومبرج ، لكن الذي اعترض على هذا التعيين كان الرئيس هيندنبورج الذي كان برغم شيخوخته التي قربته من القبر لا يزال يتمتع بنفوذ من شأنه الحيلولة دون مثل هذه القفزات ، كما أن هتلر لم يكن راغباً في قرارة نفسه في الاستجابة لطلب رايشناو . وعند ذلك قنع رايشناو بالبقاء في الوزارة ، إذ لم تكن تطلعاته تلقى معارضة رئيس الجمهورية وحده ، وإنما كانت تلقى كذلك عداء الكثيرين من الجنرالات .

• • •

وتوفي الرئيس هيندنبورج يوم ٢ من أغسطس ١٩٣٤ ، ودفن في احتفال رسمي ضخم في (تانبيرج) ، حيث انتصر في معركة كبرى على الروس في الحرب العالمية الأولى ، وباختفائه طرحت مسألة خلافته على رأس الدولة . وقد حل هتلر هذه المشكلة حلاً جذرياً ، فقرر بوصفه الفوهرر ، أن يصبح من الآن فصاعداً رئيساً للدولة ومستشارها معاً . غير أن هتلر تجاوز بكثير اختصاصات هيندنبورج في رئاسة الدولة : فقد ألغى الجمهورية فعلاً لا اسماً فقط ، ولكن سرعان ما نشأت عقب ذلك مشكلة هي : لمن يقسم رجال القوات الألمانية المسلحة يمين الولاء ؟

لقد كانت الصيغة السارية في الجيش قبل وفاة هيندنبورج كما يلي : « أقسم أمام الله أن أخدم شعبي ووطن في كل وقت وبولاء وشرف ، وبشجاعة الجندي وطاعته ، وأن أكون مستعداً دائماً لمنحه حياته » . وفي استخراء مزر عكف رايشناو في مكتبه الفخم على وضع صيغة القسم الجديد ، فجاء كما يلي : « أقسم أمام الله أن أطيع فوهرر الرايخ بدون قيد ولا شرط بوصفه زعيماً للشعب الجرمانى وقائد جيشه ، وأن أضحي في سبيله بحياتي » .

وكان أول من أدى هذا القسم فون بلومبرج نفسه ، فلم يسع الجنرالات الآخرين إلا أن

يحنوا رؤسهم . وهكذا اختفى اسم جيش الرايخ ، وحل محله اسم القوات المسلحة ، التي يرأسها رايشنآو

وهنا لم يعد هتلر في حاجة إلى رايشنآو في الميدان السياسي ، فرفقه إلى رتبة الجنرال عام ١٩٣٦ ، وفتح أمامه المجال العسكري ؛ ليلعب فيه .

والواقع أن رايشنآو قد أثبت أنه قائد بارع : فبرغم أنه جاء من سلاح المدفعية نبين في ميدان المعارك أنه رجل تكتيك من الدرجة الأولى ، واستوعب إلى أقصى حد فنون الحرب الميكانيكية . حقاً إن اسم رايشنآو لم يصبح في مثل شهرة اسم روميل أو جودريان أو فون رونشت ، لكنه ساوهم في فعالية عمليات المفاجأة والافتحام .

واشترك الجنرال رايشنآو عام ١٩٣٨ في احتلال إقليم السودان ، وشارك في شهر مارس التالى في معركة بوهيميا ومورافيا التي لم تكن في الحقيقة سوى نزهة عسكرية . وخلال معركة بولندا التي اندلعت يوم الأول من سبتمبر ١٩٣٩ كان رايشنآو على رأس قيادة الجيش العاشر الذى يتبع مجموعة جيوش الجنوب التي يرأسها الجنرال فون بوك ، فقام في هذه المعركة بدور حاسم : فقد هاجم من سيليزيا العليا في اتجاه (شتوشوفا) مدينتين هامتين هما رادوم ووارسو . فحقق انتصارات باهرة ، وكان أبرز ما قام به في هذا الصدد أنه عبر على رأس قواته نهر الفستولا سباحة ، وفي ربيع العام التالى كان غزو هولندا وبلجيكا ، ثم سحقته قواته جيوش فرنسا كلها عندما حطمت خط (ماجينو) .

والواقع ان هذه المعارك جاءت تكراراً لخطة عسكرية أخرى وضعت في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وعرفت باسم «مشروع شليفن» مع إضافة بسيطة .

وفي هذه المعارك كان رايشنآو يقود الجيش الألمانى السادس الذى كان يشكل مع الجيش الثانى عشر بقيادة فون كوشلر جزءاً من قوات فون بوك ، وكانت منطقة عمله هى الجبهة البلجيكية . وقد تجلت عبقرية رايشنآو عندما حرك قواته على الجبهة ؛ لكى يجتذب إليها أنظار القيادة العليا الفرنسية ، فكانت هذه التحركات هى التى أسهمت بصورة غير مباشرة في نجاح العملية الألمانية في (الأردن) التى كان من شأن تكتيكها فيها أن انفرط عقد القوات المعادية . وفى خلال هذه المناورات نفسها تمكن رايشنآو يوم ٢٤ من مايو ١٩٤٠ من فتح ثغرة في القوات البريطانية البلجيكية المشتركة في قطاع (كونتراى) ، ثم اندفع في عمقها لكى يفصل

الحملة الإنجليزية عن جيوش بلجيكا التي لم تلبث أن طلبت يوم ٢٨ من مايو وقف إطلاق النار .

ولم تنقضى على ذلك سوى أسابيع قليلة ، حتى استسلمت فرنسا تماماً ، الأمر الذى لم يصدقه هتلر نفسه ، الذى كان قد سبق له أن قاتل برتبة أومباشى فى خنادق الحرب العالمية الأولى ، وعرف فيها بأس الجندى الفرنسى .

وفى حسمى السعادة الغامرة التى أحس بها الفوهرر بعد هذا النجاح العظيم أجرى واحدة من حركات الترقيات الكبرى ، رفع فيها رتب عدد كبير من الجزالات إلى رتبة فيلد مارشال : ومن بين هؤلاء فالترفون رايشناو الذى لم يجد فيها الترضية التى كان ينشدها ، إذ قلل من شأنها حصول عدد كبير من زملائه عليها .

* * *

وجاء أخيراً دور بريطانيا التى قررت القيادة الألمانية العليا أن الوقت قد حان من أجل «تأديبها» وحملها على التعقل . لكن الأمر لم يسرها كما حدث فى المعارك السابقة التى خاضتها قوات هتلر ، إنما اتخذ الاتجاه الآخر الذى نعرفه .

لقد كان الاسم الرمزى لمعركة بريطانيا هو (سبع البحر) ، وفى نطاق هذه المعركة ظل رايشناو قائداً للجيش الألمانى السادس الذى عهد إليه بأن يتزل من السفن بالقرب من ميناء (بور تسموث) الذى كان قاعدة بحرية بريطانية منيعة .

غير أن الشروع فى عملية الغزو بأكملها لم يتم نظراً لفشل جورنج فى السيطرة على أجواء بريطانيا بسلحه الجوى . فكان فى هذا الفشل التحول التاريخى الذى غير مجرى النتائج التى أسفرت عنها هذه الحرب : ذلك أن هتلر بدأ يفكر فى الاتجاه إلى الشرق ، لكى يقضى على الاتحاد السوفيتى ، فقرر مهاجمة الأراضى الروسية بغتة برغم وجود ميثاق عدم الاعتداء المعقود بين الدولتين عام ١٩٣٩ .

ومن أجل ذلك نقلت القوات الألمانية التى كانت رابضة على سواحل بحر المانش ، واتجهت ناحية الشرق ، ومن بينها الجيش السادس الذى يقوده رايشناو . بعد أن انضم إلى مجموعة جيوش فون رونشت .

وفى بداية معركة روسيا بدا أن كل شىء قد عاد إلى سيرته الأولى سهلاً هيناً : فقد قام الجيش السادس يوم ٩ من يوليو ١٩٤١ بفتح ثغرة عريضة فى الحشود التى تقف على حدود

الاتحاد السوفيتي ، فبدد صفوفها .

وانطلق رايشناو يسابق الريح في مطاردة القوات السوفيتية ، فوصل يوم ٢ من أغسطس من ذلك العام نفسه إلى قرب مدينة (دريمسك) على نهر بوج ، وهنا قام بحركة كماشة بارعة جعلت قواته تتحد هي والجيش الألماني السابع عشر ، فحاصر الجيشان في منطقة (أومان) ثلاثة جيوش سوفيتية دمرت دماراً نهائياً .

وفي أواخر أغسطس التف رايشناو التفافاً سريعاً حول القوات الروسية المرابطة في الشرق . وراح يضغط عليها ضغطاً شديداً ، مما مكن المدرعات التي يقودها جودريان وفون كليست من احتلال القرم وحوض الدونيتز ، وباتت هزيمة الاتحاد السوفيتي قاب قوسين أو أدنى . . .

» * «

غير أنه ما كاد يحل شهر ديسمبر حتى كانت مصاير الحرب التي تخوضها ألمانيا النازية في الأراضي الروسية قد أخذت تنقلب رأساً على عقب : ذلك أن السوفيت قاموا بهجومهم المضاد العنيف الذي التزمت القوات الألمانية بعده باستراتيجية دفاعية ، وضع خطتها أدولف هتلر نفسه ، لكن فون رونشت لم يوافق على هذه الخطة ، واعترض أساساً على استراتيجية الدفاع حتى النهاية التي فرضها القوهزر ، فترتب على ذلك خلاف في التيارات انتهى بأن قدم رونشت استقالته .

وهنا لاح كأن الفرصة الذهبية قد حانت لفون رايشناو ، وقد تحققت هذه الفرصة بالفعل عندما عهد هتلر إليه بتولى قيادة مجموعة الجيوش الألمانية العاملة في الجنوب في المركز الذي كان يحتله رونشت . غير أن القدر لم يتح الوقت الكافي الذي يلزم المارشال فالتر فون رايشناو ، ليكشف عن مدى قدراته في قيادة هذه المجموعة من الجيوش الألمانية : ذلك أنه لم يكبد ينقضى وقت كاف على تعيينه في المنصب الكبير الذي طالما تطلع إليه في أحلامه ، حتى أصيب في شهر يناير ١٩٤٢ وهو في مقر قيادته في (بولتافا) بذخعة صدرية شديدة .

وبينا كانت الآلام تمزق صدره ، راح يحتضن بناظره مجموعة الخرائط الحربية التي كان يدرسها ، ويود لو أنهم لم يحولوا بينه وبينها ، وهم ينقلونه بالطائرة إلى ألمانيا لمحاولة إنقاذه . وقبل أن تهبط الطائرة على الأرض الألمانية لفظ فون رايشناو أنفاسه الأخيرة ، تاركاً وراء ظهره مصير جيوشه للمجهول .

obeikandi.com

الفصل الثالث عشر

هرمان جورنج : قائد الأوهام !

لقد احتلت أسطورة هرمان جورنج مكاناً خاصاً بين جنرالات ألمانيا العظام وقياداتها العليا ، لما عرف عنه من جسارة في بداية الأمر ، وما تبين فيه من سداجة في النهاية . فلقد كان نازياً منذ الدقائق الأولى لقيام هذا النظام الذى عينه رئيساً للبوندستاج ، وبعدها وزيراً للطيران فور استيلاء هتلر على الحكم . فاستخدم السبل كافة لبناء الأسطول الجوى الألمانى الجديد فى سرعة مذهلة . والواقع أن هذا الأسطول بالذات هو الذى أتاح له ذلك المجد القصير الأجل التى تمتع به فترة من الزمن ، كما جعل منه الخليفة المنتظر للفوهرر الألمانى . ويرغم أنه عرف بالإخلاص والفناء فى سبيل هتلر ، فإنهم قد وصموه فى النهاية بالخيانة على حين كان يحاول المستحيل لكى ينقذ ألمانيا ، ومن قبلها إنقاذ نفسه . وليس هناك من جدال فى أن هرمان جورنج الذى كان يمتلى كراهية وحقداً على معاهدة فرساي هو الذى وضع منذ عام ١٩٢٩ الدعائم الأولى للسلاح الجوى الألمانى . عن طريق حث الآلاف من الشباب على الانضمام إلى «نوادى» الطيران ، التى كان يصرح لها رسمياً بالقيام على أنها نواى خاصة .

وقد دعم بعد ذلك مكانته كرجل قادر على التنظيم الدقيق ، مما مكن له من الحصول على مساعدات مالية كبيرة خصصها للنهضة بالطيران . بل إنه استخدم كل أموال زوجته الثرية ، وهى البارونة كارين فون فوش التى تزوجها بعد مغامرة غرامية قام بها فى شبابه المبكر فى السويد ، لكى يقيم مصانع للطائرات .

وبإلى جانب ذلك ، فإنه كان شريكاً أو منفذاً لعمليات التطهير الرهيبة التى دبرها هتلر ، وتخلص بها من خصومه . وتولى رئاسة مشروع السنوات الأربع الذى تدعمت به الصناعات الألمانية الأولى لإنتاج طائرات القتال .

ولم يعرف قط عن جورنيج أنه حاول الاعتراض على الأعمال الجنوية التي قام بها هتلر . بالرغم من أنه كان يستطيع إبداء هذا الاعتراض . وفي عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية أصبح جورنيج رجلاً بالغ الثراء . غير أنه فقد تلك الشجاعة التي عرفت عنه في الحرب العالمية الأولى التي سجل خلالها أعمالاً بطولية ، وأمقط وحده ٣٦ طائرة للأعداء في مبارزات اتسمت بالفروسية .

لقد تربع فترة فوق القمة . وهو يحمل جسده الضخم الذي بلغ ١٣٠ كيلو جرام . وغطى صدر سترته العريض بأوسمة ونياشين لامعة . استحق منها ولا شك واحداً هو وسام « الصليب الأزرق » الذي جعل أعوانه المقربين ابتداء من « أبطال الجو » - وفي مقدمتهم الطيار جالاند الشهير - يقدرون عبقريته في التكتيك والاستراتيجية ، ثم إنه كان يستمد الثقة من عقيدة استقرت في الأذهان مؤداها أن من المستحيل هزيمة التكنولوجيا الألمانية . وبعد ذلك أصبح يؤمن بأنه ليس هناك أى خصم يقيق لوقوف أمام السلاح الجوي الألماني !

وشهدت ألمانيا الأيام الزاهية مع الهجمات الخاطفة التي سقطت في إثرها بولندا وفرنسا ، نتيجة للانقلاب التام الذي أدخلته طائرات « شوكا » التي أطلقوا عليها اسم الدبابة الطائرة على المعارك الحربية ، ومعها طائرات الانقضاض من طراز « يونكرز ٨٧ » التي كانت تدك خطوط الأعداء الأولى وما وراءها .

على أن هذين النوعين من الطائرات ذات القدرة المظهرية غير الحقيقية لم تكن لها سوى قدرة ذاتية ضئيلة ، ولم تثبت أن اتضحت فيها عيوب جسيمة ، لكن الانتصارات المدوية التي أحرزتها في بداية الحرب جعلت قائد السلاح الجوي الألماني العتيد يسكر بخمرة النصر ، كما جعل هتلر يمنحه لقباً عسكرياً ابتدعه خصيصاً . هو لقب « مارشال الرايخ » .

ويبدو أن الترف المبالغ فيه يقتل هم الرجال : ذلك أن جورنيج الذي ماكادت زوجته تتوفى حتى سارع بالزواج من إحدى الممثلات . وأصبح يمتلك مزرعة واسعة . ويقتنى التحف والآثار ، ويهوى الصيد والقنص ، وينصرف إلى سماع الموسيقى ، ويتعاطى المخدرات . . . لم يلبث أن أصبح شخصاً آخر غير ذلك الرجل الشجاع المحارب ، وتغول إلى سراب أنكره أصدقاؤه القليلون ، وندد به رجال الرايخ الأقوياء .

ولقد أعمته السلطات التي يتمتع بها ، فأقسم للفوهرر أن يجعل بريطانيا تركع أمامه على ركبتيها ، وذلك بأن يفرض عليها حصاراً جويّاً رهيباً ، يمهد للهجوم على الجزيرة . وبه تنتهى

الحرب ، غير أنه لم يُدخل في اعتباره مصادر العدو الفنية والبشرية ، وكذلك الحدود التي يعجز عن تخفيها سلاح الجو الألماني الذي تصور جورنج خطأ أنه لا يهزم .
ولقد بدأ أن الخطط التي راح يدرسها مع هتلر مباشرة خطط كاملة ، وأن معركة بريطانيا سوف تنتهى حتماً بفوز ألمانيا بها ، لكن الذي حدث أنها انتهت بأول كارثة تنزل بالرايخ الثالث .

والواقع أن المعركة بدأت يوم ١٣ من أغسطس ١٩٤٠ ، فزج فيها السلاح الجوي الألماني على الفور بألفين وأربعمئة طائرة ، قسمت إلى عدة أساطيل ، تولى قيادتها الجنرال ستومف والمارشالان كيسلرنج وسيرلى .

وكانت قواعد انطلاق الأساطيل الجوية الألمانية في النرويج والدانمارك وبلجيكا وهولندا وفرنسا ، وتتكون من قاذفات قتال بعيدة المدى ، وطائرات انقضاض من طراز «شتوكا» ، ومقاتلات «مسرشميت ١٠٩» وطائرات التدمير طراز «مسرشميت ١١٠» .

أما الأهداف فكانت المدن الصناعية البريطانية وبعدها لندن .
وفي الأيام الأولى كانت في انتظار الألمان مفاجأة مؤلة : فلقد أسقط الإنجليز لهم عدداً كبيراً من الطائرات ، وسرعان ما تبينوا أنه على طول السواحل البريطانية الشرقية والجنوبية شبكة هائلة من الرادار ، كما تبينوا أن الطائرات الإنجليزية التي تقل عدداً عن الطائرات الألمانية أسرع منها وأكثر كفاية . ولا سيما طائرات «هاريكان» و «سبيتفاير» .

وهكذا لم تستطع الحسارة التي كانت يتحلى بها الطيارون الألمان وحدها أن تعوض النقص الفني الذي لم يحسب جورنج حسابه جيداً ، فضلاً عن ذلك فإن الإنجليز راحوا يدافعون عن أراضيهم ببسالة مذهلة ، فكان رجال أطقم الطائرات المقاتلة ما يكادون يتفهمون من عملية دفاعية ، حتى يعودوا فوراً إلى عملية جديدة ، مما جعلهم يواجهون بمجدارة العدو الألماني برغم أنهم لم يكونوا يمتلكون من الطيارين سوى ١٢٠٠ .

والواقع أن هذه الروح التي لا تعرف اليأس كان وراءها قائد بريطاني هو سير هيو دوداننج الذي تولى قيادة طائرات المطاردة ، والذي بلغ من الجرأة أنه بعث بقاذفاته لكي تغير على برلين نفسها ، الأمر الذي جعل من جورنج موضعاً دسماً للسخرية ، لأنه كان قد أقسم على عدم السماح لطائرة معادية واحدة بالتحليق في الأجواء الألمانية .

ونار هتلر غضباً ، وعند ذلك وقع في غلطة فاحشة ، إذ استدعى جورنج ، وأقنعه بأن

يعدل عن الهجوم على المواقع العسكرية والصناعية البريطانية لتدميرها ، وأن يقوم بدلاً من ذلك بغارات إرهابية على السكان المدنيين وخاصة في العاصمة لندن . وهكذا تعرضت المدينة طوال ٥٧ ليلة متتالية لعمليات دك لا تنقطع ، ولكن قيادات طائرات القتال البريطانية استطاعت أن تضيق مجال دفاعها . ومن ثم أعادت تنظيم نفسها ، وأدخلت في المعركة قوات جديدة . وأخذت التشكيلات الألمانية تتحطم الواحدة بعد الأخرى ، ليس فقط من ضربات المدفعية المضادة للطائرات . وإنما فوق بحر المانش ، بمهاجمتها خلال مجيئها وعودتها ، عندما لا تكون تحت الحراسة .

وفي نهاية شهر أكتوبر . وبعد سلسلة من الغارات التي حثت أحياء كاملة من لندن ، ودمرت مدناً مثل كوفنتري ، اضطر الألمان إلى تخفيض معدل هجبتهم . فقد كانت خسائرتهم جسيمة . يصعب تعويضها سواء في الرجال أو في الطائرات التي قدر عدد ما سقط منها فوق الجزيرة البريطانية بحوالى ١٧٣٥ طائرة في مقابل ٩٥٥ طائرة بريطانية . وهنا فقط اقتنع القوهري بأن غزو بريطانيا أمر مستحيل ، ومع أنه يعتبر بدوره مسئولاً عن ذلك فإنه أبدى خيبة أمله في جورنيج هذه الإستراتيجية الخاطئة ، غير أن جورنيج أصر على وجهة نظره ، وقال إنه لابد من ضرب بريطانيا في مطاراتها وصناعاتها ، وأنه ينبغي القضاء على سلاح الجو الملكي البريطاني ، قبل أن يصبح قادراً على استعادة زمام المبادرة .

ورمى أخيراً أن تلقى المسئولية لفشل غزو بريطاني على قائد آخر هو الجنرال إرنست أوديت رفيق جورنيج في الحرب العالمية الأولى ، ثم أصبح معاونه المخلص ، فلم يجد الرجل بداً من أن يضع حداً لحياته بالانتحار .

على أن هذه النهاية لم يكن من شأنها إلا أن تركت ظلالاً قاتمة على كفاية مارشال الرايخ هرمان جورنيج .

• • •

بيد أن نجم جورنيج لم يثبت أن عاد لكي يلمع مرة أخرى ، ولو أنه كان لمعاناً وهمياً ، وذلك عندما قرر هتلر يوم ٢٢ من يونيو ١٩٤١ الهجوم على الاتحاد السوفيتي .

ولقد فوجئ الروس بهذا الهجوم الذي أوقع بهم خسارة فادحة . وحقق السلاح الجوي لألماني نتائج ذات أبعاد هائلة : ففي الأيام الأربعة الأولى من الحرب استطاع أن يدمر ستين مطاراً سوفيتياً تدميراً كاملاً ، وأن يحطم للروس ثلاثة آلاف طائرة . وقد بدا على الفور أنها

كارثة لا يمكن الاتحاد السوفيتي أن يقوم من بعدها ، إذ أعقبها تدفق جحافل الألمان على الأراضي الروسية . التي أخذت في الزحف صوب لسنجراد والقرم وموسكو نفسها . وتناسى العالم معركة بريطانيا . وعاد هتلر ، ليرى في جورنيج أعظم بطل في الدولة الاشتراكية الوطنية ، وأعلن أنه اختاره ليكون خليفته إذا هومات ، ووصل الماريشال إلى قمة القمم مقتنعاً في طريقه كلاً من جوبلز ومارتن بورمان ، وأصبح بعد الفوهرر أقوى رجل في ألمانيا النازية .

غير أن القدر حال دون انهيار الاتحاد السوفيتي الذي عثر على المجد عند مدينة ستالجراد . ومعه عودة الروح الحاسمة : ذلك أنه سرعان ما تغير الجو ، واكفهرت السماء ، وانهمرت الثلوج وحدث نقص خطير في العتاد والمهمات والوقود ، وأطل الشتاء برمهريه على الأسطول الجوي الألماني فشل حركته ، واضطرت معه القوات الراحقة إلى التوقف ، طلباً للدفع في مواقع ثابتة .

وفي هذا الشتاء بالذات كانت بداية النهاية للرايخ الثالث : ففي نوفمبر عام ١٩٤٢ كان ثلثائة ألف جندي ألماني تحت قيادة الجنرال (فردريش فون باولوس) محاصرين في ستالجراد . ولقد كان يمكن إنقاذهم لو لم يكن هتلر قد اعترض أساساً على انسحابهم . وتعين عند ذلك مساعدتهم . وهنا طلب الفوهرر من جورنيج أن يفعل المستحيل لإنقاذهم . وأن يقيم جسراً جويًا لتأمين هذه القوات المحاصرة بأطمان من الوقود والذخائر والطعام . وجمع جورنيج رجاله ومساعديه . لكي يصدر إليهم الأوامر اللازمة . غير أن الصدمة كانت عنيفة عليه عندما فوجئ بأن ألفاً ومائتين من طائراته التي كان يعتمد عليها غير صالحة للطيران .

وأخذ رجال فون باولوس يتساقطون بالآلاف كل ساعة ضحايا للجوع والصقيع والأمراض واليأس . وسجلت ستالجراد والخزيمة في الاتحاد السوفيتي أقول نجمة جورنيج الذي أصبح كماً مهملًا . وتعرض للنقد الشديد حتى من جانب جنرالائه . على حين ظل هو يعتز بأجاده الماضية .

• • •

لكن ذلك لم يمنع أنه ظل قائداً للسلاح الجوي الألماني الذي ما برحت المصانع تمده بطائرات لاحصرها . إلا أن اتساع رقعة الحرب ، والعون المتزايد الذي قدمته الولايات المتحدة للتحلفاء كان من شأنها أن اقتصر دور السلاح الجوي الألماني على عمليات الدفاع . وهو دور لم

يكن أساساً مؤهلاً له . فلقد انهزم في سماء أفريقيا . وبات عاجزاً في الجبهة الروسية . وغير موجود تقريباً عندما أنزل الحلفاء قواتهم في نورماندى . ولم يعد ما كان يعتقد أنه أقوى أرمادا جوية في العالم قادراً لا على لتصدى لأعمال حربية . ولم يستطع جورنج الذى أصبح يلقى الازدراء والمعارضة من جميع المحيطين به أن يحصل من هتلر على ما يدعم هذا السلاح . ولقد سبق لجورنج أن قطع على نفسه عهداً ألا يسمح لأى طائرة بأن تتخطى الحدود الألمانية . ولكن ما هي ذى ألمانيا كلها تشهد برلين وهي تدمر . ومعها أهم المدن ، فتحترق فيها المصانع والبناني ، التي تنصب عندها أطنان القنابل منبهة من السماء . حقاً إن المطاردات الألمانية قد عهد بها إلى رجال شجعان استمروا في القتال إلى أن أصبحت أسرارهم غير قادرة على الارتفاع في الجو ، أو مواجهة التشكيلات البريطانية والأمريكية الضخمة التي بلغت نسبتها ١٠ إلى واحد . غير أن هؤلاء الطيارين لم يكونوا يحاربون في ذلك الوقت بالتأكيد باسم جورنج الذى لم يعد أحد يثق فيه أو يؤمن به .

فما اقتربت نهاية الرايخ الثالث عمد إلى محبته الجبلى في (أوبر سالزبرج) ، حيث ذهب إليه الجنرال كارل كولبر لىكى يبلغه ما اعترمه هتلر من أن ينهى حياته في قبة برلين ، وهنا تصور جورنج أن من واجبه أن يحل محل الفوهرر ، ولكن هذا لم يلبث أن وجه إليه بإيعاز من جوبلز وهيملر تهمة الخيانة العظمى ، ناسبين إليه أنه حاول عقد صلح منفرد مع الحلفاء . وترتباً على ذلك ألغى قرار تعيينه خليفة لنفوذهم . وهو القرار الذى كان قد صدر في إبرن مجده . ومرة أخرى حتى المارشال رأسه استخداء . وبعث رسالة إلى فون ريبنتروب يؤكد فيها ولاءه للزعيم . إلا أنه فعل ذلك متأخر . إذ فوجئ بكتيبة من جنود العاصفة تقتحم عليه محبته . ومعها أمر باعتقاله !

ونقل جورنج مقبوضاً عليه إلى قرية (ماوندورف) النمساوية ومعه زوجته (إيمي) . ولكن عدد من ضبط السلاح الجوى تمكنوا من إطلاق سراحه . إذ كانت قوات العاصفة قد بدأت تسرح نفسها بنفسها . بعد أن أذيع نبأ انتحار أدولف هتلر يوم الأول من مايو ١٩٤٥ . ومرة أخرى توهم المارشال الجوى الذى عاوده شعور التعالى أن في استطاعته الدخول في مفاوضات مباشرة مع الجنرال آيزنهاور الأمريكى . ولكن الأمر انتهى به إلى أن سم نفسه إلى أصغر قائد في قوات الحلفاء .

وخلال نظر قضية (نورمبرج) ، كان جورنج يجلس مستسماً في مقاعد المتهمين ، ولا يلقى
أى اتهام يوجه إليه . ولكنه حاول بكل الطرق تبرير الأعمال التي قام بها بغير أن يلقى بأى لوم
على ذلك الرجل الذى سيطر عليه وعلى ألمانيا كلها ، والذي كان قد نفخ فيه حتى أبغته عنان
السماء ، ثم حطمه بكلمة واحدة .

والذين شاهدوا هرمان جورنج أيام تلك المحاكمة لابد أن يكون قد راعهم ذلك الهزال
الذى أصابه بعد امتلاء ، وتلك الشفافية التي ظهرت عليه بعد أن حرّمه تناول ما اعتاد عليه
من المخدرات . وكذلك السخرية المريرة التي كان يعنق بها على الأسئلة التي تطرح عليه خلال
الاستجواب .

والعجيب أنه استعاد - وهو في ذلك الوضع الدليل - اعترازه القديم بنفسه ، وهو
الاعتزاز الذى ألقى عليه السماح لهؤلاء الخلفاء أن يتحكموا في مصيره ، وأن ينهوا حياته معلقاً من
عنقه في عود إحدى المشائق . ولذلك فإنه استخدم للمرة الأخيرة دهاءه في الوقت المناسب ،
فابتاع محتويات زجاجة صغيرة من السيانور ، أخفاها ببراعة في فمه طوال المحاكمة .
وقد مات هرمان جورنج يوم ١٥ من أكتوبر ١٩٤٦ ، ولم يكديبلغ الثالثة والخمسين .

obeikandi.com

الفصل الرابع عشر

فيلهم كيتل

الرجل الذى يقول (نعم) دائماً !

كانت هناك عدة تسميات تطلق على فيلهلم كيتل ، أشهرها الجنرال (حاضر يا سيدى) أو (تابع هتلر) ، وذلك لأنه اعتاد أن يطبع الفوهرر طاعة عمياء ، ولا يعارض أية رغبة له . ولقد كان من الناحية النظرية هو الرجل الثانى فى القوات الألمانية المسلحة ، والقائد الذى كان فى استطاعته أن يكون له تأثير على هتلر ، وواحداً من أعضاء (لجنة الثلاثة) التى تكونت منه ، ومن مارتن بورمان . وهاتر لا مبرز الذين كان على ثلاثتهم ابتداء من شتاء عام ١٩٤٢ أن يرفعوا إلى الزعيم الأوامر التى كان عليه أن يوقعها . وقد كان ذلك تنفيذاً لقرار أصدره الفوهرر ، لكى يضع به حداً لتلك الفوضى التى نشأت عن قرارات لا ضابط لها ولا رابط ، ولكى تكون له الكلمة الأخيرة .

• • •

كان ذلك أيام أحداث ستالينجراد عندما كان الوضع بالغ الخطورة على ألمانيا ، التى لم يعد أمامها أى مسلك للخروج من المأزق . ولقد بدا أن القرار الخاص بإنشاء (لجنة الثلاثة) تحول وانحراف عن مبدأ القيادة الموحدة ، ولكنه كان فى الواقع مجرد مصفاة جديدة على القرارات ، قبل أن تصل إلى الفوهرر ؛ لكن هذا القرار ما كاد يصدر حتى وجد الجنرال كيتل نفسه يواجه المتاعب ؛ إذ إنه لا قائد البحرية ولا قائد الجيش - أى الأميرال رايدر أولاً ومن بعده الأميرال دوينتس والمارشال جورنيج - أذعنا لقبول سلطة أخرى عليها .

وحتى (لا مبرز) فإنه انضوى بدوره إلى جانب بورمان الذى كان له من النفوذ ما يفوق كيتل لدى الديكتاتور الألمانى

والواقع أنه بينما كان بورمان رجلاً ذكياً بالغ النشاط ، وممثلاً للحزب ، كان كيتل حذراً .

ممثلًا بالشكوك والخاوف ، متعلقاً - كما يقال اليوم - بالمقعد الذى يجلس عليه .
وعندما كان يسمع صوت هتلر كان وجهه يشحب ، ولسانه يتلعث ، ثم يضرب كعبيه
بعضها فى بعض وهو يهمس قائلاً : (حاضر يا سيدى الفوهرر) ، وهى العبارة التى أصبحت
عنواناً له ، وإن كان يحمل لقب المارشالية !

أما الدوائر العسكرية التى لم تكن تسمح لنفسها بأن يتولى قيادتها (الأومباشى) القادم من
بوهيميا - كما كانوا يسمون هتلر - فإنها كانت تنظر فى امتعاض إلى أن كيتل يتربع على رئاسة
القيادة العامة للقوات المسلحة . حقاً إنه ضابط مدفعية جسر ظل يرتدى زيه العسكرى منذ
عام ١٩٠١ ولم يخلعه قط ، كما أنه أحد الذين أنشؤا الجيش الألمانى الحديث ، وخلقوا القوة
العسكرية الألمانية ، ولكنه أيضاً الرجل الذى كان فى استطاعته أن يقول لهتلر (لا) ولكنه لم
يقلها قط .

إنه يقول (نعم) دائماً . ولا شئ غيرها . وعندما كان الحلفاء يحاكمونه فى قضية نورمبرج
كان الجوزال «حاضر يا سيدى» - يتخذ وضع الانتباه فى كل مرة يوجه إليه أحد القضاة
الكلام ، وكان يردد دائماً القول بأنه «مذنب» ، ويحمل نفسه بكل المسؤولية !

• • •

وقد سأله المحامى الذى كان يتولى الدفاع عنه : لماذا يفعل ذلك ؟ فأجاب كيتل قائلاً :
«وماذا كنت أجيب ؟ إن شرفى العسكرى ينعنى من أن أكذب . لقد ستلت : هل كنت قد
نقلت أوامر تخضع للتجريم ؟ فأجبت بنعم ، وإلا فهاذا كنت أجيب ؟ فليحاكمونى كما
يريدون . ولكن الحقيقة هى هذه» .

هكذا كان كيتل : فهل مثل هذه احكاممة التى لن تأخذ منه سوى الحياة يمكن أن تجعله
يخرج عن الخط الذى رسمه هتلر ، أو أن يتنكر لذلك المبدأ الذى ورد فى كتاب «كفاهى»
الذى كتبه الزعيم عندما كان سجيناً عام ١٩٢٤ فى سجن لندسبرج ، وقطع فيه بأن القرارات
يجب ألا يتخذها سوى رجل واحد ، هو الفوهرر ؟

وهل كان فى استطاعة كيتل أن يرفض مبدأ الطاعة ؟ كلا ، إن هذا مستحيل . ولعل ذلك
يدكرنا بتلك العبارة المشهورة التى قالها (ميرابو) زعيم الثورة الفرنسية : «إن بروسيا ليست دولة
لها جيش ، ولكنها جيش له دولة !» ، وهذه الدولة التى قامت نتيجة للجهود التى لا تعرف
الكلل من جانب المؤسسة الصناعية الألمانية - إنما هى فى الحقيقة كل شئ ، وما الكائنات

البشرية فيها سوى أجزاء تتحرك في هذه الآلة الضخمة العجيبة !
أما الفرد فإنه يتعلم ليس فقط من الملوك أو الأومباشية المدربين ، وإنما من الفلاسفة ، أن
مهمته هي أن يطيع ، وأن يعمل ، وأن يضحي بنفسه أمام الواجب . وحتى (كانط) فإنه كان
يرى أن الواجب يتطلب إلغاء المشاعر الإنسانية .

وخلال الاجتماعات الشهيرة للحزب في نورمبرج كانت تباع بطاقات صغيرة عليها صور
لكل من فردريك الأكبر ، ويسمارك ، وهندنبورج ، وهتلر ، وفوق تلك الصور كتبت
عبارة تقول : « إن ذلك الشيء الذي انتزعة الملك ، والذي كونه الأمير ، ودافع عنه
الفيلدمارشال ، قد أنقذه الجندي وحده ! » وهتلر هو الجندي الذي أقام ألمانيا من عثرتها ،
بعد طعنة الخنجر التي أصابها عام ١٩١٨ ، وتعين إطاعته مها كان الثمن في نضال ألمانيا من
أجل « مجالها الحيوى » .

• • •

هذا هو السبب الذى جعل كيتل يقول : « حاضري يا سيدى » ، لرجل نمسوى تجنس
بالجنسية الألمانية في فبراير عام ١٩٣٢ فقط ، على حين كان يجب عليه هو الذى يتمنى إلى
الجنس السيد في ساكسونيا - أن يحتقره . فلقد ولد فيلهلم كيتل في (هنمشورر) بالقرب من
جندير شاييم ، يوم ٢٢ من سبتمبر ١٨٨٢ ، والتحق بالجيش عام ١٩٠١ ، وظل يترقى فيه حتى
وصل إلى أركان الحرب . وفي الجبهة الغربية تولى القيادة في إحدى بطاريات المدفعية ،
وأصيب عام ١٩١٦ في معركة (فردان) وبعدها حصل على وسام الجدارة .

وانضم كيتل في عام ١٩٢٢ إلى جيش الرايخ ، وهو الجيش الذى ضم مائة ألف رجل هم
الذين سمحت بهم معاهدة الصلح لألمانيا ، والذى أصبح بمثابة مدرسة للحرب ، وجيش
للقبادات : فقد كان كل رجل فيه يدرّب على أن يكون قائداً ، على طول المدرج الرئاسى ،
حتى إن جندي المشاة فيه كان يعد ليكون مدرباً بدرجة جاويش .

وقد ظهرت كفاية كيتل في جيش الرايخ ، فأعير عام ١٩٢٩ لوزارة الحربية ، ليكون
مسئولاً عن إدارة إعادة تنظيم الجيش الذى كانت المؤسسة الصناعية الألمانية تموله سرّاً والذى
تشبع بالنظريات النازية ، إذ رأى جميع أولئك الرجال الذين خابت آمالهم أن الوطنيين
الاشتراكيين هم الذين سوف ينقذون الوطن الذى تعرض للخيانة .

• • •

ولقد كان على جيش الرايخ الذى يضم مائة ألف رجل بعد أن أصبح يسمى الجيش الألماني أن يتوسع بحيث يشمل ثلثمائة ألف جندي في فترة تنتهى في الأول من أكتوبر عام ١٩٣٤ . إلا أنه في آخر عام ١٩٣٢ ، توقف نشر أى معلومات في النشرة العسكرية التي كانت تسرد ترقية الضباط . وكان الغرض من ذلك هو منع إدارات المخابرات الأجنبية من الوقوف على أنباء زيادة أعداد الجيش الألماني .

ولقد أصبح كيتل قائد فرقة في عام ١٩٣٣ ، ورئيساً للجنة العمل في مجلس الدفاع في الرايخ ، فراح يحذر معاونيه من ترك أية وثيقة تسرب ، من شأنها إعطاء أى معلومات تفيد العالم الخارجى عما يجرى في الجيش الألماني . وكانت البحرية الألمانية بدورها تعمل في ذلك الوقت على التخلص من القيود التي فرضت عليها ، بموجب معاهدة فرساي : فأخذت تبنى سفناً جديدة حمولة ٢٦ ألف طن ، وتزعم أنها لا تتعدى الحمولة المسموح بها ، وهى عشرة آلاف طن فقط .

وتعلم كيتل في تلك الأعوام ، أن يقول : (نعم) لهتلر بحماس شديد ، وكان ذلك سهلاً ومريحاً له : فقد عين عام ١٩٣٥ مديراً لإدارة القوات المسلحة بوزارة الحربية ، ثم أصبح قائد جيش عام ١٩٣٦ ، ثم رقى في العام التالى إلى رتبة الجنرال .

وفي عام ١٩٣٨ كان كيتل مع ألفريد جودل الذى سيصبح رئيسه في هيئة أركان الحرب واحداً من الذين دبروا المؤامرة التي أدت إلى أن قدم المارشال فرنز فون بلومبرج استقالته من رئاسة أركان الحرب في الجيش الألماني الجديد .

ولقد كان لهذه المؤامرة التي استهدفت إزاحة هذين الرجلين من المسرح السياسى أصداء يمكن وصفها بأنها (أوبرا) صغيرة ، لولا أنها قامت على أساس مأساوى .

ذلك أن بلومبرج توفيت زوجته عام ١٩٣٢ ، وتزوجت إحدى بناته الابن الأكبر للجنرال كيتل ، وهو رجل نهده المارشال المعجوز كما لو كان شقيقاً صغيراً ، وظل يضى عليه حياته طوال حياته . وقد حدث أن المارشال بعد أن بلغ الستين من عمره وقع في غرام سكرتيرته الشابة (إرنا جروهن) ، وأعلن أنه سيتزوجها . ولذلك فإنه طلب النصيحة من جورنج الذى كان يعلم أنه صديق لهتلر ، إذ لم يكن مألوفاً في ألمانيا أن يتزوج ضابط عظيم برتبة الفيلد مارشال إحدى السكرتيرات . لكن جورنج طمأنه . . . ألم يتزوج هو بعد أن تزل مثلثة مطلقاً ؟

رونشت ، وفون بوك ، ولب ، وليست ، وفون كلوج ، وفون فيترلين ، وفون رايشنآو .
أما جورنيج فقد منح لقب الماريشال الأعلى ، وأهدى له هتلر الصليب الحديدي الأكبر ،
وهو الوسام الوحيد من هذه الطبقة الذي لم ينله سواه في هذه الحرب .
ولقد كان من شأن توزيع «عصا الماريشالية» أن جعل الدوائر العليا في الجيش الألماني
ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهتلر . غير أن بريطانيا أعلنت أنها لم تنزم بعد في الحرب ، بل أنها ستستمر
في خوضها ، والعالم يعرف كيف انتهت . وهنا قام كيتل بوضع خطة لإنزال القوات الألمانية في
الجزيرة البريطانية ، وهو ما لم يسبق له مثيل في العصر الحديث ، فإن هذه الخطة لم يقدر لها
قط أن توضع موضع التنفيذ ، إذ كلفه هتلر بتوسيع خطته حتى تصبح غزواً شاملاً للامتحاد
السوفيتي .

• • •

ولقد كان هتلر يتحرق شوقاً لبدا الهجوم على الروس في خريف عام ١٩٤٠ ، لأنهم في
هذه الفترة لم يكونوا يتوقعون ذلك . وبذل كيتل . مجهوداً جباراً لإقناع الفوهرر بأن عملية من
هذا الطراز تعتبر أمراً مستحيلاً ، ليس فقط بسبب الظروف الجوية السيئة ، وإنما أيضاً بسبب
المشاكل التي تستتبع الانتقال المفاجئ من الجبهة التي على السواحل الفرنسية إلى بولندا .
ويقول الجنرال (فالريمونت) نائب رئيس أركان حرب القيادة الألمانية العليا في ذلك
الوقت : إن موعد بدء الهجوم على روسيا قد تغير من خريف ١٩٤٠ إلى ربيع ١٩٤١ ، كما أن
خطة (ذو اللحية الحمراء) عهد بها إلى قواد آخرين .

وراح كيتل يوافق بحماس شديد على كل عبارة يدلي بها زعيمه ، وقد فعل ذلك طوال
الحملة على روسيا فبدأ معركة ستالينجراد عندما وعد بعض الجنرالات بأن يصر على ضرورة
انسحاب الجيش الألماني السادس الذي وقع في شرك الحصار . غير أنه عندما جاءت لحظة
عرض التقرير الأخير للمخطط العسكرية في هذا الشأن ، إذا به ينهض ويشير إلى دائرة حمراء
في الخريطة الجغرافية للمنطقة ، ويعلن بكل حزم : «وهنا ينبغي أن تقاوم حتى آخر
رجل !» .

لقد كان ذلك قرار هتلر ، ونتيجة له تمّ القضاء على ذلك الجيش ، فلم يأخذ الفوهرر بأية
كلمة مما قال به كيتل الذي خضع على الفور لرأيه

وهكذا أصبح يعرف باسم «الجنرال جافوهرل» : أي الرجل الذي يقول : نعم لمن له

وهكذا فإن هتلر وجورنيج كانا شاهدين على قران فرنر فون بلومبرج ، من إرنا جروهون .
إلا أنه بينما ذهب العروسان لقضاء شهر العسل في جزيرة كابري إذا بحقيقة رهيبة تنكشف ،
وهي أن العروس لها ملف في بوليس آداب مدينة برلين ! فقد كانت (المارشال) الجديدة لها
نشاط قديم في أحد صالونات التدليك في العاصمة الألمانية ، وانتشرت هذه الشائعة ، وكانت
فضيحة أكبر . وطلب هتلر من المارشال أن يطلقها ، ولكنه رفض . وعند ذلك أجبروه على
الاستقالة من منصبه ، وظل يعيش في بافاريا بعيداً عن أى عمل في الجيش ، إلى أن انتهت
الحرب .

ولقد كان متوقعاً أن يحتل منصبه فون فريتش ، وهو واحد من المدرسة العسكرية
القديمة ، غير أن هتلر لم يوافق عليه ، لأنه لم يكن نازياً ، ولا يحب جنود العاصفة ، ولذلك
فإنه أوصى به هيملر للتخلص منه ، فدبر له هذا فضيحة أخلاقية ، لم يلبث أن استقال بدوره
في إثرها .

* * *

وهكذا أصبح الجيش الألماني خالياً من أى رجل قادر على أن يعترض رغبات الفوهرر ،
وخاصة بعد أن اضطر ستة عشر جنراً آخرون إلى الاستقالة ، وتُقل أربعة وأربعون من الرتب
الصغرى إلى مراكز بعيدة .

وفي يوم ٤ من فبراير ١٩٣٨ قرر هتلر أن يتولى شخصياً القيادة العليا للقوات المسلحة ،
وأعلن إنشاء ما أسماه بالقيادة العامة التي عهد برياستها إلى كيتل . بعد أن أزاح من طريقه
كذلك وزير الدفاع .

وعن طريق كيتل ضمن الفوهرر ولاء الجيش ، ذلك الجيش الذى لم يكن ينظر بعين
الرضا إلى وجود جنود العاصفة والجستابو . وبدأ بالنسبة لكيتل العهد الذهبي ، إذ عين قائداً
للجيش ، وأخذ يضع بنفسه الخطط لما أسماه «معارك الزهور» التي دخل بها النمسا والنرويج .
لكن المعارك التي تلت ذلك لم تكن كلها «زهوراً» ، لأن كيتل أدرك أن الهجوم على
بولندا سوف يترتب عليه تدخل بريطانيا وفرنسا ، مما جعله يبدى شيئاً من المعارضة لرأى هتلر
الذى قال له : إن هاتين الدولتين لن تتدخلتا .

وبعد ذلك جاء احتلال الدانمارك عام ١٩٤٠ ، وبعدها بلجيكا وهولندا ، ومنها تم غزو
فرنسا . فلما سقطت هذه رقى كيتل إلى رتبة الفيلد مارشال ، ومعه كل من فون براوشيتش وفون

صوت مرتفع يصرخ به ، وقد انتهى إلى هذه النهاية نفسها قواد ألمان آخرون : منهم الجنرال باولوس ، والجنرال سيدلير بعد معركة ستالينجراد ؛ فقد قالوا : نعم للسوفيت الذين كانوا يصرخون أعلى من صراخهم ، ثم عادوا إلى ألمانيا بعد أن أصبحوا شيوعيين عتاة

• • •

ويعتبر كيتل مسئولاً كذلك عن توقيعه أمراً مخزياً ، هو الذى قضى بإعدام ما بين ١٠٠ و ٥٠٠ من الروس فى مقابل كل جندي ألماني يقتل غدرًا فى الأراضي السوفيتية . ومن يراجع (يوميات) الحرب التى سجلها الجنرال جودل يجد فيها عبارة لها مغزاهها تقول : « لقد ألح كيتل على هتلر ، لكى يسمح بسحب القوات التى كانت مرابطة أمام موسكو فى شهر ديسمبر ١٩٤١ ، غير أن الفوهرر قاطعه ، وصرخ فى وجهه رافضاً ذلك ، ثم طرده من مكتبه ! » .

ويروى جودل أنه دخل على كيتل ، فوجده جالساً إلى مكتبه يكتب خطاب استقالته ، وقد وضع مسدساً محشوًا بالرصاص أمامه ، فأخذ جودل المسدس ، وانصرف لشأنه بعد أن أئعن كيتل بسهولة بأن يظل فى منصبه مها كانت الإهانات التى يوجهها إليه الفوهرر . وهكذا استمر فى عمله إلى اللحظة التى أصدر فيها هتلر أوامره بأن يخرج من مقر المستشارية ؛ لكى يتولى القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة ، على حين احتفظ هتلر بقيادة القوات التى أصبح عليها أن تدافع عن برلين ، لكن الذى حدث بعد ذلك أن هتلر قد انتحر هو وإيفا براون .

ووقع كيتل يوم ٩ من مايو ١٩٤٥ وثيقة استسلام الجيش الألمانى فى (كارلسروه) ، ثم ظل متمسكاً فى محاكمة نورمبرج بموقفه وسلوكه اللذين اعتادهما ، إذ كان يقول : « وماذا كان فى استطاعتى أن أفعل سوى إطاعة الفوهرر ؟ » لقد كان من رأيه أن الضابط الحق هو الذى لا يقف فى مواجهة رئيسه وقائده ، بل الذى يطيعه طاعة عمياء !

• • •

والواقع أنه فى أنظمة الحكم الدكتاتورية يمكن للقائد الذى يتلقى أمراً لتنفيذه ولا يكون مقتنعاً به ، أن يختار بحرية كاملة شيئاً بين ثلاثة : فهو إما أن يرفض تنفيذ الأمر ، وهذا معناه الموت له ، وإما أن يستقيل لكى يصبح مطارداً طوال حياته ، وإما أن يتحذر . وقد اعترف كيتل بأنه فكر فى الاستقالة ثلاث مرات ، ولكن هتلر أفهمه أن الاستقالة فى

زمن الحرب تعتبر فراراً من الجندية ، وعقوبة ذلك الإعدام . ويقول : « فما الذى كنت أستطيع عمله ؟ » .

إن كيتل أقر بأنه مذنب فى كل الاتهامات التى وجهت إليه ، ولم يكن يتطلع إلا إلى شىء واحد ، هو أن يموت كجندى : أى ركباً بالرصاص . غير أن هذا الأمل لم يتحقق له ، إذ حكموا عليه بالإعدام شنقاً ، الأمر الذى حز فى نفسه كثيراً ، وجعله يموت من داخله قبل أن يصعد إلى حيث الحبل الذى لفوه على عنقه .

الفصل الخامس عشر

كارل دوينيتس

من البحرية إلى قصر المستشارية

في يوم ١٣ من أكتوبر ١٩١٨ وقع في أسر القوات البريطانية العاملة في البحر الأبيض المتوسط ضابط ألماني شاب لا يزيد عمره على ستة وعشرين عاماً كان يتولى قيادة إحدى الغواصات الألمانية . وكانت الحرب العالمية الأولى توشك أن تضع أوزارها ، غير أن ذلك الضابط الألماني الشاب الذي وقع في الأسر لم يكن يشعر بالمرارة للهزيمة التي تنتظر بلاده ، وإنما كان يفكر في المغامرة البحرية التي قام بها في تلك الليلة ، ولم تأت كما كان يريد ، وكان اسم ذلك الضابط هو كارل دوينيتس .

والواقع أنه كان قد اتفق مع قائد غواصة ألمانية أخرى على اللقاء في عرض البحر أمام سواحل جزيرة صقلية ، لكي تهاجم الغواصتان قافلة بحرية ضخمة للحلفاء لإغراقها . غير أن عطباً أصاب الغواصة الأخرى ، فلم تنجى في الموعد ، وعند ذلك قام كارل دوينيتس بالهجوم بمفرده ، فطفا بغواصته ودخل بها وسط القافلة البريطانية ، ونسف سفينة منها ، ثم عاد وغطس تجنباً للمطاردة التي بدأتها سفن الحراسة .

ومرة أخرى طفا بغواصته على السطح ، ووجه طوربيداً إلى سفينة بريطانية ثانية ، ولكن غواصته أصيبت إصابة خطيرة ، فأصدر أمره بإغراقها حتى لا تقع في أيدي العدو ، وقرر الاستسلام مع لرجاله للإنجليز .

وقد تعلم في تلك الليلة شيئين . الأول تلك الفعالية الرائعة للهجوم البحري الليلي ، والآخر أن الغواصة يمكنها أن تعمل وهي طافية على سطح الماء ، لأنه يصعب رؤيتها ، وفضلاً عن ذلك لم يساوره أى شك في أنه إذا كانت الغواصات المهاجمة اثنتين أو أكثر فإن النتيجة التي ستترتب على ذلك تكون أفضل .

وعاد كارل دوينيتس إلى وطنه بعد هزيمة ألمانيا ، ولكنه لم يهجر البحرية : ذلك أن الفكرة التي سيطرت عليه من أن الغواصات إذا استخدمت بالطريقة الصحيحة كانت الأدوات البحرية المثلى التي تنزل بالعدو خسائر فادحة . ظلت هي الحلم الذي يريد أن يحققه . ولم تكن معاهدة فرساي تسمح لألمانيا بأن تمتلك أى سفن تعمل تحت الماء . ومع ذلك فإن دوينيتس استمر في مهنته ، وظل عاملاً على السفن العائمة . فلما كان عام ١٩٣٥ استطاعت ألمانيا بالاتفاقية البريطانية الألمانية الخاصة بالبحرية أن تدخل على أسطولها عدداً من الغواصات . إلا أنه حتى قبل توقيع الاتفاقية كانت البحرية الألمانية قد بدأت بالفعل في وضع الخطط لبناء غواصات صغيرة طراز (يو بوت) حمولة ٢٥٠ طنّاً لأغراض التدريب أو القيام بعمليات ساحلية ، وقد عهد إلى كارل دوينيتس بمهمة إعادة بناء أسطول الغواصات . ولم يكن الوقت ملائماً . ففياً عدا البحرية الإيطالية والبحرية السوفيتية اللتين كانتا تمتلكان عدداً من الغواصات ، فإن أساطيل الدول الأخرى لم تنظر بعين الاعتبار إلى السفن التي تسير تحت الماء . وكانت بريطانيا ترى أن عهد الغواصات قد انتهى ، وخاصة بعد اكتشاف أجهزة التعرف على أماكن الأجسام العاطسة في البحار من على بعد كبير ، ثم إن طريقة تشكيل السفن في قوافل حولها حراسة قوية كما كان يجري خلال الحرب العالمية الأولى ، بدا لأركان الحرب أنه يصعب مهاجمتها . وقد انتشرت هذه الآراء حتى في الدوائر البحرية الألمانية . ومن هنا كانت المهمة التي اضطلع بها كارل دوينيتس الذي كان لا يزال ضابطاً مجهولاً في البحرية الألمانية بالغة الصعوبة : فقد كان عليه أول كل شيء أن يحو من رجاله الشعور بعدم الثقة في أنفسهم ، ويعمل على تثبيت فكرته من أن الغواصة سلاح هجومي بالغ الفعالية في الحرب البحرية ، وأنها أفضل أداة يمكن تصورها لإطلاق الطوربيد . وكان عليه بعد ذلك أن يضى إلى الأمام بأفكاره ، لكي يطور التكتيك الجديد في الهجوم البحري ، وهي الأفكار التي أنضجتها الأعوام الماضية التي قضاها في التأمل ، بعد تجاربه في تلك الليلة المشهودة من عام ١٩١٨ .

ومن بين ضباط الغواصات في البحرية الإمبراطورية الألمانية القديمة الذين اشتركوا في الحرب العالمية الأولى - غير كارل دوينيتس - مهندس يدعى تيدش ، ضمه دوينيتس إليه ، وبدأ الإثنين معا في تدريب القيادات القادمة في « معركة الأطلنطي » .

وكان الإنجليز قد بالغوا في نتائج الاكتشاف الجديد ، فقالوا إنه يتعرف على مكان أية غواصة وهى على بعد عدة آلاف من الأمتار . وقد أدرك كارل دويتيس أنهم يقصدون بإذاعة هذه الأنباء تخويف الأعداء . ولذلك فإنه قرر أن تكون المسافة القصوى التى تطلق منها غواصاته قذائفها على السفن المعادية ٦٠٠ متر فقط .

ولقد كانت لدى قائد الغواصات الألمانية الجديد أفكار محددة تماماً : فهو يرى أن الغواصة لها هيكل صغير ، مما يجعل من الصعوبة بمكان رؤيتها وهى طافية بين الأمواج . ومن ناحية أخرى فإن عدم ارتفاعها كثيراً فوق سطح الماء لا يتيح لها إلا مجالاً صغيراً للمراقبة والاستطلاع ، فضلاً عن أنها بطيئة . وترتبياً على ذلك ، فإنها لا تصلح لعمليات المراقبة والاستصلاح ، فى حين أن هذه بصفة عامة واحدة من المهام التى يعهد بها إلى الغواصات . إنها قد تصلح لبث الألغام ، لأنها يمكن أن تقترب من سواحل الأعداء بغير أن يتمكن أحد من اكتشافها ، ولا سيما أنه فى تلك الآونة لم تكن الطائرات قد تطورت إلى الصورة التى أصبحت عليها فى الأربعينيات ، كما أن الرادار لم يكن قد اكتشف بعد .

• • •

كانت مهمة الغواصة إذن هى الهجوم على البواخر التجارية ، والقوافل البحرية التى تضم أكثر من سفينة . وهكذا نشأ فى ألمانيا حوالى عام ١٩٣٥ ذلك التكتيك الذى عرف باسم « قطع الذئاب » : أى مجموعة الغواصات التى تلتهم السفن التى تكون سائرة معاً . وفى خريف عام ١٩٣٧ ، طور كارل دويتيس بعد تدريبات كثيرة هذا التكتل ، فأصبح هجوماً تقوم به الغواصات على شكل دائرى ، مما أسفر عن نتائج رائعة .

على أن دويتيس قد قابل صعاباً جمة فى جعل الدوائر العليا فى البحرية الألمانية تتقبل أفكاره الجديدة . إذ كانت لاتزال مقيدة بمفاهيمها التقليدية . وكانت تخشى أن تتعرف القوافل على أماكن الغواصات المهاجمة قبل الأوان ، ومن ثم تتمكن من ضربها .

وكان هناك سبب آخر للخلاف . هو نوع الغواصة الذى يقوم عليه سلاح الغواصات الألمانى الجديد . ووفقاً للأفكار البحرية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت لدى القيادة العامة الألمانية . فإن السفينة الكبيرة التى تحمل عدداً كبيراً من المدافع والطوربيدات . والتى لها القدرة على العمل فى مجال واسع . هى الأفضل .

أما كارل دويتيس فإنه كان يرى أن القيمة البحرية والحرية للغواصة لا ترتفع بزيادة

حجمها ، بل على العكس بتقليل هذا الحجم : ذلك أنه كلما كبر حجمها كانت في حاجة إلى وقت أكبر لكي تغوص في الماء ، كما أن كبر الحجم يجعل درجة الميل فيها كبيرة إلى درجة خطيرة ، ولا يمكن معه وضعها في أعلى البحار بحيث تتخذ موقع المراقبة بالبيروسكوب . وكان رأى دويتيس أن الحجم المثالي للغواصة يجب ألا يتعدى ٥٠٠ طن ، لتصبح ٧٠٠ طن في كامل حمولتها .

على أنه لم يستطع أن يفرض هذا الرأى على رؤسائه الكبار الذين تجلت معارضتهم له في المعدل المنخفض لبناء القطع الجديدة . والواقع أن المصانع الألمانية لبناء السفن لم تسلم له سوى ١٤ غواصة في عام ١٩٣٥ ، وواحدة وعشرين في عام ١٩٣٦ ، وغواصة واحدة عام ١٩٣٧ ، وتسع في عام ١٩٣٨ ، وثمان عشرة في عام ١٩٣٩ .

ورأى دويتيس بثاقب نظره أن الحرب مع بريطانيا تقترب ، ولم يكن موافقاً على ذلك ، ولكنه كرجل عسكري منتم بمهنته . راح يستعد لهذه الحرب . لقد نقل ميدان تدريبات غواصاته إلى المحيط الأطلنطي ، ولكنه عندما أراد القيام بعدد من المناورات الكبرى في هذا المحيط في أواخر عام ١٩٣٧ لم تصرح له القيادة العليا بذلك ، حتى لا يزداد ثقل الموقف السياسى الذى نشأ بعد الحرب الإسبانية .

وفضلاً عن ذلك فإنه حينما طلب بناء سفينة قيادة تزود بأجهزة اتصال - لكي ينسق منها أسطول الغواصات - رفضوا في البداية هذا الطلب ، ومع ذلك ظل يعمل ، حتى انتهى في شتاء ٣٨ - ١٩٣٩ من وضع تكتيك الهجوم على قوافل الأطلنطي ، وأدخل عليه التحسينات النهائية .

ولو أن خبراء البحرية عادوا اليوم بعد مرور أربعين عاماً إلى هذا التكتيك ودرسوه وحللوه ، لوجدوا أن نظريات دويتيس كانت كلها سليمة : فلقد أقرت القيادة الألمانية العليا برنامجاً واسع النطاق لإعادة بناء البحرية يقضى بأن يصبح لألمانيا أسطول ضخم من السفن العائمة و ٢٣٣ غواصة فقط .

وكان الأميرال رايدار قائد البحرية يقول : إن الغرض من هذا الأسطول هو مهاجمة خطوط المواصلات البريطانية في المحيط الأطلنطي ، باعتبارها الشرايين الحقيقية والحوية لإنجلترا . أما قائد الغواصات دويتيس فلم يكن يرى ضرورة لبناء عدد كبير من السفن

العائمة ؛ إذ إنها مضيعة للكثير من الأموال التي يجب أن تخصص للغواصات .
ومن تقديراته الإستراتيجية أن الوضع لا يختلف في المجال البحري وما كان عليه في الحرب العالمية الأولى عندما كان الأسطول الألماني الكبير في أعلى البحار عاجزاً عن الحركة : فلقد كانت السفن الألمانية فعلاً واقفة في قواعد يسهل على العدو السيطرة عليها ومراقبتها ، ولم تستطع الخروج إلى الأطلنطي إلا بصعوبة ، ثم إنه من غير الممكن من ناحية أخرى فرض المعركة البحرية الحاسمة على بريطانيا في بحار أخرى ، وبغير تعريض خطوط الأطلنطي ؛ كما تبين من الأحداث التي وقعت بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ :

فالفواصات وحدها إذن هي التي تستطيع الخروج إلى المحيط بسهولة أكبر ، فتقطع خطوط هذه المواصلات ، لقد فطن الألمان إلى ذلك في وقت متأخر من الحرب العالمية الأولى ، والآن ها هو ذا كارل دونيتس يحاول استرعاء أنظار المسئولين إليه في وقت مبكر ، فلكي ينجح في مهمته ، تلزمه ٣٠٠ غواصة منها : مائة مشتركة في العمليات ، ومائة تحت الإصلاح ، ومائة قادمة في الطريق أو ذاهبة إلى الورش .

* * *

وبعث دويتيس في شهر يونية ١٩٣٩ بمذكرة إلى القائد العام للبحرية ، وهو أمر غير عادي من ضابط لم يبلغ بعد رتبة الأدميرال ، يبلغه فيها الأسباب التي تجعله هو ورجاله على الاعتقاد بقرب وقوع الحرب مع بريطانيا ، ويطلب منه أن يرفع ذلك إلى هتلر . ولكن القيادة العامة ردت عليه في يوم ٢٢ من يوليو وأكدت في ردها أنه ليس هناك أي احتمال لنشوب هذه الحرب ، وأن في استطاعته أن يقوم بإجازة . إلا أنها عادت في يوم ١٥ من أغسطس ، واستدعته على عجل ، وأصدرت إليه أوامرها بتعبئة أسطول الغواصات .

وقد دخلت ألمانيا الحرب ولديها ٥٦ غواصة ، منها ٢٢ فقط في حالة تجهلها قادرة على الاشتراك في عمليات الأطلنطي . وإذ بدأت الحرب تشتعل تقرر خطه لبناء الغواصات تقضى بالانتهاء من ٧ وحدات في عام ١٩٣٩ ، و ٤٥ وحدة عام ١٩٤٠ ، و ١٢٠ وحدة عام ١٩٤١ .

أما دويتيس فقد كان لا يزال مصراً على أن تكون تحت إمرته ٣٠٠ غواصة لا تنقص واحدة ، وقد ظل حتى النهاية مقتنعاً بأنه لو أن ألمانيا دخلت الحرب وفي حيازتها مثل هذا العدد - لتغير وجه التاريخ .

والواقع أنه لم يكن واحداً . فقد ثبت أنه من الرجال القلائل الذين توقعوا أن تكون الحرب العالمية الثانية طويلة ، وكان يشك في أنها ستنتهى بالنصر لألمانيا ، ومن أجل ذلك كان واضعوا الإستراتيجية في الحزب النازي لا يميلون إليه .

وفي هذه الأثناء بدأت غواصات دويتيس عملها في مهاجمة القوافل التجارية ، وفي الوقت نفسه التعرض للأسطول البريطاني .

وقد أصيب العالم كله بذهول عميق عندما دخل ضابط ألماني برتبة قائد تشكيل لبله ١٣ من أكتوبر ١٩٣٩ بغواصته التي تحمل رقم (ى ٤٧) إلى قاعدة (سكابافلو) التي كانت تعتبر قلعة منيعة ، فحضر بطوربيداته المدمرة البريطانية الضخمة (روبال - أولك) ، وأغرقها ، وهى العملية التي وضع جميع تفاصيلها كارل دويتيس .

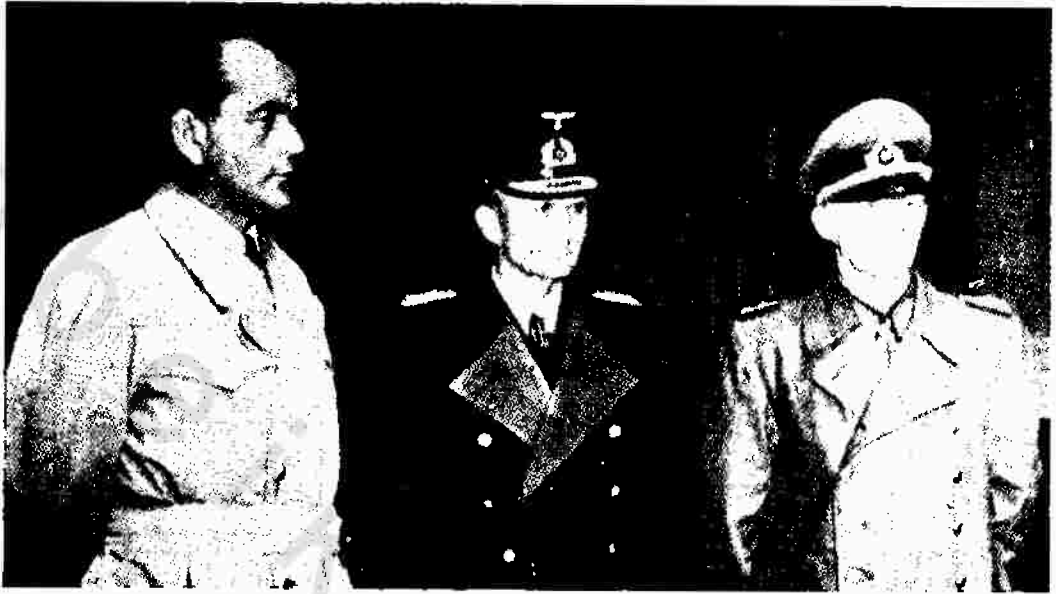
وحصل دويتيس في مقابل هذا النصر على رتبة نائب الأميرال .

ولقد مرت المعركة التي شنتها الغواصات الألمانية في الأطلنطي بأحداث مختلفة ، وحقق فيها الألمان نتائج أكبر عامى ١٩٤٠ . ١٩٤١ ، وقد أتاح احتلال جانب من الأراضي الفرنسية أن استخدم الألمان قواعد مريحة على المحيط ، مما أعطى ميزة ضخمة لقيادة الغواصات التابعة لكارل دويتيس . الذى كانت خطته أن يغرق من سفن الأعداء أكثر مما تخرجه مصانعهم منها .

والواقع أن هذا التكتيك كان بالغ الفاعلية : فقد دمر لبريطانيا يوم ١٧ من سبتمبر ١٩٣٩ حاملة الطائرات «كوراجيوس» وأغرقها ، كما أغرق يوم ١٤ من أكتوبر من العام نفسه المدمرة (روبال أولك) ، وفي يوم ٨ من يونيو أغرق طرادين بريطانيين في المياه النرويجية ، ومعها حاملة الطائرات (جنوريوس) ، فضلاً عن قطعتين من سفن الطوربيد .

وفي منتصف شهر أكتوبر هاجمت الغواصات الألمانية قافلة من ٧٩ سفينة ، فأغرقت ٣٢ منها ، وفي يوم ٢٤ من مايو ١٩٤١ اشتركت قطعتان بحريتان ألمانيتان هما المدمرة (بسمارك) والبارجة (الأمير يوجين) في إغراق البارجة البريطانية (هود) وإعطاب المدمرة (برنس أوف ويلز) .

وفي المحيط الهندي أغرقت الغواصات الألمانية يوم ١٩ من نوفمبر ١٩٤١ البارجة البريطانية (سيدنى) كما أن الغواصة (ى ٨١) أغرقت في البحر الأبيض المتوسط حاملة الطائرات (آرك روبال) ، وبعدها المدمرة (بارهام) .



الأميرال دويتس الذي عينه هتلر يوم ٣٠
أبريل ١٩٤٥ ليخلفه في رئاسة ألمانيا . ويبدو هنا
مع ألبرت سبير والجنرال جودل بعد اعتقالهم



كان المارشال روميل ينمى لو أن مدرعات
القطاع الأوسط سارعت بالانتشار على السواحل
الفرنسية قبل يوم هبوط قوات الحلفاء
أما فون رونشت فإنته عمد إلى حشد
بعيدا عن الساحل ، لكي تمنى بعد ذلك عند
ولوع الهجوم

وبلغ مجموع السفن التي أغرقتها الغواصات التي قادها كارل دويتيس ضد بريطانيا ما حمولته ٧٤٣٣٢١ طناً ، وعددها ١١٨ سفينة .

ولكن الأمور تغيرت مع مطلع عام ١٩٤٢ ، ذلك أن التحسينات المستمرة التي دخلت على أساليب الدفاع البحري ، والعدد الكبير من السفن الذي كانت تخرجه المصانع للحلفاء ، والتقدم الذي أحرزته الطائرات ، كل ذلك كان من شأنه أفول نجم حرب الغواصات . ولم يفلح في بعث الحياة إليها من جديد أن دويتيس الذي كان نائباً للأميرال قد رقى عام ١٩٤٣ إلى رتبة الأميرال البحري ، ثم عين قائداً أعلى للبحرية ، بدلاً من رايدر الذي دخل في صدام مع هتلر .

لقد ظل دويتيس عبقرية إستراتيجية ، ولكن الزمن قد تغير ، كما أن ألمانيا كانت في طريقها إلى الهزيمة . والواقع أنه كان قد تباها عنها منذ عام ١٩٣٩ ، عندما قال في خطاب له : إن كل ذلك سوف يعاد عمله مرة أخرى .

ولقد كان هتلر يأمل - عندما عينه قائداً أعلى للبحرية - أن يستطيع أن يحقق معجزة ، كما كان يعترف بكفاية ذلك الأميرال الذي لم يكن الزعماء الآخرون يحبونه . ومن المؤكد أنه لم يكن من قبيل المصادفات أن عينه في آخر أيامه ؛ لكي يخلفه في رئاسة الدولة .

إن رجال كارل دويتيس كانوا ومازالوا يتفانون حباً فيه ، وكانوا يسمونه (بابا دويتيس) . فضلاً عن أن جميع البحريين في أساطيل العالم يحترمونه ، ويعجبون بالأساليب التي أدخلها على الحرب في البحار .

ومن أجل ذلك فإنهم شهدوا لمصلحته في محاكمات نورمبرج برغم أنه قد أصبح رئيساً للرايخ الألماني بعد موت هتلر وهزيمة ألمانيا .

وفي شهر أكتوبر ١٩٤٦ لم تجد المحكمة أنه ارتكب أية جرائم أخلاقية ، فاكتمت بأن حكمت عليه بالسجن عشر سنوات .

الفضل السادس عشر

فرانتس هالدر

الرجل الذى قال : (لا) هتلر !

فى أواخر شهر أغسطس ١٩٣٨ ، صعد ذلك الضابط القادم من بافاريا ، وهو فرانتس هالدر ، ليصبح شخصية عظمى فى الأتون العسكرى فى الرايخ الثالث : فلقد حدث أن خلا قبل ذلك ببضعة أيام ، منصب رئيس الأركان العامة للجيش الألمانى ، بعد أن أرغم الجنرال لودفيج بيك الذى كان يشغله على الاستقالة ، لأنه تجرأ واعترض على نظريات هتلر فى السياسة الخارجية .

وهكذا استدعى فون براوتشتس القائد العام للجيش يوم الأول من سبتمبر من ذلك العام - بعد فترة صمت يدعو إلى الحرج - الضابط هالدر إلى مكتبه ، وأبلغه أنه بناء على رغبة القوهرر يعهد إليه بهذا المنصب .

وبهذا التعيين صعد هالدر إلى قمة مهنته العسكرية ، غير أنه كان يعرف تماماً أن المقعد الذى يجلس عليه متعب إلى أقصى الحدود : فلقد كانت هناك مؤامرة تحاك داخل الأركان العامة تستهدف انتزاع سيطرة هتلر عليها ، وكان هو نفسه ، فرانتس هالدر الذى أصبح الرجل رقم اثنين فى الجيش ، ضالعا فى هذه المؤامرة .

كان هتلر فى تلك الأيام يقامر فى برلين على مصير أوروبا ، ويوشك أن يجر ألمانيا إلى دوامة الحرب : ذلك أن القوهرر بدا مصمماً أكثر من أى وقت آخر على أن يحقق «مشروعاته الكبرى التى أوردتها فى كتاب «كفاحى» الواحد إثر الآخر ، بعد أن جعل من هذا الكتاب إنجيلا للحركة النازية . وكان أول هذه المشروعات استكمال خطته لتوحيد جميع الشعوب التى تنتمى إلى العنصر الجرمانى .

وبعد أن قام بضم النمسا في صيف ١٩٣٨ قرر أن يغزو تشيكوسلوفاكيا ، وأن يحتل بالقوة إقليم السوديت بحجة أن ثلاثة ملايين ألماني يعيشون فيه ، وفي الوقت نفسه حاول إنجاز مخطط سياسي ظل يفكر فيه السنين الطوال ، ألا وهو السيطرة الكاملة على الضباط العظام الذين يحتلون قمة الجهاز العسكري الألماني .

ولقد كان جانب كبير من الجزالات قد حنّوا رءوسهم أمام رغباته ، إلا أنه كانت لاتزال هناك بعض الدوائر التي مازال القوهرر يلتقي لديها بعض المقاومة ، ومن بين هذه القلاع تأتي على وجه التحديد هيئة أركان حرب الجيش ، والقيادة العامة التي هي رمز التقاليد والهيبة الكبرى التي يتمتع بها السلاح في جميع أرجاء هذه البلاد .

فهنا - على القمة - ضباط تربوا على النظام البروسي الصارم ، ولم يتأثروا بعد بمخاضية هتلر وسحره ، ومن ثم فإنهم لا يحبون أن تتدخل السياسة في الجيش ، وفضلاً عن ذلك فإنهم لا يتحملون تلك العادة التي جعلت هتلر ينتهز أى فرصة لكي يبدى اهتمامه بالشئون العسكرية المجردة .

ولقد فطن القوهرر إلى كل ذلك ، وكان يعرف أنه في اليوم الذي يمكنه فيه أن يثق ثقة عمياء في هؤلاء الجزالات مثلاً يثق في الضباط الذين رفعهم الحزب إلى أعلى الرتب . فإن الالتحام بين القادة العسكريين والقادة السياسيين سوف يكون كاملاً .

غير أنه كان بعيداً تماماً عن التفكير في أن بعض هؤلاء الجزالات يتآمرون عليه ، أو أن يكون لديهم الشجاعة أن يعترضوا صراحة على ما ينادى به من نظريات .

• • •

وبرغم أن النقد الموجه إلى هتلر كان يدور همساً في دهايز هيئة أركان الحرب ، فإنه بدأ يرتفع حتى وصل إلى الأسماع في الأيام التي سبقت مباشرة تعيين هالدر نتيجة لما تردد عن قرب الشروع في غزو تشيكوسلوفاكيا .

وكان هناك ضابط عظيم ظهر في دور البطولة خلال صدام مكشوف مع هتلر . هو بالذات الجنرال (بيك) . ذلك الرجل الذي يرأس مجموعة من الضباط المنشقين داخل وخارج هيئة الأركان العامة الذين لم يكونوا فقط يحشون السيطرة المطلقة لهتلر ، وإنما كانوا يفكرون كذلك في وضعه سياسياً خارج اللعبة .

وحاول الجنرال (بيك) الذي كان مقتنعاً بأن مشروع غزو تشيكوسلوفاكيا قد يترتب عليه

دخول كل من فرنسا وإنجلترا الحرب ضد ألمانيا التي يعرف هو تماماً أنها لم تستعد بعد لمواجهة أوروبا كلها - حاول أن يجعل هتريترراجع عن تنفيذ هذا المشروع ، فلما أدرك أن ما يحاوله أمر مستحيل ، راح يقنع زملاءه لكي يقدموا استقالة جماعية .

غير أنه كان واحداً ، إذ إن موقفه هذا جعل العصب يستول على هتلر . وفي يوم ٢٧ من أغسطس ألقى (بيك) خطاباً حاسماً على زملائه ومعاونيه . ركز حديثه فيه على الاستقلال التاريخي لهيئة الأركان . وقدم بعده مباشرة استقالته . وذهب هذا الرجل في صمت تاركاً وراءه ميراثاً عسيراً للجيرال هالدر الذي ما كاد يستقر على مقعده في مكتبه حتى وجد نفسه إزاء مهام عسكرية جسيمة . بالإضافة إلى المؤامرة التي أشعل جذوتها (بيك) .

وكان هالدر في تلك الفترة - وهو الجندى بغريزته وبتقاليد أسرته - قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره . وأصبح واحداً من ألمع الضباط العظام في الجيش الألماني . ولم يكن مظهره يملأ العين كما وصفه المؤرخ البريطاني تيلفورد تاينور في كتابه «السيف والصليب المعقوف» : فقد كان يضع عوينات . وشعر رأسه كأنه الفرشاة . وله جسم ضئيل . إلا أن تاريخه العسكري كان حافلاً يبعث الحسد في القلوب ، وينطوي على عبقرية حربية فذة . فلقد شب في ظل عدة هيئات لأركان الحرب ، فاستطاع متابعة تطورات الأحداث التي مرت بها بلاده . ودرسها عن مراقبين كبار ، كما أنه فضلاً عن قدراته العسكرية الفائقة - كانت له حساسية سياسية مرهفة ، وفوق كل ذلك فقد كان يتحدر من أسرة ظلت ثلاثة قرون تقدم أبناءها ضباطاً للجيش ، بما في ذلك والده الذي كان جنرالاً له شهرته .

وتقع مدينة (فور تسبورج) حيث ولد هالدر يوم ٣٠ يونيو ١٨٨٤ ، في قلب بافاريا ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره - وكان قد أتم دراسته الثانوية - التحق باللواء الثالث مدفعية المرباط في ميونيخ ، ثم التحق قبل عام ١٩١٥ بالكلية الحربية بها . وانتقل بعد تخرجه فيها إلى أركان حرب الأمير (روبيرت) أمير بافاريا ، وبرغم محاولاته خلال الحرب العالمية الأولى لكي ينتقل إلى الجبهة ، فإنه أمضى خدمته العسكرية في القيادات المختلفة ، ولكنه كان جالساً دائماً خلف أحد المكاتب ، وهو الأمر الذي جعل هتلر فيما بعد يعايره به .

وأصبح هالدر في عام ١٩٣١ كولونياً ، وبعدها بثلاث سنوات حصل على رتبة ميجور

جبرال . وقد عين قائدا للفرقة السابعة في عام ١٩٣٥ . ولم تكد تخفى بضعة أشهر حتى رقى إلى رتبة الجبرال ، وانضم عام ١٩٣٦ إلى هيئة أركان حرب الجيش في برلين ، وشغل منصب مدير العمليات ، ثم رئيساً لأركان الجبرال براوستس .

وعلى ذلك فإن هالد - برغم ذكائه وحيويته - لم يكن رجلاً حركة ميدانية ، وإنما كان عسكرياً تنفيذياً من ضباط المكاتب .

وخلال عمله هذا كان زميلاً لضباط ذوى شهرة كبيرة مثل فون لوسوف ، وصديقاً حميماً لروهم قائد فرق الهجوم الذى قتلوه ليلة (السكاكين الطويلة) ، ثم عمل تحت إمرة فون رايشناو النازى المتطرف . ولكنه الخندى العبرى .

ثم إن هالد كان ناجاً أصيلاً لطبقة أو لصفوة إلى جانب أنها تتمتع فى ألمانيا بمكانة عظيمة ، فإن الكثير من الألمان الذين كانوا فى ذلك الوقت يشعرون بالقلق على مستقبل بلادهم ، كانوا يضعون فيها كل ثقتهم .

وعلى غرار الجبرال (بيك) لم يتحمل هالد تدخل هتلر فى شئون هيئة أركان الحرب . إنه كان على معرفة قديمة بالفوهرر . ويكن له فى الوقت نفسه شعوراً شديداً بالإعجاب والحذر . وفى هذا الصدد يقول ريتشارد برت - سميت فى كتابه (جبرالات هتلر) :

إن شخصية الفوهرر بدت لهالد غير عادية منذ البداية ، فهو فى رأيه عبرى ومحبول فى الوقت نفسه ! .

أما هتلر فإنه لم يتردد من جانبه فى أن يضعه على قمة القيادة .

كانت المهمة الخطيرة الأولى التى تلقاها هالد من هتلر . هى أن ينقح الخطط النهائية للعمليات « الحضرية » ، ومعناها غزو تشيكوسلوفاكيا . وعند ذلك فإنه وجد نفسه إزاء اختيار رهيب بين الأمرين .

والواقع أنه بالرجوع إلى الوثائق والمذكرات . وإلى شهادة الشهود فى محاكمة نورمبرج عام ١٩٤٦ حيث أدلى المهزموون بكل ما فى جعبتهم إلى المنتصرين . وظهرت على السطح أساطير كثيرة عن « مقاومة » الجبرالات لهتلر . وكذلك بالرجوع إلى (يوميات) هالد نفسه وفيها تفاصيل دقيقة عن أحداث كثيرة مما جعل منها مصدراً ثميناً للمؤرخين - بهذا الرجوع يتضح أن رئيس هيئة الأركان الألمانية الجديد قد قطع على نفسه وعداً للجبرال (بيك) بأن يمضى قدماً

في تنفيذ الاتفاق الخاص بإبعاد هتلر عن التدخل في شئون هذه الهيئة .
على أن العقدة الأخلاقية التي وجد هالدور نفسه إزاءها في ذلك الوقت ، هي أنه كان عليه أن يختار بين ولائه لزملائه المشفقين على سلطة هتلر ، وبين الولاء للرايخ الألماني ، أي بين التمسك بما اقتنع به وبين احترامه لواجبه كجندي .
ووفقاً لما أدلى به هالدور في نورمبرج ، فإنه قرر أن يقي بالوعد الذي قطعه على نفسه ، وأن يمضي مع زملائه في المؤامرة .

من هنا فإن هالدور ماكاد يستقر به المقام في منصبه الجديد حتى راح يتعجل الأمور ، ويوثق الاتصال بالضباط الآخرين الضالعين في المؤامرة ، ومن هؤلاء رجال مثل الجنرالات (شاشت) ، و (أوستر) ، و (جيزيفيوش) ، و (فيتزلين) ، وهذا الأخير هو الجنرال الذي يتولى قيادة قوات المشاة المربطة في برلين ، ومن هؤلاء أيضاً (هويبير) و (بروكدوروف) قائد قوات بوتسدام ، و (شولنبورج) و (هلدورب) قائد بوليس برلين .
ولم يكن هؤلاء المتآمرون يفكرون في اغتيال هتلر ، وإنما في وقفه بأي طريقة ، ومحاكمته ، وإبعاده عن السلطة ، وذلك لإمكان تجنب نشوب الحرب .

وقد تطلبت المؤامرة أن يكون هتلر في برلين ؛ كما أنه كان يجب الشروع في تنفيذها في اللحظة التي يخرج فيها من دار المستشارية الأمر بالهجوم على تشيكوسلوفاكية . ونظراً إلى أن هالدور كان يحكم منصبه في القيادة أكثر الضباط علماً بتطورات الموقف - فإنه كان الرجل المناسب لاتخاذ القرار الأخير .

ومن وراء الكواليس كان يقف كل من (بيك) و (جويردنر) و (بويتس) و (فون هامر شتاين) الذين كانوا سيقومون في حالة نجاح الانقلاب بالاستيلاء على السلطة الحكومية ، ثم يتولون بعد ذلك قيادة الرايخ .

• • •

وقع الصدام الأول بين هالدور وهتلر يوم ٩ من سبتمبر ١٩٣٨ في نورمبرج ، خلال اجتماع استمر منعقداً من الساعة العاشرة مساءً حتى الرابعة من الصباح التالي :

فلقد وقف هالدور إلى جانب رئيسه في القيادة فون براوتشيتش ، يشرح الخطة النهائية لغزو تشيكوسلوفاكيا ، فقال : إن في الإمكان إحراز نصر سريع بإجبار «العدو» على الانسحاب إلى سلوفاكية . إلا أن هذا الانسحاب يجب أن نجى «نتيجة له» حركة كماشة تقوم بها قوات

الجنرال رونشت في الشمال . وقوات الجيرالين ليت وليست في الجنوب . وعلى أن يقوم
الجنرال رونشت بعد يومين من الهجوم بالاندفاع حتى (أولويتز) .

ولكن هتلر اعترض على هذه الخطة . فقد وافق فقط على «حركة الكمامة» ، إلا أنه قال
بما لا ينبغي أن تكون هي المفتاح الإستراتيجي الوحيد لإنزال الخزيمة بالقوات التشيكية . وكما
عتاد قبل ذلك ، فإنه تداول قلماً . وراح يخطط به ويعدل في التصميمات المرسومة على
الخرائط . ويعبر خطط الهجوم . ومن بين ما فعله في هذا الشأن أنه انتزع فرقتين محمولتين من
قوات رونشت وليت . لكي يدعم قوات ريشناو المقرب إليه ، والذي كان عليه أن يتقدم إلى
الشرق نحو براغ .

ويقول تيلفورد تايلور «إن هذا الاجتماع كان بداية لأول تدخل خطير من جانب هتلر في
دائرة التكتيك العسكري . وبقدر ما حافظ هالدر على هدوئه ، فإنه خرج منه وقد بدا عليه
الغضب .

وفي آخر ذلك الشهر بدأ يعد اجتماعات أخرى بين القيادات المختلفة في هيئة الأركان .
تمت خلالها تعديلات جديدة . إذ بدا من الغزو يوشك أن يصدر .

وتكاثفت بين لندن وباريس وبرلين النداءات والمبادلات الدبلوماسية . وحاول شمبرلين
ودلاديه وروزفلت شئ هتلر عى اعترمه .

أما هالدر فقد كان من جانبه مستعداً للبدء في تنفيذ المؤامرة . فلولاً أن حدث فجأة يوم
٢٩ من سبتمبر أن أعلن عن لقاء (الأربعة الكبار) في ميونيخ . حيث وضع هتلر على بساط
لمبحث مشكلة السوديت بطريقة وضحت فيها رغبته في الابتزاز . ولم تكن فرنسا ولا بريطانيا
راغبين في دخول الحرب ، فتوصل الأربعة الكبار إلى اتفاق فجائى . خيل معه أن السلام قد
أصبح ممكناً . وأن الحرب لن تنشب في أوروبا .

وتنفس هالدر وجنرالات المؤامرة الصعداء . فقد حقق لهم الهدف الذى كانوا يسعون إليه
بغير أن يحركوا أصبعاً واحدة . ومن ثم فإنهم وضعوا داخل الأدراج خطة المؤامرة .

□ □ □

هذا هم ما روى بعد الحرب ، ولكن هل هذه هي الحقيقة التاريخية ؟
إن نقول بأنه كانت هناك مؤامرة في عام ١٩٣٨ ضد هتلر . يقر به أكثر المؤرخين دقة .
إلا أن أغلب هؤلاء المؤرخين يقولون : إنها كانت مؤامرة غير مدروسة جيداً . ويصعب أن

تكتل بالنجاح . ولكن ما الذى جعل « مؤامرة هالدر تفشل » ؟

هل اكتفى حقيقة بمجرد إعلان اتفاق ميونيخ لوضع خطة المؤامرة فى الأدرج ؟ وهل كان زعماء المؤامرة مستعدين لها حقاً أو أنهم لم يجدوا فى أنفسهم الشجاعة لتوجيه ضربتهم ؟ . لقد كانت هناك دلائل تدعو إلى الحذر ، كان يمكن أن تترر مثل هذه الحركة . كما أن كثيرين قد كتبوا - مثل تاليور - يقولون : إن انقلاب عام ١٩٣٨ يدين بالكثير لعبقرية هالدر . غير أن هذا القول لا يعدو كونه واحداً من التفسيرات الكثيرة فى هذا الصدد ، أما الحقيقة المجردة الخالصة فقد دفنت إلى الأبد ، وأما ما هو مؤكد بعد اجتماع ميونيخ فهو أن هالدر قد أصبح أكثر حذراً ، وابتعد عن صفوف المتآمرين ، ولما لم يستطع قط أن يضع نهاية لما يرضيه معنوياً .

وخلال تلك الفترة كانت تجرى فى ألمانيا النازية أحداث خطيرة . منها : الحملة ضد اليهود . والسباق مع الزمن لتكوين أكبر قدر من مخزون الأسلحة . وإبعاد كل ما تخوم حوله الشبهات عن مراكز السلطة .

وفى الأول من أكتوبر عام ١٩٣٨ بدأت قوات (البانزرت) أو المدرعات الألمانية هجومها . فطوقت مورافيا وبوهيميا ، وبعد ذلك بخمسة أشهر ، إذا بالحصار الكامل مضروب حول تشيكوسلوفاكيا التى لم تثبت أن سقطت . وأصبح إقليم السوديت جزءاً لا يتجزأ من الرايخ .

وإذا كان هالدر مدركاً تماماً من الطريق الذى شرعت ألمانيا تسير فيه أن الحرب العالمية قادمة ، فإنه بدأ يعيد تنظيم قيادته العامة ، فقسمها اثنتى عشرة منطقة . وبينما كان هتلر يعود إلى المقامرة على المستوى الخاص بالسياسة الخارجية ، فيضع على بساط البحث مشكلة دانزيغ ، انصرف هالدر بكلية إلى وضع « المشروع الأبيض » أى خطة غزو بولندا . وكثيراً ما شوهد هالدر وبراونشيتش فى تلك الأيام مع هتلر ، كما أنه كان يحضر دائماً الاجتماعات الهامة التى ظلت تعقد ، حتى ذلك الاجتماع الحاسم يوم ٢٢ من أغسطس ١٩٣٩ فى (أبر سالزبرج) حيث المقر الجبلى للقوهرر ، وفيه تقرر مصير بولندا . وبعد ذلك ، اندلعت الحرب العالمية الثانية .

• • •

كانت تلك بالنسبة لكل من هالدر وبراونشيتش أياماً قاتلة : فاقدر كان عليها قبل إعلان

لجنة العامة أن يعيد النظر في خطط الهجوم . وأن يتخذ قراراتها بعد الاتصال بالقيادات المختلفة . وأن يعمل على تنسيق العمليات التي ستقوم بها كل قيادة . ومن أجل ذلك راح يتنقلان بالطائرة إلى القطاعات المختلفة من الجبهة . وبينما كانت جيوش الفوهرر توشك أن تنتهي من الحصار الكبير الذي قامت به ووضع خطته هو ونفذه براوشيتش . أخذ هالدر يوم ٧ من سبتمبر يفكر في الطريقة التي تحكم بها إدارياً الأراضي البولندية المحتلة .

وفي يوم ١٥ من سبتمبر طلب منه الجنرال (جودل) القائد العام للجيش الألماني ، أن يقرر مصر وارسو عاصمة بولندا التي كانت تبدي مقاومة عنيفة . وأوصى هالدر بأنه لحمل هذه المدينة على الاستسلام لا يتعين ضربها بالقنابل ، وإنما يكفي تجويعها .

غير أن هتلر عرض مرة أخرى على رأي هالدر . وظل يقصف وارسو بالقنابل ويحاصرها ١٧ يوماً . حتى سقطت يوم ٢٧ من سبتمبر ومعها بولندا كلها . ويقول هالدر في يومياته التي نشرها عام ١٩٤٩ في هذا الشأن . إن السبب الذي جعله يوصي بعدم قصف وارسو كان رغبته في أن يتمكن من نقل القوات التي ستكلف بقصف الجبهة الغربية . فهل هذه هي الحقيقة أو أنها محاولة منه لتبرير رأى كان قد أبداه ؟

على أي حال فإنه بعد سقوط بولندا اتسع نطاق الحرب في الجبهة الغربية . وأخذت تشتعل بكل قوتها . وقد وجد هالدر الذي كان من رأيه ضرورة أن تقتصر ألمانيا على الحرب الدفاعية إزاء فرنسا وبريطانيا ، أن هذا الرأي لا يؤخذ به . ولم يلبث أن اضطر إلى تحمل مسؤوليات هائلة : فقد راح يعمل ومعه الضباط الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «الشان الأقوياء» في هيئة الأركان ، لوضع المشروعات وتنسيق خطط الهجوم كافة .

وقد أدى الجانب الأكبر من هذه الأعمال التي استغلت في العامين الأولين من الحرب . وإلى أن خرج هالدر من المسرح ، في تحقيق الانتصارات التي جاءت نتيجة لرؤيته ، ولو أن هذه الرؤية منذ البداية كانت تصطدم هي ورأي هتلر .

وافزع أكبر خلاف بين الرجلين عشية الهجوم الألماني الكبير على الجبهة الغربية . عندما رأى هالدر في آخر لحظة أن ضابطاً آخر يتخطاه . هو فون مانشتاين الذراع اليمنى لقون رونشت الذي اقترح نقل الهجوم الرئيسي إلى منطقة (الأردن) بدلاً من بنجيكا الوسطى . كما كان مقرراً في المشروع العام لمهينة الأركان .

وقد بلغ هذا الاقتراح بطريقة لا يدري بها أحد مسامع هتلر الذي خمسه له . غير أن

براوشتيش وهالدر اللذين كانا ينظران دائماً في حذر إلى فئة الضباط الذين ظهروا على المسرح بعد الانتصارات الحربية الأولى . عمداً إلى نقل فون مانشتاين إلى إدارة أخرى . ولكن هتزل وجه إليهما لوماً شديداً على ذلك . وحملها على أن يدخلوا في الاعتبار نظريته التي أسفرت بالفعل عن نجاح كبير ، ولكن بعد أن طورها هالدر بعفريته .

• • •

وقد وقع صدام شديد آخر بين هالدر وهتزل خلال الحملة على روسيا . وهو أعنف خلاف بينها . أدى إلى قطيعة نهائية بينهما .

وكما فعل هالدر في غزو فرنسا فإنه وضع في هذه المناسبة خطة الهجوم النضيف على الجبهة الروسية بإشراف براوشتيش ومعونة فون باولوس . وعلى الفور لقي المشروع موافقة جماعية . إذ كان هالدر للمرة الأولى متفائلاً بالنسبة لتقدم القوات الألمانية .

بيد أنه عاد وغير رأيه عندما تبين له خطأ التقديرات التي كانت تقول بعجز الروس عن المقاومة ، ومع ظهور شبح ستالينجراد . وقد كتب برت سميث في ذلك يقول :

« لقد طلب هالدر من هتزل عدم تقسيم قواته . وأن يترك الروس يستعيدون القوقاز إلى أن يتم سقوط مدينة ستالينجراد ، وتصبح الجبهة الممتدة على نهر الدون مأمونة . ولكن هتزل تجاهنه منذ مطلع عام ١٩٤٢ . بعد ذلك راح هالدر يواجه المتاعب » . وقد ثبت عسكرياً أنه لو أن هتزل قد أصغى إليه وأخذ برأيه . لتغيرت مصائر الحرب . واتخذ التاريخ طريقاً مختلفاً . على أن هالدر الذي تفرغت سنته بحكم الواقع قد ظل في منصبه حتى بعد إبعاد براوشتيش عن الجيش . وكان ذلك وفقاً لرغبة هتزل الذي كان يعرف جيداً أن هالدر يمثل في نظر الجيش آخر قلعة لحيطة الأركان تصمد للعمليات التطهير المتكررة ، غير أن ضابطاً آخر هو (زايتلر) عين مكانه في سبتمبر ١٩٤٢ .

وبعد أن ظل معزولاً لمدة عامين . إذا بالجنسايو تعتقه وتودعه السجن . عقب المحاولة الفاشلة لاغتيال هتزل التي وقعت يوم ٢١ من يوليو ١٩٤٤ . وكان سجنه أولاً في (فوسنبورج) وبعده في (داساو) مع الجنرال شاشت وآخرين .

ذلك أن الشكوك حامت حوله . وإن كان في الآونة الأخيرة قد انقطعت صنته بالضباط المتآمرين . وقد ظل هالدر في معسكرات الاعتقال حتى انتهت الحرب . بعد أن طردوه من الجيش في يناير ١٩٤٥ . وبعد ذلك بثلاثة أشهر - أي يوم ٢٨ من أبريل - أطلقت القوات

الأمريكية سراحه من معسكر (بندر دورف) في النيرول ، وبذلك يكون قد نجا من الحرب ، ومات من الشيوخوخة في بلدة (آشاو) في بافاريا عام ١٩٧٢ ، وقد بلغ السابعة والثمانين .

• • •

إن هناك أحكاماً كثيرة على هالدنر (الجندي) ، وهي أحكام تلقى الإجماع . فمن قاتل : إنه بعد استبعاده عن هيئة أركان الحرب لم يستطع الجيش الألماني أن يحرز أى نصر كبير ، إلى من يقول إنه واحد من أكثر الجزالات براعة في عصره . أما عن هالدنر (الإنسان) ، فإن هناك ظلالاً من الشك حول المبالغة في (مقاومته) هتلر : فلقد كتب عنه من قال : إنه « قد أثبت أنه قادر على التحرك في الوقت نفسه في اتجاهات متعددة ، أو بالأحرى عاجز عن السير المستقيم في اتجاه واحد ! » .

وربما كان الأمر كذلك ، ولكن هذا يؤكد أيضاً أن هالدنر كان إنساناً تعذبه الشكوك ؛ فلقد كانت مأساته موازية لماسى الكثيرين من الألمان من جيله ، وأن كل ما هناك أنه عاشها في غرفة مملوءة بالأزرار ، دون أن يتمكن من الضغط على زر منها يمكن أن يوقف ذلك الجهاز الجهنمي الذي أطبقه هتلر !



إذا كان هتلر قد عرف كيف يبيع جنرالاته ، فإنه عرف أيضاً كيف يكافئهم . وهو هنا يمنح عدداً منهم ، يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٣٩ ، أرفع الأوسمة ، عقب النصر الذي أحرزوه في بولندا .



في يناير ١٩٤٥ ، عين هتلر هيملر قائداً لجمعية جيوش نهر القسطنطين ، وذلك رغم معارضة جودريان . فحقق له بذلك حلمًا جميلًا .



١٧ يولية ١٩٤٤

المارشال قاتله مودل ، الذى لم يتجاوز الثالثة والخمسين من عمره . وقد حصل على حبات الماس التى أضيفت إلى وسام صليب الفرسان الذى يحمله . وكان هتلر يثق فيه ثقة مطلقة . ويسمح له بأن يكون ندا له .

الفضل السابع عشر

سيد الحرب العجوز

كان كارل رودولف جيرد فون رونشتت ذو الزى العسكرى الرسمى الذى لا تبدواى كسرة فيه وعلى محياه سمة السيد العظيم ، يحمل رتبة الجنرال منذ عام ١٩٢٧ . فهو ينحدر من أسرة نبيلة ذات تقاليد عسكرية عريقة . وكان والده بدوره جنرالاً . ولذلك فإنه يعتبر واحداً من أفضل دعائم المدرسة الحربية البروسية الذين تتلمذوا على أيدي الجنرال العظيم فون سيكت الذى هو بحق مؤسس الجيش الألمانى الحديث أيام جمهورية فايمار

وهو ينتمى منذ عام ١٩٠٧ إلى هيئة أركان الجيش الألمانى . وقد أثبت في الحرب العالمية الأولى قيمته في الجبهة الغربية ، وفي الجبهة الشرقية على السواء . وفون رونشتت ضابط تقليدى شديد الاعتداد بمكانه في المجتمع . وكان يرى في مهنة السلاح نوعاً من الحملات الصليبية ، ويؤمن بأن « الجيش ينبغي أن يصبح دولة داخل الدولة . ومن حيث الوقائع يجب أن يعطى من خلال نفسه أنقى صورة عن الدولة » .

أما النازيون وعقيدتهم الفظة ، فيرى أنهم مجموعة من السوقة المتبدلين الثقلاء . وفي عام ١٩٣٨ - وكان قد بلغ الستين - انسحب من الخدمة العاملة ، على حين أنه الرجل الثانى في الجيش الألمانى بعد فون براوشيتش . . القائد العام . غير أنهم عادوا واستدعوه في الأول من يونيو ١٩٣٩ ليتولى قيادة مجموعة جيوش الجنوب في القطاع البولندى .

وكان تحت إمرته كل من الجيش الرابع عشر الذى يقوده الجنرال (قلهلم ليست) والجيش العاشر الذى يقوده (فون رايشناو) ، والجيش الثامن الذى يقوده (بلازكوفيتش) ، ومجموع هذه الجيوش خمس وثلاثون فرقة .

ويطبق فون رونشتت إستراتيجية « الحرب الكاسحة » التى تقوم على المناورة الواسعة على

صورة المنجل للتوصل إلى الهدف الأولى ، ثم بعد ذلك تدمير القوات المعادية .
ومن الأمور الجوهرية في خطط رونشت إقامة اتصال وثيق بالأسلحة الأخرى . وخاصة
الطيران والمدرعات اللذين يتعين على سلاح المشاة أن يتحرك معها مستغلاً المفاجأة وسرعة
المنورة .

وهكذا بينا مجموعة جيوش فون بوك راحت تهاجم من الشمال ، أخذ رجال ومعدات
فون رونشت يهاجمون من الجنوب ، فأغلقوا بذلك طرفي الكماشة على الجيش البولندي .
وتجاسر الفرسان البولنديون بدون جدوى ، ووقفوا في وجه الدبابات الألمانية ، غير أن هذه
سحقهم سحقاً وقضت عليهم تماماً .

وفضلاً عن ذلك ، وقع حوالي خمسمائة ألف جندي بولندي في مصيدة نصبها لهم
رونشت ، وأخذهم أسرى بما معهم من عتاد ، وألفٍ ومائتي مدفع ، وبذلك أصبح الطريق
إلى وارسو مفتوحاً ، فاندفعت فيه مدرعات الجنرال جودريان إلى قلب بولندا التي استسلمت .
وكان ذلك انتصاراً لإستراتيجية فون رونشت الذي وضع خطة الهجوم ، وأسند فيها دوراً
بالغ الأهمية إلى استخدام سلاح المشاة . وآخذاً في الاعتبار النظريات الحديثة التي تجعل من
الدبابات سلاحاً له قوة غير عادية .

وبينا كانت ألمانيا النازية تتهب فخراً بهذا النصر ، كان رونشت في كامل هدوء الأعصاب
يوجه انتقادات إلى هتلر ، قال فيها : إن المرء لا يمكن « أن يبدأ حرباً . . ببطاقة الخبز ! » .
وفي حديث أدلى به لإحدى الصحف اليومية عن القتل الذي سقطوا خلال المعركة قال : « إن
هؤلاء القتل يجعلوننا بغير شك نفكر في ذلك بعمق . . إلا أننا لا نبكي عليهم ! » .

لقد كانت الخطة العملية للهجوم على بولندا من وضع (هالدر) ، على حين تولى رونشت
القيادة العامة . إلا أن رونشت وحده هو الذي تسبب بعقبريته في إزلال أخطر هزيمة بالقوات
البولندية . وذلك بأنه حال دون الجانب الأكبر من هذا الجيش وعبور نهر (فستولا) ، وبأسره
لذلك العدد الضخم من جنوده بمعداتهم .

فلما خرت بولندا صريعة ، وجاء الزعماء النازيون ليدخلوا العاصمة وارسو في موكب
النصر ، راح رونشت يرقبهم ، ولم يتورع أن يعلق على مشاهدتهم بسخرية قائلاً : « إنهم يدون
كمجموعة من القروء فوق خشبة المسرح ! » . .

وجاء دور معركة فرنسا ، فبرزت عبقرية رونشتت العسكرية فيها فذة لا سبيل إلى نكرانها .

كانت الخطة العملية مستوحاة مباشرة من الجزال رونشتت ، وعاون فيها فون مانشتاين رئيس أركان حربه ، ثم دخلت عليها تعديلات طفيفة أوصى بها هتلر ، واتضح أنها خطة ممتازة . وصارت الخطة كما يلي : تحركت ٤٤ فرقة ومعها عدد ضخم من المدرعات ، يعاونها سلاح الطيران الألماني ، ثم عمدت مجموعة الجيوش التي يقودها فون رونشتت إلى القيام بحركة التفاف واسعة سرعان ما أسفرت عن استسلام بلجيكا وهولندا معاً ، وبعد ذلك مرت على جوانب خط ماجينو الفرنسي الحصين ، وفتحت جبهة عريضة في الجنوب منه محاصرة بذلك القوات البريطانية ، وعزلت الجيوش الفرنسية عزلاً تاماً . وفي خلال أسبوعين فقط انهزمت جيوش الحلفاء ، واتخذت القوات الألمانية طريقها نحو باريس .

وفي تعليق لفون رونشتت على هذه المعركة بعد انتهاء الحرب أدلى به للمؤرخ البريطاني ب . ليدل هارت قال : «إن اللحظة الحرجة (الوحيدة) بالنسبة لمجموعة الجيوش التي كنت أقودها ، كانت عندما بلغنا في زحفنا حتى سواحل بحر المانش ، وفي أعقاب الهجوم البريطاني المضاد بدأ يوم ٢١ من مايو ١٩٤٠ من (آراس) في اتجاه (كامبريه) ، فلقد خشيت لفترة ما أن يتم عزل قواتنا المدرعة عن مجموع الجيوش نتيجة لهذا الهجوم ، قبل أن تتمكن قوات المشاة من أن تحف لنجدتها . إلا أنه ما من هجوم فرنسي مضاد سبب لي أية مشكلة . وصارت الخطة حتى نهايتها بهدوء تام » .

وقد رق فون رونشتت إلى رتبة فيلدمارشال الراجح يوم ١٩ من يوليو ١٩٤٠ ، ولو أنه وقع في خطأ في معركة (دنكرك) ، وذلك برفضه إصدار الأمر إلى القوات المدرعة بالتدخل ضد الحملة البريطانية ، فأناح لبريطانيا إمكان الاستمرار في الحرب ، إذ استطاعت أن تسحب ٣٥٠ ألف جندي وتعيدهم بوسائل بدائية إلى الجزيرة ، بعد أن كان يمكن للقوات الألمانية إفناؤهم عن آخرهم !

• • •

وبرغم أن فون رونشتت هو الأستاذ الذي ابتدع ما يسمى (البلتزكريج) أي الحرب الخاطفة ، فإنه كان معارضاً بكل قوته للهجوم على الاتحاد السوفيتي .

وقد نقل ذلك إلى الخنزير (بلومنتريت) رئيس أركان حرب الجيش الألماني الرابع بقوله :
«إن فكرة شن حرب على روسيا لا معنى لها ، وسوف تكون لها نتائج مدمرة ، حتى بالنسبة
لهتلر» ولم يكتب رونشتت بذلك ، وإنما قال لهتلر عبارة سجلت في الوثائق جاء فيها : «إننا
لن نحرز نصراً على الروس بمجرد قيامنا بهجوم صيفي ، إذ يستحيل علينا خلال ذلك أن نهزم هذا
العدو ونحتل روسيا كلها . . . خلال بضعة أشهر» .

وليس ذلك هو السبب الوحيد الذي جعله يسمح لنفسه بمناقشة أوامر الفوهرر ، الذي
عهد إليه بقيادة مجموعة جيوش الجنوب ، عندما بدأ تنفيذ عملية «ذو اللحية الحمراء»
بالمهجوم على الاتحاد السوفيتي . ولأنه كانت له سيطرة كاملة على رجاله ، ولما تميز به من قدرة
عميقة على تحليل المواقف الحربية ، فإنه أحرز انتصارات عظيمة في كل من (أومان)
و (كييف) و (كاركوف) و (كورسك) و (أوديسا) .

ومع كل هذه الانتصارات ، فإنه قدم استقالته من القيادة يوم ٣٠ من نوفمبر ١٩٤١ ،
لأنه اعترض على الأمر الذي أصدره هتلر بالدفاع حتى آخر رجل عن الحدود الشرقية
لأوكرانيا ، دون أن يأخذ في الاعتبار ما أشار به هو رونشتت من ضرورة سحب تلك القوات
إلى (منسك) ، وعدم استئناف الهجوم إلا مع مقدم الربيع .

ولم يكن أمام الفوهرر بد من قبول هذه الاستقالة .

ولم تنته حياة فون رونشتت العسكرية بطبيعة الحال بهذه الاستقالة : ذلك أن هتلر عاد
فاستدعاه يوم ١٠ من مارس ١٩٤٢ إلى الخدمة . وعهد إليه بقيادة القوات الألمانية العاملة في
الميدان الغربي ، وعلى سواحل المحيط الأطلنطي ابتداء من الساحل الهولندي حتى الساحل
الفرنسي .

وراح كارل رودلف جيد فون رونشتت ، طوال ثمانية عشر شهراً ، يعد الدفاعات التي
سوف تقف في وجه إنزال قوات الحلفاء . ووقع خلال ذلك خلاف بينه وبين (رومل) ،
الذي كان يرى وضع القوات المدرعة غير بعيد عن الساحل ، على حين رأى فون رونشتت
حشدتها في عدة مناطق إستراتيجية ، بحيث يمكن بعد ذلك تحريكها ، لتشد أزر نقاط التجمع
التي تحتاج إليها بين الفينة والأخرى .

كان رونشتت قد فقد الكثير من ثقته المتعالية ، فقد شعر بالإرهاق أخيراً ، وأدرك أنه
يناضل بدون جدوى في حرب لا يرى أن لألمانيا فيها فرصة للنصر النهائي .

على أنه لم يفقد ما في نفسه من قوة على النقد ، ولا كفاءة إصدار الحكم الصحيح . فلما أنزل الحلفاء قواتهم في نورماندى يوم ٦ من يونية ١٩٤٤ ، وهو ما سمي « أطول يوم في التاريخ » اتصل تليفونيا بالجنرال (كيتل) رئيس أركان حرب الجيش الألماني ليلغله بما يحدث . ولما سأله هذا بقوله : « وماذا يجب أن نصنع ؟ » أجابه رونشتت بجفاء : « اعقدوا الصلح أيها الأغبياء ، فإذا تستطيعون غير ذلك ؟ » .

ونقل « كيتل » ما حدث إلى هتلر . وفي اليوم التالى أعفاه الفوهرر من مهمة قيادة الجبهة الغربية . وعين مكانه (فون كلوج) . إذ كان يدخر لرونشتت مهام أخرى لا تتعلق بالعمليات الحربية . والواقع أنه عهد إليه برياسة لجنة عالية تابعة للجيش الألماني . مهمتها إحالة الضباط المتهمين بتلك المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر يوم ٢٠ من يوليو من ذلك العام إلى المحاكمة .

• • •

وفي هذه الأثناء سقطت في القطاع الغربى من الجبهة مدينة (أنفرس) في أيدي الحلفاء . الأمر الذى ترتب عليه حدوث اضطراب وفقدان الثقة في صفوف الجيش النازى . فإكان من ضباط وجزالات هذا القطاع إلا أن طلبوا من هتلر إعادة فون رونشتت إلى مكانه القديم في القيادة ، باعتبار أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع مواجهة الموقف المتدهور . بما له من قدرة على السيطرة وبراعة في الإستراتيجية .

ذلك أن فون (كلوج) والجنرال (مودل) قد فشلا في محاولة وقف تقدم الحلفاء الذين وصلوا إلى هولندا . بل إلى حدود ألمانيا نفسها .

وعاد رونشتت . وسرعان ما أعاد ببراغته وهدوئه النظام إلى الجيش الذى كان يوشك أن يتفكك . وأن يجعل الجبهة تتأسك من جديد . ولو أنها لم تكن بالصلابة التى كان يريد لها . وحاول هو و(روميل) . الذى كان يرغم الخلاف بينها في وجهات النظر وفي المفاهيم التكتيكية ينق في نفقة كبيرة منذ كانا يعملان معا . إقناع هتلر بأن يعيد إلى الوراة قليلاً من الحشود الألمانية بعيداً عن ضفاف نهر السين . لكي تستقر في أماكن يمكن الدفاع عنها . ولكن دون جدوى .

وفي يوم ١٧ من أكتوبر ١٩٤٤ كان من نصيب « سيد الحرب البروسى العجوز » أن يقوم بمهمة حزينة . هى أن يلقى كلمة التأبين في جنازة (روميل) . الذى مات قبل ذلك بثلاثة أيام . وكانت هذه بالنسبة لرونشتت الفرصة الملائمة لتأكيد الآراء الجذرية التى اقنع بها عن

الجيش ، وعن وظيفة العسكريين في الدولة . . بوصفهم الأرستقراطيين الذين يرتدون الزي الرسمي . والذين يستجيبون لرغبة الثأر التي تنادى بها « ألمانيا الكبرى » .

وفي آخر هجوم كبير قام به الجيش النازي فيما يوصف بموقعة (الأردنين) ، كانت القيادة فيه معقودة لقون رونشتت شكلاً فقط :

ذلك أن خطة هذا الهجوم وضعها هتلر الذي عهد بقيادة العمليات إلى المارشال (مودل) ، وإلى (سيب ديتريش) الذي تولى قيادة الجيش السادس مدرعات ، وإلى الجنرال (ماسوفون مانتوفيل) قائد الجيش الخاص المدرع . وقد عاون في الهجوم كذلك سلاح الطيران الألماني ، غير أنه بعد أن فقد ٢٧٠ طائرة في معاركه مع الحلفاء انسحب من الصراع يوم الأول من يناير ١٩٤٥ .

ولقد بدأ الهجوم في (الأردنين) يوم ١٦ من ديسمبر ١٩٤٤ . وحصل الألمان على انتصارات رائعة في بدايته . غير أنه في الأيام الأولى من شهر يناير التالى استعادت القوات الأمريكية كل الأرض التي فقدتها عقب الهجوم الألماني اليائس . وكانت الخسائر من الجسامه خلال هذه الأيام ، إلى حد أصبح من المستحيل معه على الجيش الألماني الاستمرار في عملياته الهجومية .

وكانت الأهداف التي حددها هتلر في خطته تتكون من مدينتي (انتويرب) و(بروكسل) . إلا أن رونشتت ومودل رأيا أن من غير الممكن استعادتهما . وحاولا دون جدوى إقناع هتلر بالاكفاء مؤقتاً بأهداف أقل منها يمكن تحقيقها .

وقد روى ذلك فيما بعد للمؤرخ الإنجليزي ب . ليدل هارت فقال : « لقد صعقت عندما تلقيت في شهر نوفمبر الأوامر . إن هتلر لم يأخذ رأيي في احتمالات نجاح هذه العملية . وكانت القوات التي تحت تصرفي أصغر بكثير مما تحتاج إليه خطته الواسعة النطاق » .

وقد تضايق الجنرال من رؤية اسمه يقترن بهذه الخطة ، إلى درجة أنه احتج على ذلك لدى هتلر نفسه ، وطلب تصحيح الوضع : أى أن ينسبها إلى نفسه وإلى هيئة أركان حربه بكل تفاصيلها ، طالما أنه رفض إدخال أى تعديل عليها من جانبه .

ويقول رونشتت : « لقد انتهت الحرب منذ شهر سبتمبر كما توقعت ، غير أنهم لم يصدقوني عندما قلت لهم ذلك » .

وفي يوم ١٠ من مارس ١٩٤٥ أبعدته هتلر للمرة الثالثة والأخيرة عن الجيش . فعاد إلى ألمانيا وهو يشعر بالارتياح ؛ لأنه أعفى من مسئولية القيام بمهام هو غير راض عنها ؛ فقد كره أن يستمر في إرسال الجنود لكي يذبحوا بدون جدوى ؛ إذ كان يرى أن من الأمور التي ترقى إلى حد الجريمة أن يدفع إلى الموت أى جندي ، وهو يعرف أنه لن يحقق نجاحاً نهائياً ، أو يستعيد أراضي فقدتها في نطاق إستراتيجية يتاح لها إمكان النصر .

وبالنسبة للجنرال البريطاني برنارد مونتجومري الذي عرف رونشتت معرفة جيدة من وجهة النظر العسكرية ، نظراً لأنه كان خصمه المباشر ، فإن صفات القائد في رونشتت رائعة وفوق العادة . وهو يقول في ذلك : « لقد كنت أرى دائماً أن روميل قائد ممتاز ، ولكن فون رونشتت يفوقه بكثير . إنه أفضل جنرال ألماني واجهته في هذه الحرب » .

وكذلك الجنرال دوايت أيزنهاور الذي أصبح رئيساً للولايات المتحدة ، فإنه سجل في وثائق الحرب : « أن القيادات الأمريكية ترى في فون رونشتت أقدر جنرال ألماني ! » . لكن كل هذا المديح لم ينقذ رونشتت من السجن : فنقد اعتقاله الحلفاء يوم الأول من مايو ١٩٤٥ ، وكان رجال الجيش الأمريكي السابع هم الذين أسروه .

وقد أدلى بشهادته في نورمبرج ، وحرص على أن يفرق بين مسئولية العسكريين وبين مسئولية السياسيين في الحرب الخاسرة .

وانهم رونشتت بارتكاب جرائم حرب : فقد أصدر أمرا في عام ١٩٤٤ في مدينة (آسك) الفرنسية التي كانت القوات التي يقودها تحتلها بإعدام سبعة وسبعين رجلا رميا بالرصاص . وقد اختير هؤلاء الضحايا كيفما اتفق من بين سكان هذه المدينة الصغيرة ، انتقاماً لعمل تخريبى قامت به المقاومة الفرنسية ، نسفت فيه الخطوط الحديدية . وقال رونشتت إن سكان المدينة يتحملون مسئولية وعواقب هذا السلوك التخريبى الذى لا يمكن إلا أن أدبته بكل شدة » . ولم يمثل أمام أى محكمة ، فقد أدخله الحلفاء إحدى المستشفيات العسكرية ، إلى أن أطلق سراحه في مايو ١٩٤٨ ، ثم سقطت المسئولية الجنائية ضده في أكتوبر ١٩٤٩ . برغم احتجاج صحيفة (التايمز) التي نددت بالقرار الذى أصدرته في هذا الشأن السلطات البريطانية والأمريكية .



المرحال فون رينشت قائد العملية العربية يلقاه التحصينات الساحلية وقد راعه لدى وصوله إلى الميناء عام ١٩٤٢ ضعف كوامه (وكانت لاثنين
 فرقة الفرسان ريلجكا وويلندا) . وقد صاحقوا له هذه القوات حلبة الضموم ، ولكن بغير أي احتياطي .



والقى هتلر خلال زيارة قام بها لقر قيادة فرن رونشت في (شارلويل) على قرار وقف الممرعات الألمانية أمام حركك . وقد صحح هذا الخطأ ، ولكن بعد فوات الأوان ، إذ استطاعت القوات البريطانية أن تجلو قبل أن باد جميعها أو ترفع في الأسر .

هتلر يراجع بنفسه الخطة النهائية المسماة (ذو اللحية الحمراء) ، أي خطة الهجوم على روسيا . ولولا التأجيل الذي تقرر بالنسبة لتاريخ البدء فيها ، لما حقق الشتاء مبكرا بالقوات الألمانية .



وماكاد الفيلد مارشال المعجوز الذى بدا غير راغب فى لقاء أحد ، ويرفض الإدلاء بأى حديث أو تصريح أو بيان ، والذى ظل مشدود القامة دائماً ولديه إحساس نادر تلوح فيه السخرية وبصعب تصويره فى جنرال بروسى ، ماكاد يستعيد حريته حتى انسحب ؛ ليعيش فى عزلة فى بيت صغير فى مدينة هانوفر .

وظل فى هذا البيت وحيداً ، وقد أخذت صحته تتدهور ، إذ لم تبق له سوى الذكريات والنباشين التى أحرزها فى ميدان القتال طوال اثنين وخمسين عاماً فى خدمة الجيش الألمانى ، تركت فى طباعه أثراً لا يمحي .

لقد كان شعاره هو « الأسلوب والنظام » ، وذلك إذا نحن استعرنا التعبيرات العسكرية : إلا أن هاتين الصيغتين اقرنتا لديه بمعرفة متعمقة فى الإستراتيجية والتكتيك العسكريين . إن كارل رودلف جيرد فون رونشتت رجل عاش ومات عظيماً فى كرامته السامية المتعالية ، وهذا الوصف من المؤرخ البريطانى ريتشارد بریت - سميث ، وقد توفى فى بيته المتواضع بمدينة هانوفر يوم ٢٤ من فبراير ١٩٥٣ ، تحيط به الرسوم التى تصوره فى ثوب القائد الذى خاض الحرب ، على جميع جبهات أوروبا .

الفضل الثامن عشر

فولفرام فون ريشتوفن

«ابن العم الوقور» . للبارون الأحمر»

لم يكن ذلك الرجل الذى كان أكبر وأشهر «بطل» فى طائرات المطاردة فى الحرب العالمية الأولى . وأطلقوا عليه اسم «البارون الأحمر» لأنه كان يطلى طائرته بهذا اللون هو الشخصية البارزة الوحيدة فى تلك الأسرة الإرستقراطية العسكرية البروسية . أسرة ريشتوفن ، التى تركت بصمات واضحة فى تاريخ وأسطورة الجيش الألمانى . وبالأذات سلاح الطيران . والواقع أن سلاح الطيران الألمانى أنجب خلال الحربين العالميتين الأخيرتين ، ثلاثة من «الأبطال» خرجوا جميعاً من أسرة (ريشتوفن) : أولهم مانفريد . وهو بالذات الذى عرف باسم «البارون الأحمر» الذى لمع فى حرب عام ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وشقيقه لوثر الذى فاقت شجاعته كل حدود ، ثم ابن عمهما (فولفرام) الذى لم يكن مثلها طياراً ، وإنما كان إستراتيجياً متخصصاً فى استخدامات السلاح الجوى . ذلك التخصص الذى أوصله فى نهاية عام ١٩٤٣ إلى رتبة فيلد مارشال ، وجعله يقف جنباً إلى جنب مع قادة عظام آخرين مثل كيسلرنج . . وميلش . . وسييرلى . . وفون جرايم .

ولقد ولد فولفرام ، أو البارون فون ريشتوفن فى (بارزدورف) فى سيليزيا العليا عام ١٨٩٥ ، وعلى ذلك يكون عمره أقل ثلاث سنوات عن عمر ابن عمه (مانفريد) ، إلا أن هذه السنوات الثلاث لم تمنعه من أن يجارب معه فى سماءات أوروبا خلال الحرب العالمية الأولى ، ويحز فى سبعة انتصارات شخصية .

وعلى ذلك يكون قد حصل على انتصارين زيادة عن العدد المطلوب من الانتصارات ، الذى يؤهل الجندى الألمانى للفوز بلقب «بطل» .

وخلع ريشتهوفن البذلة العسكرية بعد الحرب . وبدأ يدرس الهندسة في جامعة هانوفر . ثم عين بعد ذلك مسحقاً عسكرياً في السفارة الألمانية في روما . ليعود عام ١٩٣٢ إلى برلين ، لكي يتخصص مع كل من فون جرايم وسبيرلي وميلش في عمليات تنظيم وتدعيم السلاح الجوي . كان ذلك قبيل الحرب الأهلية في إسبانيا التي جعل منها الخبراء الألمان حقل تجارب للحرب العالمية الثانية . وقد بدأ تدخل ألمانيا في إسبانيا في أواخر صيف عام ١٩٣٦ ، بأن قدم هتلر إلى فرانكو عشرين طائرة نقل . وعدداً من الطائرات المطاردة بقودها متطوعون . وصنوا بها في أواخر شهر أغسطس . ولكن سرعان ما أعطيتها طائرات الجمهوريين . وعند ذلك نظم سلاح الجو الألماني فرقة (كوندور) مساندة لفرانكو ، وهي تشكيلات من قاذفات القنابل والطائرات المقاتلة وطائرات الاستطلاع ، كان مجموعها في البداية مائتي طائرة وضعت تحت قيادة الميجور هوجو سبيرلي ، الذي طلب أن يكون أركان حرب فون ريشتهوفن الذي حل محله في قيادة هذه الفرقة بعد ذلك في عام ١٩٣٨ .

وإذ كان ريشتهوفن يدعو إلى الهجوم على طائرات العدو وهي جائئة على الأرض ، فإنه أخذ يطور خلال الحرب الإسبانية نظريته الخاصة التي تقضي في حالة الحرب بتعاون السلاح الجوي مع الجيش . ولو أنه لم تتح له الفرصة من أجل تطبيق هذه الإستراتيجية إلا فيما بعد عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية . وفي إسبانيا جعلت طائرات ريشتهوفن من طراز (شتوكا) من عملية قذف القنابل بطريقة الانقضاض فتاً حقيقياً قائماً بذاته ، فكانت تبذر به الرعب والموت والدمار في مناطق الموانئ في المدن الإسبانية مثل برشلونه وفالنسيا ، فقطعت الإمدادات عن القوات الجمهورية .

على أن فولفرام قد فطن إلى أن قاذفات القنابل المنقضة تنقصها تجارب معينة . هي الهجوم على أهداف تتولى الدفاع عنها وسائل فعالة . من المدفعية المضادة للطائرات ومن المقاتلات .

وفي ربيع عام ١٩٣٩ - بعد أن وضعت الحرب الأهلية في إسبانيا أوزارها - استطاع ريشتهوفن إقناع رؤسائه بأن قوته الجوية إذا هي احتشدت في النقطة الملائمة ، تستطيع أن تقدم مساهمة حاسمة في أي معركة برية . وذلك بأن تهيب فضلاً عن ذلك فتح الطرق أمام القوات المدرعة .

ولم يقترح ريشتهوفن الإقلاع عن قصف القنابل الإستراتيجي . ولكنه ساند ضرورة أنه

يتعين على جانب من القوات الجوية التي تخصص لمعركة ما في حالة الحرب أن يتم تنظيمها وتجهيزها عمهيدا للقيام بوظيفة تكتيكية . لقد كان استخدام السلاح الجوى ليعاون في مهاجمة الدبابات . أو لمساعدة المشاة . أمراً فكريه البريطانويون والفرنسيون في الحرب العالمية الأولى . إلا أن ريشتهوفن عرف كيف يضعه موضع التطبيق ، فكانت النتيجة هي « الحرب الخاطفة » في بولندا عام ١٩٣٩ .

وعندما كان قائدا للفيلق الجوي الثامن ، استخدام ريشتهوفن في بولندا ثلاث فرق جوية من طراز (يونكرز) ٨٧ . ومجموعة طائرات (هشل ١٢٣) وطائرات (مسرشميت) التي كانت تحت إمرته . بعد أن قام بتنسيق كامل بينها وبين قوات الجيش الألماني المتقدمة في عملية عسكرية أكبر ، لم يقم فيها أي وزن لما قد تتعرض له من خسائر .

فقد هاجم بهذه العملية المصانع وخطوط المواصلات . والمطارات ؛ فظل يقصفها حتى دمرها جميعا . وبسبب الدخان يتصاعد من ركاب الخطاطم الذي خلفته هذه الطائرات المنقضة وراءها ، راحت الطائرات البعيدة المدى تتغلغل في عمق بولندا . وتضرب القوات المراقبة في الخطوط الخلفية . وكذلك الطوابير المنسحبة من جبهات القتال . فتقتضى عليها نهائيا . وقد تبين أن معركة بولندا هي النموذج التقليدي للإستراتيجية الألمانية الجديدة ، التي كان فولفغرام فون ريشتهوفن واحدا من الضباط العظام الذين ابتدعوها . . .

° ° °

وفي يوم ٢٥ من أبريل ١٩٤١ أصدر هتلر أمراً يوميا قال فيه : « تجهز على الفور عملية بطلق عليها اسم «زئبق» ، تهدف إلى احتلال جزيرة كريت ، لجعلها قاعدة جوية لضرب القوات البريطانية العاملة شرق البحر الأبيض المتوسط » .

وقد عهد إلى جورنيج بمهمة إنجاز العملية ، فتبين أن دفاعات الجزيرة من الهجمات الجوية تتكون من خمسين مدفعا مضادا للطائرات ، بالإضافة إلى ثلاثين طائرة مقاتلة قديمة . وترتبياعلى ذلك ، كلف جورنيج قوات المظلات والقوات المحمولة جواً التابعة للفيلق الطائر الحادي عشر الذي يقوده الجنرال كورت شتودنت . بمعاونة طائرات الهجوم للفيلق الثامن الذي يتولاه فون ريشتهوفن ، الذي كانت مهمته تأمين المجال الجوي فوق الجزيرة خلال إزال قوات المظلات .

كانت مجموعات الهجوم التابعة للفيلق الثامن تتكون من حوالي أربعائة قاذفة قنابل من

طراز متوسط المدى وطائرات منقضة ، وحوالى مائتين وخمسين من طائرات القتال والاستطلاع .

وفى فجر يوم ٢٠ من مايو ١٩٤١ - وكان يوماً ينتظر أن تسطع فيه الشمس - انطلقت مئات الطائرات من طراز (مسرشميت ١٠٩ و ١١٠) قادمة من ناحية البحر ؛ لتهاجم فى موجات متتالية دفاعات جزيرة كريت ، على حين أخذت تشكيلات من طائرات (يونكرز ٨٧) و(هينكل ١١١) تغير على المطارات فيها ، وتلقى عليها طوفاناً من القنابل ذات الحجم الكبير .

وراحت هذه التشكيلات من الطائرات ذات المحركات الثلاثة تمر واحدة فى إثر الأخرى على شواطئ الجزيرة فى بطء بحمولاتها الثقيلة ، متجهة إلى الداخل ، على حين كانت تهبط على السواحل القوات المحمولة جواً بعنادها وأسلحتها . وفى الوقت نفسه امتلأ جو الجزيرة بالمئات من المظلات .

وعلى عكس ما كان يتوقع الألمان ، استقبلت الجزيرة الغزاة بنيران كثيفة ، مما جعل الكثيرين من القوات المهاجمة تتمزق جثثهم وهم مازالوا فى الهواء ، وقبل أن تطأ أقدامهم الأرض .

وعند الغروب وجد الجنرال شتودنت نفسه فى موقف حرج : ذلك أن القوات الألمانية ظلت واقفة فى النقطة التى هبطت فيها أمام نيران الدفاع البريطانى ، التى اتضح أنها أكثر كثافة مما كان متوقعاً . وعندما حاولت قافلة من السفن الألمانية إنزال حمولتها من القوات على أماكن متفرقة من الجزيرة إذا بوحدات بريطانية تحصدها حصداً ، وسقط للألمان نتيجة لذلك ١٥٠٠ قتيل !

وفى يوم ٢٢ من مايو سقط أحد مطارات الجزيرة ، وهو مطار (ماليم) فى أيدي الألمان ، غير أنه كان معرضاً لنيران البريطانيين الصادرة عن مدفعيتهم الكثيفة ، فلم يتمكنوا من استخدامه لهبوط طائراتهم فيه .

وعند ذلك جن جنون برلين ، وقررت أن تدفع بفيلق كامل من قوات الجبال لكى يهبط جواً فوق المطار ، بغير عمل أى حساب لنيران المدفعية البريطانية . ولما كانت تعلم أنها تبعت بهؤلاء الرجال إلى حتفهم ، فإنها أصدرت أمراً إلى فون ريشتهوفن لكى يتولى مهمة تأمين هذه العملية ، بالفيلق الجوى الثامن الذى تحت قيادته .

ونجح ريشتهوفن في مهمته .

وفي اليوم نفسه استطاعت طائرات النقل الألمانية من طراز (يونكرز) أن تعود إلى الظهور في سماء مطار (ماليم) ونجحت في الهبوط واحدة وراء الأخرى ، فيخرج من كل منها أربعون جندياً مدججون بأسلحتهم ، لكي تغلق من جديد لتجلب غيرهم .
أما القوات والطائرات البريطانية فلم تغلق في الوقوف في وجه فيلق ريشتهوفن الطائر .

وعندما بدأت معركة روسيا تولى ريشتهوفن مرة أخرى قيادة الفيلق الثامن الطائر ، بعد أن أصبح تابعاً للأسطول الجوي الثامن الذي يتولى قيادته كيسلرنج . وإذا تخلص ريشتهوفن من الدفاعات المضادة للطائرات السوفيتية ، فإنه فتح بذلك الطريق أمام غزو واحتلال كييف وأومان ، الأمر الذي رقى من أجله إلى رتبة ميajor جنرال .
وبعد ذلك ببضعة أشهر - أي في شهر يونيو التالي - استطاع بسبع مجموعات من قاذفات القنابل ، وثلاث من طائرات الانقضاض ، وأربع من طائرات القتال - بالإضافة إلى ١٧ بطارية من المدافع المضادة للطائرات - أن يقدم العون إلى الحصار الذي فرضه فون مانشتاين على مدينة سياستبول . وفي تلك الحقبة قام فيلق ريشتهوفن بماتراوح بين ألف ومائتين وألني طلعة جوية في اليوم الواحد .

ورقوه في الصيف التالي إلى منصب قائد الأسطول الجوي الألماني الرابع ، ومنحوه رتبة كولونيل جنرال ، لكي يتولى قيادة مجموعة الأسراب التي يتكون منها الفيلقان الجويان الرابع والثامن . ليساندهما الجيوش التي يقودها فون بوك . وكانت هذه المجموعة تضم طائرات قتالية ذات مدى بعيد ، وقاذفات قنابل جديدة ، وأعدادا ضخمة من طائرات الانقضاض .
وجاء بعد ذلك دور ستالينجراد ، فعُهد إلى ريشتهوفن بمهمة تنظيم الجسر الجوي الميثوس منه ، لكي يمد بالمؤن والدخائر الجيش السادس الذي يقوده فون باولوس الذي وقع في الحصار .

وكان فون ريشتهوفن يعرف تماماً أنه ليس هناك أي إمكان لنجاح هذا الجسر الجوي : فقد كان الشتاء الروسي رهيب ، والمسافات الطويلة من الطيران ، والتفوق الجوي المحلى للسوفيت ، كل ذلك كان من شأنه أن يقضى على أي أمل يراود الخيال .
وعند ذلك اتجه إلى جورنج ، وأبلغه صراحة أنه ليس في وضع يتيح له تأمين عملية تموين

٣٠٠ ٠٠٠ رجل هم الذين يتكون منهم جيش فون باولوس . إلا أن جورنج اتصل مع ذلك بهتلر ، ليقول له : إن المؤن والذخائر سوف تصل إلى الجيش المحاصر ، وإن الذى سيقوم بذلك هو فون ريشتوفن الذى سينقل يومياً ثلثائة طن من هذه المؤن ! وعلى ذلك أصدر هتلر يوم ٢٤ من نوفمبر ١٩٤٢ الأمر التالى : « يتعين الاحتفاظ بمدينة ستالينجراد . . أو إزالتها من الوجود » .

وبهذا الأمر بدأت بالنسبة للجيش الألمانى السادس ، والأسطول الجوى الرابع ، المسيرة نحو الموت ! .

• • •

كان على ريشتوفن أن يصدع لهذا الأمر . غير أن طائراته لم تستطع على الإطلاق أن تنقل يومياً الثلثائة طناً التى حددها جورنج ، وإنما كان متوسط ما تنقله مائة طن فحسب ، وهى لا تكاد تكفى الحيلولة دون الجيش الألمانى السادس من أن يموت جوعاً .

وفى أواخر عام ١٩٤٢ اضطرت القوات الألمانية المحاصرة فى المدينة التى أصابها الخراب والدمار إلى أن تخفض حصص الطعام التى يحصل عليها كل فرد . فأصبحت شريحتين من الخبز . وكوباً من الماء الذى به رائحة الحساء . وبدأ الجيش الأحمر يوم ١٠ من يناير ١٩٤٣ هجومه النهائى على الألمان فى معصدة ستالينجراد ، وبذل فون ريشتوفن قصارى جهده للإبقاء على فاعلية جسره الجوى ، ولم يبخل خلال ذلك بحياة أى عدد من رجاله . بل إنه تخلّى عن حرصه القديم على طياريه ، فراح يدفع بهم إلى مهام ميثوس منها تماماً ، لكى يبلغ القدر المقرر من المؤن . وهو لثلاثائة طن يومياً ينقلها إلى داخل المدينة المحاصرة المعرضة لأنواع النيران كافة . لكن المناخ الروسى الذى كان يتسبب فى عطب طائراته سريعاً . واستمرار القوات السوفيتية فى إزال خسائر فادحة بالألمان ، جعلاً مهمة ريشتوفن بالغة الصعوبة .

وعندما تمكن الجيش الأحمر يوم ٢٤ من يناير من ذلك العام من تحطيم الخنقة الدفاعية حول ستالينجراد ، ثم احتل بعض المطارات فيها ، كان عدد طائرات ريشتوفن قد انخفض إلى مائة فقط . ومع سقوط جميع مطارات المدينة ، ظل هو يستخدم مهبطاً احتياطياً عدة أيام . وقد تحطمت آخر طائرتين محملتين بالجرى عندما كانت تهبان بالإقلاع من هذا المهبط . بعد أن أصبح واقعاً تحت وابل نيران الدبابات السوفيتية .

وأحاط جنود أشبه ما يكونون بالهياكل العظمية ، يغطون أجسادهم بمزق بالية هى ما تبقى

من بذلات الجيش الألماني الفاخرة - أحاطوا بهاتين الطائرتين المحطمتين ، وراحوا يتناقشون في
يأس حول إمكان الحيلولة دون سقوط ستالينجراد. ولقد أمكن إصلاح إحدى الطائرتين على
عجل ، واستطاعت الإقلاع . أما الأخرى فقد بدأت تجرى على عجلاتها ، على حين أخذ
الجنود الذين تعلقوا بأجنحتها وهياكلها يسقطون- على الثلوج التي كست الأرض ! .
وعلى حين فجأة اتجه وابل من طلقات الأسلحة الأنوماتيكية السوفيتية إلى جسم
الطائرة ، فانفتحت فيها فجوة هائلة ، لم تلبث على إثرها أن ارتطمت بالأرض واشتعلت فيها
النار .

• • •

وفي يوم ١٧ من فبراير ١٩٤٣ أصبح فون ريشتهوفن رابع ضابط ألماني عظيم يحمل رتبة
الفيلد مارشال . أما الخامس والأخير فكان روبرت فون جرايم ، الذي رقى إلى هذه الرتبة
العالية يوم ٢٦ من أبريل ١٩٤٥ .

وفي هذه المناسبة وجه جوبلز وزير الدعاية كلمة إلى ريشتهوفن قال فيها : « إن قاموس ألمانيا
النازية لا يتضمن على الإطلاق كلمة « استسلام » البغيضة . . فلقد أزلنا تماماً كل ما يحيط بنا
من أخطار . . وقضينا نهائياً على ما يعترضنا من أزمات » .

• • •

على أن الحرب لم تكن قد انتهت بعد بالنسبة لفون ريشتهوفن : ذلك أن هتلر اختاره يوم
١٢ من يونيو ، ليعينه قائداً عاماً للأسطول الجوي الألماني الثاني العامل في إيطاليا ، لكي يقدم
العون لفون كيسلرنج الذي تولى في الوقت نفسه القيادة العليا في المنطقة الجنوبية .
لم يكن تحت إمرة فون ريشتهوفن حينئذ سوى ثلثائة طائرة ، كان عليه أن يواجه بها
أساطيل الحلفاء التي ضمت خمسة آلاف طائرة . عند ذلك أقدم على ما سمي في التاريخ بـ
« ضربة فون ريشتهوفن » : أي أنه وضع يده على سلاح الطيران الإيطالي ، وحول كل طياريه
إلى مرتزقة يعملون لحساب الرايخ الألماني .

لكن الإيطاليين كانوا قد تعبوا من الحرب ، وبدلاً من أن يخضعوا لأوامر ريشتهوفن ،
ويرتدوا الزى الألماني ، إذا بهم يشعلون النار في عدد كبير من الطائرات التي كان عليهم
قيادتها . وقد دمروا بهذا الحريق ٥٥ طائرة من طراز « فيات ج » .

وتبعت ذلك حركة تدمير بين الطيارين الإيطاليين ، فبعث بنيتو موسوليني دوتشي إيطاليا

رسالة إلى هتلر يناشده فيها ألا يطبق قوانين الحرب الألمانية الصارمة على الجنود الإيطاليين . فما كان من القوهر إلا أن استدعى فون ريشتهوفن إلى برلين . .

* * *

والواقع أن هذا الاستدعاء كان بمثابة نهاية الحرب بالنسبة لفون ريشتهوفن ، إذ أن الكند الذى شعر به لغل أبيده عن تأديب الإيطاليين ليجعل منهم جنوداً حقيقيين ، أصابه بسرطان فى المخ من فرط التفكير .

وأجريت له جراحة عاجلة ، ولكن المنية عاجلته ، وتوفى فى مدينة (باد إيشل) بالنمسا يوم ١٢ من يوليو ١٩٤٥ عن خمسين عاماً .

وبهذه الوفاة نجا من شيء أكثر مرارة مما حل به ، هو عواقب الهزيمة الكبرى التى حلت بألمانيا .

الفضل التاسع عشر

أيريش فون مانشتاين

الرجل الذى اخترع «الحرب الخاطفة»

لا جدال فى أن أيريش فون مانشتاين هو أعظم إستراتيجى فى الحرب الخاطفة : ولا غربة ولا غرو فى ذلك ، فهو على وجه التحديد الرجل الذى ابتدع هذا اللون من الحروب . ولقد لقبه ليدل هارت المؤرخ العسكرى البريطانى بأفضل جنرال ألماني فى الحرب العالمية الثانية ، وكان مصيباً فى ذلك إلى أبعد الحدود .

والواقع أنه بينما كانت دولة متقدمة عسكرياً مثل فرنسا - لا تزال تؤسس دفاعها الخاص على التحصينات الكبرى على غرار «خط ماجينو» - كان هو يصنع الخطوط العريضة فى أسلوب يتجنب به السأم الذى يعتري الجنود من جراء حرب المواقع ، لكى يفرض حرب الحركة عن طريق استخدام مجموعات هائلة من الدبابات ، ويجعلها تسير جنباً إلى جنب فى المجال التكتيكى وقيام سلاح الطيران بعمليات قذف القنابل الانقضاضى . أما فى المجال الاستراتيجى فإنه قرن استخدام هذه المجموعات بهجوم جوى كاسح على خطوط الأعداء الخلفية .

ومنذ ذلك الوقت أصبح تعريف «الحرب الخاطفة» مقروناً باسم رجل واحد هو : فريتس أيريش جورج إدوارد فون لوينسكى ، الذى اشتهر بوصفه الفيلدمارشال أيريش فون مانشتاين . .

• • •

وقد ولد فون مانشتاين فى ستراسبورج يوم ٢٤ من نوفمبر ١٨٨٧ ، وكان آخر عشرة أبناء أنجبهم والده إدوارد فون لوينسكى الذى كان جنرالاً فى سلاح المدفعية ، وسليل أسرة يرجع أصلها البعيد إلى روميا ، ولكنها أصبحت برومية منذ سبعة أجيال على الأقل .

وقد أحصيت في أسرته اثنا عشرة رتبة عسكرية ابتداء من عام ١٨٧٠ ، كما أن والده أيريش هي شقيقة زوجة فون هندنبرج الذى أصبح فيما بعد رئيساً للرايخ الألماني . وإذ فقد الفتى والده في سن مبكرة فإن عمه جورج فون مانشتاين قد تبناه ، وذلك هو الذى جعله يسمى باسمه عندما بدأ حياته العسكرية .

والتحق في عام ١٩٠٠ بفرقة الملحقين العسكريين في (بلون) ، واجتاز بنجاح امتحان الكلية العسكرية في (جروس) التى تعتبر مصنعاً للطبقة العسكرية للرايخ الثانى ، وانضم إلى حرس اللواء الثالث ، وأمضى مانشتاين عاماً رقى بعده إلى رتبة الملازم . فلما كانت الحرب العالمية الأولى لم يحارب خلالها سوى بضعة أشهر ؛ لأنه جرح في شهر نوفمبر ١٩١٤ جرحاً خطيراً ، وعندما شفى من جراحه عين ملحقاً عسكرياً في عدة قيادات لوحدات كبيرة .

وبقراءة تاريخ حياته كضابط ، نرى أنه عندما وصل هتلر إلى الحكم عام ١٩٣٣ ، سجل في أوراقه أنه وقد أصبح قائداً لكتيبة تابعة للواء الرابع مشاة الذى كان مرابطاً في (كولبرج) ، دخل في صدامات عنيفة مع موظفى الحزب النازى ، وعارض بقوة في استبعاد الضباط الذين توجد أدنى شبهة في أنهم يتحدرون من أصل يهودى عن القوات المسلحة .

على أنه لم تكد تمضى عشر سنوات على ذلك حتى غير رأيه ، فأصدر خلال معركة روسيا أمراً إلى القوات التابعة له قال فيه : إن الجندى الألماني ليس مجرد محارب ؛ وإنما هو حامل فكرة الوطنية الاشتراكية العنصرية ، وعليه أن يدرك تماماً ضرورة التطهر من العنصر اليهودى الدنيء !

وبرغم هذا التحول الهائل من الناحية الأيديولوجية ، فإن ذلك لم يجعله يفلت من تحقيق سرى قام به هيملر عام ١٩٤٣ للتحقق من شجرة أسرة أيريش فون مانشتاين بعد أن أصبح فيلد مارشالاً ، ليعرف : هل فيها أى فرع يهودى ؟ وكان هيملر في ظنه هذا مخطئاً .

• • •

ونعود إلى عام ١٩٣٦ ، فزى أن مانشتاين قد عهد إليه بمنصب نائب الجنرال (بيك) رئيس أركان حرب الجيش الألماني .

كان يومئذ في الخمسين من عمره ، يملؤه الطموح ، وله ثقافة عالية ، وضابطاً لامعاً يُستمع إلى رأيه بصفة خاصة في المسائل الإستراتيجية والتنظيمية .

وعلى عكس زملائه من الضباط الشبان ، فإنه استقبل بترحاب النظام الوطنى الاشتراكى

الجديد ، إذ بدا له أنه نظام حكم جاد وفعال ، على نقبض جمهورية فيمار ، وخاصة فيما يتعلق بسياسة التسليح وبعث الجيش الألماني .

لكنه ظل مع ذلك غيوراً على مكانة طبقة الضباط ، مما جعله يتخذ من الجنرال (سيكت) موقفاً معارضاً للمشروعات النازية التي كانت تقوم على التوسع بقوة السلاح ، وكان ذلك على وجه التحديد هو السبب في استبعاده عام ١٩٣٨ عن هيئة أركان الحرب ، وعين قائداً للفرقة الثامنة عشرة المرابطة في (ليجنيتز) .

والواقع أن هذا التعيين كان نقيضاً بمعنى الكلمة . وكان عليه قبل أن يترك هذا المنصب المتواضع أن ينتظر حتى صيف ١٩٣٩ ، عندما قرر الفوهرر الهجوم على بولندا ، فأنشأ مجموعة جيوش الجنوب في (سيليزيا) التي وضعها تحت قيادة فون رونشت . وتتكون من الجيش الرابع عشر بقيادة الجنرال (ليست) ، والجيش العاشر بقيادة الجنرال (رايشنآو) . والجيش الثامن بقيادة الجنرال (بلاسكوفتش) .

وهنا رقي مانشتاين إلى رتبة نائب جنرال ، فأصبح رئيساً لأركان حرب هذه المجموعة من الجيوش ، ووضع لها خطط المعارك التي ستخوضها عند نهر (فستولا) ضد قوات (لودز) البولندية ، بيد أن مفرخته الكبرى التي حققها بعد ذلك ببضعة أشهر ، كانت على الجبهة الغربية عندما وضع مشروعاً يتضمن عدة نواحٍ لورية طور به نظريات «الحرب الخاطفة» . وكان من شأن هذا التطوير أن اقتحم مانشتاين الذي لم يكن قد تخطى الثانية والخمسين من عمره دائرة الضباط الألمان العظام ، مثل : فون براوشتش ، وفون بوك . وفون ليب . وفون كلوج ، وجميعهم كانت أعمارهم ما بين السادسة والخمسين والرابعة والستين .

وفي يوم ١٠ من يناير ١٩٤٠ كانت هناك طائرة ألمانية تحمل عدداً من الوثائق الخطيرة ، من بينها خطة أطلقت عليها اسم شفرى هو (القضية الصفراء) ، وفيها تفاصيل غزو هولندا وبلجيكا ، ومن ثم الوصول إلى قناة بحر المانش ، ولأن هذه الطائرة ضلت طريقها وسط الضباب الكثيف ، فإن قائدها وكان يدعى الميجور (راينبرجر) هبط بها بمحض الصدفة في بلجيكا ، فاستولى عليها الحلفاء .

وكانت الخطة تقضى بأن يضطلع الجناح الأيمن للقوات الألمانية . بالهجوم الرئيسي وذلك بأن يعبر الأراضي الهولندية والبلجيكية والجزء الشمالي من فرنسا ، لكي يجبر قوات الحلفاء على

التقهقر حتى ساحل بحر المانش ، ثم يدفعها بعد ذلك إلى الجنوب من (السوم) ، ويحتل موانئ القناة والساحل الهولندي ، بحيث يؤمن القواعد الجوية والبحرية التي يمكن منها ضرب الجزر البريطانية ومحاصرتها ، وكان المتوقع في حالة نجاح هذه الخطة ، أن تضطر بريطانيا وفرنسا إلى إبرام معاهدة الصلح ، وتتيحان بذلك الفرصة لهتلر لكي يستدير إلى روسيا ، ويقضى عليها . ولم يرض مانشتاين عن هذه الخطة : ربما لأن الدور الذي عهد به إلى قواته في العملية كان متواضعاً ، فانتقلها بعنف في وثيقة قدمها إلى القيادة العليا قائلاً : إن خطة (القضية الصفراء) لا تتضمن الإشارة بوضوح إلى السير بالمعركة حتى نهاية ظافرة . فالهدف منها إحراز نصر جزئي ، هو هزيمة القوات المتحالفة في شمالي بلجيكا ، واحتلال الساحل لجعله قاعدة للعمليات المقبلة .

لكن براوشيتش رفض هذه الوثيقة ، وكذلك فعل هالدر ، إذ رأى الكثيرون من الضباط العظام في القيادة العامة أن مانشتاين إنما يحاول شق طريقه بين القيادات العليا بقوة الكف . وكانت نتيجة ذلك إبعاده يوم ٢٧ من يناير ١٩٤٠ مع ترقيته إلى (بوميرانيا) لكي يتولى قيادة المجموعة الثامنة والثلاثين لجيوش المشاة .

ومع ذلك فإنه كان لا يزال عنيداً واثقاً من نفسه ، حتى إنه عندما حضر بعد ذلك بشهر واحد حفل غداء في مقر المستشارية ببرلين ، لم يتردد في أن يعرض على هتلر انتقاداته لخطة (القضية الصفراء) ، ويقدم له في الوقت نفسه خطة بديلة من وضعه أسماها «ضربة المنجل» .

واقنع الفوهرر على الفور بخطة مانشتاين ، لأن فكرة مماثلة كانت تدور في ذهنه منذ بعض الوقت ، إذ كان يرى أن الهجوم الألماني يجب أن يوجه إلى (سيدان) بفرقة مدرعة وأخرى ميكانيكية ، وعند ذلك استدعى مانشتاين إلى مكتبه الخاص ، وللمرة الأولى في حياته أخذ يصفي إلى مانشتاين الذي أوضح له بلغة عسكرية جافة ، أن خطة (القضية الصفراء) إلى جانب أنها أصبحت معروفة لدى الحلفاء ، لا تسفر إلا عن هزيمة العدو .

وقال مانشتاين : «إن هذا يا سيدي الفوهرر ليس هدفنا ، وإنما يجب علينا أن نمحو العدو محواً ، وهو شيء مختلف عن مجرد هزيمته !» .

كانت خطة مانشتاين تقضى بأن تقوم مجموعة الجيوش التي يقودها الجنرال فون رونشت

بالمهجوم عبر (الأردن) على كلا جانبي (سيدان) ، لكي تنقض بعد ذلك بسرعة البرق على (الموز) ، وتصل عبر فرنسا الشمالية حتى البحر عند (آفيل) ، بعد أن تقضي تماماً على قوات الحلفاء المتجمعة في الفلاندر ، وبعد تدمير هذه القوات تصبح بقية الجيش الفرنسي محاصرة ، فنضربها الجيوش الألمانية من عند جناحها الأيمن ، فتبتدئ نهائياً .

كان هتلر يستمع في صمت ، فلما انتهى مانشتاين من تلخيص خطته ، لم يطرح عليه سوى بضعة أسئلة ، ثم وافق عليها .

وفي خلال الجزء الأول من معركة (فرنسا) لم تنح الفرصة لمانشتاين لكي يظهر ما يستطيع القيام به كقائد لأكبر مجموعة من الجيوش ، لأن قواته اندمجت هي والقوات المدرعة . إلا أنه في المرحلة الختامية منها كان مانشتاين هو الذي قام بعملية الاقتحام الأولى في الشرق عند (أميان) ، فأحدث الفجوة الكبرى التي تدفقت منها دبابات روميل .

وقد كتب المؤرخ البريطاني ب . ليدل هارت في ذلك يقول : « لقد استطاع مانشتاين أن يمارى السرعة التي تقدمت بها الدبابات ، وراح يطارد فلول الجيش الفرنسي بقوات المشاة ، كما لو أنها كانت من القوات المحمولة . ولذلك كانت قواته أول من وصل إلى نهر السين وتجاوزته يوم ١٠ من يونيو ١٩٤٠ ، إذ قطعت في ذلك اليوم في زحفها ٦٥ كيلو متر » .

• • •

وهكذا فإن مانشتاين - بما لديه من إحساس إستراتيجي عظيم ومعرفة متعمقة بإمكانات الوسائل الميكانيكية - قد بدأ على مسرح الحرب الأوربي بوصفه الرائد النموذجي لعمليات الاقتحام الخاطفة المنسقة مع الدبابات على الأرض وطائرات القتال في السماء ، وربما من أجل ذلك اختير - في فبراير ١٩٤١ بعد أن رقى إلى رتبة جنرال - لكي يتولى ضمن مجموعة جيوش الشمال التابعة للفيلدمارشال (ليب) قيادة الفرق المدرعة التي كان عليها أن تركز هجومها على ليننجراد .

وقد اقتحم مانشتاين جبهة العدو عند وادي (دويسا) ، ثم انطلق إلى الأمام بسرعة البرق حتى وصل إلى (دفينسك) التي تبعد ثلثمائة كيلو متر ، وذلك في أربعة أيام ونصف اليوم فقط ، واستولى في طريقه على جميع الجسور الرئيسية التي على نهر (دينا) قبل أن يتمكن السوفييت من نسفها .

غير أن حرب روسيا كانت تدخر له دوراً غير متوقع : فقد استدعى في شهر سبتمبر إلى

الجنوب ؛ لكي يتولى قيادة الجيش الحادى عشر خلفاً لفون شوبرت الذى لقي مصرعه فى حادث ، وكانت المهمة المؤكولة إليه هى أنه يغزو مع القرم قلعة (سياستوبول) البحرية الحصينة .

وهكذا تحول رائد الحرب الخاطفة إلى خبير فى العتاد ورائد فى قيادة جيوش المدرعات ، واستراتيجى فى المدفعية . والواقع أن مانشتاين ذهب يبحث فى ترسانات الجيش الألمانى عن كل عيار استثنائى : مثل المدافع الضخمة من طرازى (تور) و(أودين) اللذين تبلغ فتحة فوهتهما ٦٠ سنتيمتر ، بل عن أكبر مدفع عرف فى التاريخ وقد تم صنعه سرّاً فى مصانع (كروب) ، وذلك ؛ لكي يدك تحصينات الصلب والأمنح المصلح فى خط ماجينو . لقد كان هذا المدفع الذى أطلقوا عليه اسم (دورا) بطول ٣٠ متراً . وله قاعدة فى ارتفاع منزل من طابقين ، وعياره ٨٢ سنتيمتر ويعمل عليه أربعة آلاف رجل . ولكى يقتلوه إلى القرم كان لابد من قطار به ٦٠ عربة ! .

وبدا (دورا) فى شهر يونية يطلق على (سياستوبول) ثلاث قذائف كل ساعة ، وزن كل منها سبعة أطنان . ولها قدرة على تدمير أى جدار مدرع على عمق ثلاثين متراً فى باطن الأرض .

• • •

وقد أثمر احتلال هذه القلعة الحصينة للجنرال مانشتاين رتبة فيلد مارشال ، مع الأمر بانتقاله مع كل العتاد اللازم للحصار إلى جبهة ليننجراد . غير أن مأساة ستالينجراد كانت تظهر فى الأفق : فعندما وجد باولوس نفسه فى شهر ديسمبر ١٩٤٢ محاصراً . أمرد هتلر بأن يقاوم داخل المدينة بأى ثمن ، ولكنه وافق على أن يتقدم مانشتاين - الذى استدعى مرة أخرى إلى الجنوب - ووضعه على رأس مجموعة جيوش نهر الدون على طول خط (كوتلنيكوف) الحديدى ، لكي يفتح طريقاً فى الحصار السوفيتى .

وفى ستالينجراد راح الجنود يتغنون بعبارات تقول : «إن مانشتاين قادم . . . لقد أصبح هنا . . . ! » . ومع ذلك ، فإن آخر يوم فى عام ١٩٤٢ قد حل ، ولا يزال القيلد مارشال مانشتاين على بعد مائة ميل . على أن المدينة عادت فى ربيع عام ١٩٤٣ ، وواجهت الهجوم السوفيتى بعدة هجمات مضادة ، كذلك التى وقعت فى شهر مارس ، وأتاحت للألمان استرداد (كركوف) .

لكن العلاقات بينه وبين هتلر لم تعد طيبة : والواقع أنها لم تكن قط ودية ، إذ إن عبقرية مانشتاين العسكرية لم تكن لتشفع له عند هتلر ، الذى كان يتطلب انتماء سياسياً ، فضلاً عن نوع من الطاعة العمياء من جانب أى ضابط عظيم ، وهى شىء لم يكن الفيلدمارشال الجديد يوافق عليه . وإلى جانب ذلك ، كانت تُباعدُ بين الرجلين مفاهيم إستراتيجية عدة : فهتلر لا يزال يؤمن بمبدأ «عدم الانسحاب أبداً» ، فى حين أن مانشتاين يرى أن الطريقة (الوحيدة) لتبديد الضغط الروسى المتزايد هى التراجع إلى الوراء .

• • •

وقد أصبح الخلاف بينها حاداً فى مارس ١٩٤٤ : ففى اليوم الثلاثين من هذا الشهر استدعى هتلر كلا من مانشتاين وكليست إلى (أوبرسالزبرج) ، وقلدهما صليب الفرسان مع أوراق الغار ، ثم انتزع منها القيادة التى أسندها إلى اثنين آخرين من الفيلدمارشالات . ووصفاً بعد ذلك بأنها من أنخلص الرجال له ، وهما (شورنر) و(مودل) .

ونقل مانشتاين الذى قيل رسمياً إنه يعانى من مرض فى عينيه إلى (سيل) فى سكسونيا السفلى بحجة أن يتاح له علاج طويل ، وهناك أمضى وقته فى تأليف كتاب طبع بعد الحرب ، وأصبح من أكثر الكتب التى تناولت النواحي العسكرية فى العالم ، وكان اسم الكتاب : «الانتصارات الضائعة» .

وانتهت حياته العملية عند هذا الحد ، ولم يعد أحد يسمع اسم الجنرال مانشتاين حتى بين الضباط الذين حامت حولهم الشبهات بأنهم دبروا المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر فى شهر يوليو ١٩٤٤ .

وقد اعتقله الإنجليز بعد الحرب ، وحوكم بعد أربع سنوات فى (همبورج) ، بوصفه مجرم حرب . وكانت تهمة أنه فى عام ١٩٤٢ استقبل بعثة ألمانية ذهبت إلى القرم ، لكى تتولى تطهير المنطقة من اليهود ، بغير أن يعترض هو على ذلك . وكان الاتهام يتضمن تسعة عشر بنداً . رأت المحكمة أن لا دليل ينهض على سبعة عشر منها ، ولكن بقى بندان ملخصهما أنه لم يتدخل على حين كان آخرون يقومون ببعض الفظائع . ومن أجل ذلك حكم عليه بالسجن ثمانية عشر عاماً ، يتعين أن يقضيها فى سجون (فيرل) .

غير أنه لم يمض منها سوى أربعة أعوام ، وحصل على العفو لأسباب صحية فى مايو عام ١٩٥٣ ، ثم انسحب من الحياة العامة ، ليعيش مع رفيقة حياته (الوحيدة) فى بافاريا . وفى

اليوم الذى غادر فيه السجن وعاد إلى بيته أقام أهالى الحى الذى يسكنه احتفالاً تحت نوافذ البيت ، عزفت له فيه الأوبرا ودقت الطبول ، وجاءت هيئات رسمية لتشارك فى الاحتفال ، الأمر الذى ترتبت عليه فضيحة فى برلمان بون .

• • •

إن هذا العبقرى الإستراتيجى فى الحرب المخاطفة الذى عاش بعد ذلك عشرين عاماً أخرى وتوفى وهو نائم عشية إتمامه السادسة والثمانين من عمره ، لم يكن بكل تأكيد واحداً من أتباع هتلر ، ومع ذلك ، فإنه عندما ووجه بالفواجع الكبرى التى وقعت فى عصره ، وبالجرائم التى ارتكبها نظام الحكم النازى الذى كان هو فى خدمته - لم يزد على أن قال : إنه رجل حرب لا يعنيه إلا أن ينتصر فيها !

وعلى عكس من كانوا يدعون الإخلاص لهتلر ، فإنه تحمل بشجاعة مسئولية القرار الذى أصدره الفوهرر يوم ١٧ من مارس ١٩٤١ لقواد القوات المسلحة ، وأمرهم فيه بتصفية المندوبين السياسيين الملحقين بالجيش السوفيتى ، وفسره هو على أنه قضاء نهائى على العقيدة البلشفية .

وقد بدأ مانشتاين يتخلى عن هتلر ، فقط عندما أدرك أنه ليس على مستوى كسب الحرب ، ولهذا السبب وحده دخل فى اتصالات مع مجموعة الضباط الذين تأمروا على الفوهرر . ويوم أن اتصل به هؤلاء للمرة الأولى فى ربيع عام ١٩٤٢ ؛ لكى يشاركهم فى (إضراب) الجزالات - أبلغهم أنه لا يمانع فى ذلك ، ولكنه اشترط شيئاً واحداً يظهر مدى إخلاصه لمهنته كما يقول (آلن و. دالس) وهو أنه يريد أولاً أن يستولى على قلعة سيباستوبول الحصينة .

وكائنًا ما كان الأمر ، فإن مانشتاين كان جندياً (لا شأن له بالسياسة) ، وقد استغرقته مهته والانتصارات التى أحرزها تماماً ، ولو أنه كان لا يفتأ يتتبع أوامر هتلر المخاطفة . لكنه لم يسمح لنفسه قط أن يخالفها ، فلقد كان رجلاً بروسياً حقاً ، يدين بالطاعة للحاكم الذى تضعه المقادير فى مقعد الحكم .



هتربستمع إلى تقارير عدد من جرائله عن سير المعارك في روسيا ، وما طرأ من السحابات لقواته وقد وجه إليهم التوم الشديد على أنهم لم ينفذوا تعليماته بالصمود مها كان الخي



اجتماع هيئة الأركان مع الفوهرر : وقد وضع هتربنفسه خطط عدة عمليات ناجحة ، منها غزو النرويج ، وأصبح بعدها يشترك على نطاق واسع في التخطيط الإستراتيجي لكافة المعارك وقد أشرك معه في ذلك الجنرال فون مانشتاين

obeikandi.com

الفصل العشرون

هانس جودريان

هجوم . . بقوات البانزر

من المعروف أن « الإستراتيجية » . . . هي ذلك الجزء من فن الحرب الذي يختص بالخططة العامة للعمليات بتصميمها ووضعها ، وجعلها مطابقة للقواعد والقوانين ، وأن « التكتيك » . . . هو الجزء الآخر من فن الحرب الذي يدرس استخدام القوات في ميدان المعركة .

وعلى ذلك فإن هناك فرعين منفصلين لنفس « الفن » ، هما - وإن كانا غير متعارضين - من المقطوع به أنهما مختلفان من حيث الوسائل التي يستخدمانها ، وأساليب عملها ، والأهداف النهائية التي ترمى إليها كل من الإستراتيجية والتكتيك .

وكما أن هذين القطاعين لا يمكن أن يختلطا معاً ، فكذلك الشخصيات التي تلمع في أحدهما تتميز عن الأخرى ، ونادراً ما تكون فيها صفات مشتركة . والإستراتيجي البارع ليس بالضرورة رجل تكتيك جيد ، والعكس صحيح ، إذ يندر أن يصبح هذا الأخير - وإن كان لامعاً - عبقرياً في الإستراتيجية .

ولقد كان هذا المبدأ صحيحاً تماماً بالنسبة لهانس جودريان (المولود في كولم عام ١٨٨٨ والمتوفى في شفاخن عام ١٩٥٤) الذي استحق بجدارة أن يسجل اسمه في التاريخ بوصفه واحداً من أفضل قواد الجيوش في « ميدان المعارك » خلال الحرب العالمية الثانية ، وصانع عدد كبير من الانتصارات الأساسية التي جعلت ألمانيا النازية تنتصر في معركة الدبابات ضد كل من بولندا وفرنسا ، والمرحلة الأولى من الحرب ضد الاتحاد السوفيتي .

أما اللبس الذي يجعل الكثيرين ينظرون إلى جودريان بوصفه رجل إستراتيجية أيضاً فإنما يرجع إلى الغموض الذي يحيط بمعارك الدبابات السريعة : أي الحرب التي لا تستغرق سوى

لحظة ، وتكون نتيجة لمعركة واحدة ، أو على الأكثر لبضع معارك قليلة . وهكذا فإن القائد الذى له قدرة على انتزاع النصر فى الصدام الذى يجرى على أرض المعركة - (وكان جودريان أبرع هؤلاء) - يعتبرونه كذلك رجل إستراتيجية عظيماً

ولقد ظل الجدل مستمراً طوال ثمانية أشهر فيما بين شهرى يوليو ١٩٤٤ ومارس ١٩٤٥ ، حول احتمال أن جودريان رجل « تكتيك » فقط ، أو أنه كذلك رجل « إستراتيجية » عندما عينه هتلر رئيساً للقيادة العليا للجيش الألمانى ، وهى أعلى جهاز إستراتيجى حرى . حقاً إن جودريان فيه صفات تبرر هذا التعيين : ففى مقدوره قيادة وتوجيه كل آلة الحرب فى بلاده ، ولكن فقط فى المرحلة التى تكون فيها مصائر الحرب مضمونة فى أى اتجاه . وقد فعل هو ذلك عن طريق نقله لأوامر هتلر قبل أوامره الخاصة . والمعروف أن القوهر قد هبط خلال المرحلة الأخيرة من الحرب بالسمعة العظيمة التى كانت لهذا الجهاز ، بإستراتيجيته الخاطئة .

وهكذا فإن الفترة التى قضاهما إخصائى المدرعات على أعلى قمة عسكرية فى ألمانيا . تميزت بوقوع كوارث حربية أكبر على جميع الجبهات . وعندما قرر هتلر فى منتصف يناير عام ١٩٤٥ نقل مقر قيادته العامة من (عش النسر) فى الجبال إلى برلين - وكان جودريان لا يزال فى منصبه هذا - جرت على ألسنة الألمان « نكتة » مؤداها أنه أراد بهذا النقل أن يكون فى منتصف المسافة تماماً بين القوات الروسية من ناحية ، والقوات البريطانية الأمريكية من ناحية أخرى فى اقترابها من العاصمة .

* * *

كان جودريان إذن رجل « تكتيك » عبقرياً ، ورجل « إستراتيجية » أقل من العادى . والحق أن التقليل من صورة هاينس جودريان - وهو الشخصية التى أضفت عليها تهويلات الحرب وجانب من التاريخ رؤية ضخمة - تفترض معه إعادة النظر فى ناحيتين جرت العادة على أخذهما فى الاعتبار عند تقويمه :

الأولى أنه كان مبتدع « المدرعات » واستخدمها التكتيكى .

والأخرى أن حجم الانتصارات التى حققها جودريان فى ميدان المعركة كان له قيمة وأبعاد « مطلقة » .

والواقع أنه لم يكن هو مبتدع المدرعات ، كما أن انتصاراته بالرغم من ضخامتها وقيمتها

الفنية البارزة إنما كانت انتصارات «مؤقتة». وسنحاول هنا إيضاح هاتين النقطتين اللتين لا تقللان من الجدارة التي يستحقها هذا القائد ، ولكنها تضعانه في حجمه الصحيح على ضوء الحقائق التاريخية التي باتت معروفة الآن .

إن الرجل الذي ابتدع المدرعات في ألمانيا كان (أوزفالد لوتز) الذي عين عام ١٩٢٨ برتبة الكولونيل رئيساً لأركان الحرب في القوات المحمولة ، ثم أصبح بعد ذلك جنرالاً . وقد نقل لوتز بدوره جانباً كبيراً من أفكاره عن الجنرال الإنجليزي سير (بيرسي هوبارت) الذي كان أول من تنبأ بإمكان تحريك القوات المدرعة . . . ولو أن المؤسسة العسكرية البريطانية القديمة قد عاقبت على هذه المهرطقة ، وطردته من هيئة أركان الحرب ، وخاصة لأنه تجرأ منذ العشرينيات على القول بأن « في استطاعة مجموعة متأسكة من الدبابات أن تقتحم وتمر من أى تكتل للعدو ، حتى بدون المساعدة التي يمكن هذه المجموعة أن تتلقاها من المشاة ! » .

• • •

وقد طبق (لوتز) عند إعداد سلاح المدرعات الألماني التجديدات التي أدخلها هوبارت على نظرياته ، كما أنه زاد على ذلك أن طور بطريقة ثورية هذا السلاح ، فلم يجعله مقتصرًا على حاية المشاة ، كما كان الأمر من قبل ، وإنما حول المدرعات إلى وحدات تعمل بمفردها تناسب إلى أقصى الحدود التسليح المحفّض الذي كان مفروضاً على ألمانيا :

ذلك أن بنود معاهدة الصلح التي وقعت بعد الحرب العالمية الأولى ، كانت تحظر على ألمانيا صنع أى مدفعية ثقيلة ، أو بناء وحدات بحرية كبيرة ، أو أن يكون لها عدد ضخم من الجنود . غير أنه فيما يتعلق بالمدرعات فإن بنود السلام كانت غامضة نتيجة لما ينطوى عليه هذا السلاح من جدة . وكان (لوتز) يعرف كيف يظل في نطاق التعهدات الدبلوماسية ، على الأقل من الناحية الرسمية ؛ كما أنه كان يعرف كذلك كيف يبعث الحياة في سلاح يمكن أن يمثل « قوة صدام » في مستوى أرفع بكثير مما تقضى به معاهدة الصلح ، التي اقتصرَت على أن تأخذ في الاعتبار مجرد قطر فتحات المدافع ، وعدد الرجال الذين يضمهم الجيش الألماني .

وجودريان هو تلميذ لوتز وريسه الذي أعطاه عام ١٩٢٩ قيادة الكتيبة الثالثة الراكبة ، ثم عينه بعدها نائباً للكولونيل عام ١٩٣١ ، وألحقه بهيئة أركان حربه .

ولقد كان لوتز بدوره رجل فون فريتش الذي تول منصب القائد العام للجيش عام

١٩٣٣ ، وفتح الطريق أمام تعزيز القوات المحمولة ، وأنشأ ثلاث فرق للمدرعات ، عهد

بقيادة إحداهما وهي الفرقة الثانية المرابطة في (فورزبورج) إلى جودريان .
ثم توالى بعد ذلك الأحداث المعروفة ، فاصطدم فون فريتش وهتلر مطالباً باستبعاد فون
بومبرج الذى كان وقتئذ وزيراً للدفاع . متدعياً إلى ذلك بحجة أنه تزوج إحدى الرافعات
التي تتداول الأيدي بعض صورها وهي عارية . أما الحقيقة فهي أن بومبرج كان يمثل الجناح
العسكرى الذى لديه استعداد للتمشى مع هتلر .
ووافق الفوهرر على ذلك تجنباً لحدوث فضيحة . غير أنه انتهر الفرصة . لكي يجرى عملية
تطهير واسعة في دوائر العسكرىين ، فحمل سنة عشر جنراً وثمانية وأربعين ضابطاً آخرين على
الاستقالة . واستخدم النعمة نفسها مع فون فريتش التى كان هذا قد استخدمها مع فون
بومبرج ، إذ أشاع أنه مصاب بالشذوذ الجنسى .
وهكذا أصبح جودريان الضابط العظيم الوحيد الذى لا تخوم الشكوك حوله من الناحية
السياسية ، والذى يؤيد الإستراتيجية الجديدة للمدركات ، وهي الإستراتيجية التى أعلن هتلر
صراحة أنه يأخذ بها .

° ° °

وجاء عام ١٩٣٨ ، وقد تم جزئياً تطهير الجيش الألمانى من الضباط «البروسيين» ومن
الجزائلات الذين لا يريدون الخلط بين السياسة والفن العسكرى ، وأصبح هتلر متأهباً
للاطلاق في عمليات التوسع . وإن كانت في ذلك مجازفة بدخول الحرب .
ودخل حربين خاطفتين ظافرتين في بولندا وفرنسا . ثم بدأ حرباً خاطفة ثالثة في روسيا
سرعان ما اتخذت طابعاً مختلفاً . ولا جدوى من أن نكرر هنا تفاصيل الأعمال التى جعلت اسم
هاينس جودريان تفتن هي وصورة «الذراع المسلح» الذى أراح به جهاز الحرب النازى من
فوق مائدة اللعب دولاً بأكمنها . على نقبض الحسابات التى وضعها الخبراء وتنبؤاتهم .
ولكى نقدم تحليلاً يكون بمثابة المقدمة لمناقشة القيمة الحقيقية للتكتيكات التى وضعها
جودريان . نلخص عمليات التدخل التى قام بها «هاينس السريع» كما أطلق عليه الخبراء
العسكريون العالميون في هذه المعارك الثلاث :

في معركة بولندا عام ١٩٣٩ . كان جودريان قائداً للفيلق التاسع عشر مدرعات .
وكانت خطة الهجوم المسماة (القضبة البيضاء) تلقى على كاهله بمهمة «السباق إلى الشرق» على
طول الممر البولندى . وبدأت المعركة يوم ٥ من سبتمبر . وفي يوم ٦ منه سقطت كراكوفيا .

وفي يوم ٨ منه أصبحت المدرعات الألمانية في ضواحي العاصمة البولندية ، وفي الأيام التالية وصل الفيلق التاسع عشر مدرعات إلى برست - ليتوفسك ، واستولى عليها .

وهنا وقعت مذبحة لواء «بومورسكا» ، حيث راح الفرسان البولنديون يتدفقون بجيادهم في موجات متتالية ، وفي أيديهم رماحهم الطويلة ، ليهاجموا الدبابات الألمانية التي برزت منها مدافع رشاشة أخذت تحصدهم جماعات جماعات ، فأفنتهم جميعاً ، ومع أن هذه كانت نهاية عصره بأكمله ، فإن الجيوش الأخرى لم تفتن إليها على الفور ، وكان ذلك من حسن حظ جودريان .

• • •

أما معركة فرنسا في العام نفسه ١٩٣٩ فقد تجاهل فيها الألمان خط (ماجينو) الذي توفرت له دفاعات جيدة ، وراحوا يهاجمون عبر بلجيكا على حدود (الأردن) ، التي قال الخبراء في باريس باستحالة مرور الدبابات منها ، لكن مدرعات جودريان الذي أصبح الآن يقود فرقتين هما الأولى والعاشرة اجتاحت الأردن في يومين ، ولم تمض سوى ثمان وأربعين ساعة أخرى حتى غزت (سيدان) ، وإذا بالألمان يرون أمامهم نهر الموز الذي عبروه في اليوم التالي . وكان ذلك يوم ١٣ من مايو .

وبعد ذلك بأسبوع واحد قام جودريان ومدرعاته بإفجاز تلك المعجزة الفنية العسكرية ، بل تلك الأسطورة الإنسانية التي أصبحت تسمى «السباق نحو البحر» !

ولقد أفزع هذا السباق هتلر والقيادة العليا للسرعة الهائلة التي ينطلق بها جودريان بغير أن يكون تحت حماية أى غطاء من المشاة . وعند ذلك أصدر إليه الأمر بأن يتوقف ، لكن جودريان هدد بالاستقالة ، واستطاع أن يقوم بما يعتبر «انفجاراً في القوات» : ذلك أنه ترك على نهر الموز قيادته العمة ، وتقدم رجاله على أول دبابة ، وأعطى الجميع الأمر بالانطلاق في «اتجاه البحر» ، حتى آخر قطرة من الوقود .

وفي يومي ١٥ ، ١٦ من مايو ذلك العقبة الكبرى التي أمامه ، وهي الجيش الفرنسي التاسع الذي يقوده الجنرال (كوراب) ، ثم عبر يوم ١٨ منطقة (سامبرواز) ، واحتل (سان كاتنان) ، وسحق في طريقه قائداً مجهولاً برتبة الكولونيل كان يتولى قيادة فرقة من الدبابات الفرنسية يدعى شارل دييول !

فلما كان يوم ١٩ أصبح جودريان عند (السوم) ، وفي فجر يوم ٢٠ احتل (أميان) ، وفي

عصر اليوم نفسه توقفت جنازير مدرعته فوق بساط ممتد من الرمال ، وإذا بالمياه أمامها : إنه بحر المانش !

أما الجيب الذى أغلقه فقد ضم أفضل الجيوش الفرنسية وقوات الحملة البريطانية . وقد اتخذ الإنجليز طريق النجاة من البحر ، فى حين استسلم الفرنسيون على بكرة أيهم !

* * *

ونجىء الآن معركة روسيا ، عام ١٩٤١ .

فى يوم ٢٢ يونية ، بدأت المجموعة الثانية لفرق المدرعات بقيادة جودريان التابعة لمجموعة جيوش الوسط التى تحت إمرة الفيلدمارشال فون بوك تقدمها وذلك فيما وراء (نيمن) فى اتجاه (بيريزينا) ، فى طريقها إلى مدن (كوبرين) و (سلونيم) و (مينسك) . ودخل جودريان فى عدة صدامات دمر فيها الدفاعات السوفيتية التى تراجعت فلولها ، غير أنه كثيراً ما وجد نفسه فى مواقف صعبة وخاصة أن فون كلوج الذى يقود مجموعة أخرى من الدبابات ، لم يستطع ملاحقة مدرعات جودريان .

وفى يوم ٣ من يوليو وصل الجيش الرابع الذى انضم إليه جودريان إلى أكثر الأهداف الممكنة طموحاً ، وهو احتلال مدينة (سمولنسك) ، وبات على أهبة التوغل فى اتجاه موسكو التى لا تبعد عنها سوى مائتى كيلو متر .

وقد كتب الجنرال هالدنر من القيادة الألمانية العليا فى مذكراته عن تلك الأيام يقول : « يمكن القول - بغير مبالغة - بأن الحرب ضد روسيا قد انتصرنا فيها خلال أربعة عشر يوماً » . غير أن المبالغة موجودة فعلاً ، وقد دلت على ذلك بقية سير الحرب ، ولكن لنختتم هنا هذا الحديث ، ونقفز إلى مرحلة تالية عندما لا تتكرر أسطورة حرب المدرعات الحافظة : أى بعد أن حول هتلر مدرعات جودريان إلى (أوكرانيا) وقال : إن لها الأولوية : ذلك أن الهجوم على موسكو قد توقف ، ولم يستأنف إلا فى شهر أكتوبر التالى : أى فى فصل الشتاء . لقد استطاعت بعض الدبابات الوصول حتى عشرين كيلو متر من العاصمة السوفيتية ، وإلى نقطة كانت تبدو منها قباب الكرملين . غير أن الوحل أولاً ، والثلوج بعد ذلك ، ثم تصميم الروس وتنظيمهم الدفاعى الصلب - كل ذلك أجبر المدرعات والجيش الألمانى بأكمله على التراجع إلى الوراء .

ونتيجة لهذا الفشل طرد جودريان من الجيش ، ومعه خمسة وثلاثون جنرالاً ، فانسحب

ليعيش حياة الضابط المحال على المعاش في (شوانجوا) ، حيث يعث هتلر في طلبه عام ١٩٤٣ ، لكي يعينه مفتشاً عاماً على القوات المدرعة . وبالاتفاق مع (سبير) قام جودريان بنشاط عظيم في إعادة تنظيم المدرعات وزاد من فعاليتها .

وبعد محاولة اغتيال هتلر التي وقعت يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ - جرت مواجهة عنيفة بين جودريان والفوهرر الذي أمره بأن يختار مكاناً يذهب لكي يعالج نفسه فيه « لستة أسابيع على الأقل » . وعند ذلك رد جودريان عليه قائلاً : « لست أدري : هل سأعثر على مكان لن يقع في أيدي العدو خلال الأسبوع الأول من فترة علاجي ؟ .. »

• • •

ولن نتوقف طويلاً عند جودريان في محتته ، وإنما سنركز على جودريان وهو منتصر . إن تكتيكه في هذا الانتصار - مثله مثل أى صورة من صور النجاح - غاية في البساطة : فهو يختار نقطة ما في تكتل العدو ، ويركز في الهجوم كل ما لديه من قوة ، ويوجه ضربة واحدة في منتهى العنف مستخدماً في ذلك أفضل استخدام سلاح الطيران التكتيكي ؛ لكي يشل إمكانات العدو الدفاعية ، ثم يتقدم من خلال النقطة التي اقتحم منها دون أن يترك للخصم أى هدية ، فيتعقبه ويقطع أوصاله في أثناء فراره ، ولا يتخلى أبداً عن عقيدة القدرة القصوى على التحرك ، ويفتح لنفسه بعد ذلك مجال الانتشار على شكل المروحة .

إن نقطة القوة في تكتيك جودريان تبدى على الفور : فتقدمه لا يستند أبداً على المشاة . وفي ذلك الوقت كان الخبراء الذين تخلوا عن المفهوم الذي يقضى بأن تستخدم الدبابات بمثابة « دفاع عن المشاة » - قد ظلوا متمسكين بالمبدأ الذي يقول إن « على الدبابة أن تقتحم ... وعلى المشاة أن تتقدم » .

أما بالنسبة لجودريان فإن الدبابة هي التي تتقدم وحدها . وقد أعلن هو منذ سنوات في كتاب بارع أصدره عام ١٩٣٦ : « أن المدرعة لا تظهر لها » . وبغير الرابطة التي تتمثل في التحرك في نفس الوقت الذي تتحرك فيه المشاة التي تعزز الأرض التي يتم غزوها ، فإن جودريان يستطيع القيام بعمليات تعتبر « معجزات » ، يدين بها لشهرته ، بأن يتقدم في عمق العدو الذي تقع في صفوفه الفوضى ، ويكون متأخراً دائماً إستراتيجياً « يوماً على الأقل » ، في الرد الملائم .

ولابد من الاعتراف كذلك بأن هذه الانتصارات قد أحرزها جودريان بدبابات أقل عدداً ، وأبطأ سرعة ، وأضعف تسليحاً ، وبدروع تقل في غلظتها كثيراً عن دروع العدو :
ففي عام ١٩٤٠ لم يكن لدى الألمان سوى ٦٠٠ دبابة ذات مدافع عيار ٧٥ مم و ٢٠٠٠ دبابة صغيرة لها مدافع عيار ٣٠ مم ، ودروع رقيقة للغاية . أما الفرنسيون والإنجليز فكان لديهم ٣٦٠٠ دبابة من طراز أقوى وتسليح أرقى : فدبابات (ما تيلدا) البريطانية لها دروع لا تخترقها فذائف الدبابات الألمانية الأولى ، أما الدبابات الروسية طرازات ٣٤ فقد ظلت طوال الحرب أقوى بكثير من دبابات «تايجر» و «بانتر» الشهيرة سواء من حيث التسليح أو السرعة .
و ذات يوم قال فون كلوجه لجودريان خلال نقاش جرى بينهما : «إن جميع انتصاراتك كانت دائماً معلقة بخيط رفيع !» ، وهذه هي الحقيقة ، وهي في الوقت نفسه الجدارة التي يستحقها ، والحدود التي يقف جودريان عندها : فالمدركة لا تظهر لها طالما أن العدو يفر أمامها ، وطالما أن ما هو جديد في هذا التكتيك الحديث للدبابات والخوف من تقدمها الذي لا قبل لأحد بصده ، يشلان الجندي في أرض المعركة ، ويشلان رؤسائه معه على إثر الذهول الذي يصابون به وهم داخل قياداتهم .

غير أن كل ذلك كان تاريخياً أمراً مؤقتاً ، كما أن المجد الذي يعود إلى جودريان إنما يستند على وجه الخصوص على الأيام السبعة التي أسقط فيها بولندا ، والأيام العشرة التي انهارت بعدها فرنسا ، والأسبوعين اللذين أمضاهما في الجبهة الروسية :

ذلك أنه ما كادت المفاجأة تنقضي ، ويظهر عدو ذو تصميم عسكري مثل العدو السوفيتي ، يخالف الجيش الفرنسي المنعم وفرسان البولنديين الرومانسيين ، حتى دار الحظ مع جودريان : فإن مدرعته التي تتقدم بغير مشاة فتضرب حصاراً حول العدو ، إذا بها يضرب حولها هي الحصار . وعندما حدث ذلك إذا بهذه المدرعات لا تجد من يزودها بالوقود كما زودت عندما دخلت الأراضي الفرنسية ، ولا من يقدم إليها قطع الغيار ، فضلاً عن أنها لم تستطع أن تعير أطقمها .

وعندما زال الخوف من «الرعب» الذي كانت تثيره الدروع الألمانية ، بدأ الجيش الروسي هجماته المضادة ، وكثرت غارات المناضلين المسلحين بقبائل مولوتوف ، وانتهى الأمر بأن توقف تقدم هذه الدروع ، وأخذت تسقط في الشراك القاتلة ، أما «الخيط الرفيع» الذي أشار إليه فون كلوجه فقد أمكن أخيراً أن يتقطع !



عين جودريان رئيساً لأركان حرب القوات البرية في اليوم التالي لمؤامرة ٢٠ يوليو ١٩٤٤ ضد هتلر ، وقد أعلن في ذلك اليوم قوله : « إنني سأكون جباناً إذا لم أعمل على انقاذ القوات الألمانية العاملة في الشرق » .

إن الحرب العلمية الثانية قد أثبتت من الناحية التاريخية أنه ليس هناك أى سلاح يمكن اعتباره سلاحاً نهائياً بما فى ذلك السلاح النووى ، إلا لفترة وجيزة تبدأ فور ظهوره . وهكذا حدث بالنسبة لدرعات جودريان . ولو أن ذلك لا يقتل بطبيعة الحال من « القيمة » التاريخية للأعمال التى قام بها فيما بين عامى ١٩٣٨ - ١٩٤١ . ولا من المجد الذى استحقه . ابتداء من شجاعة شخصيته . إلى جسارته البطولية التى كانت تجعله لا يتولى قيادة دروعه الحاذرة إلا من برج الدبابة الأولى فى أول طابور يخوض القتال .

الفصل الحادى والعشرون

ألبرت كيسلرنج

قائد «الهزائم الرائعة» !

من الأسئلة التى ظل الفيلد ماريشال كيسلرنج يطرحها على نفسه ، حتى يوم وفاته عام ١٩٥٥ ، سؤاله عن السبب الذى جعل الإيطاليين يحقدون عليه . . . هو الذى أنقذهم من مآزق كثيرة ، برغم تحمله لخياناتهم وأخطائهم .

وربما كان دافعه إلى هذا التساؤل أنه كغيره من الضباط النازيين الذين عملوا مع الإيطاليين جنباً إلى جنب ، قد خرج بعقيدة راسخة هى أنهم ليسوا رجال حرب ، وأنهم لم يبرعوا إلا فى الخيانة والغدر .

والواقع أن أول لقاء لألبرت فون كيسلرنج مع ضباط من الجيش الإيطالى ، لم يترك فى نفسه عنهم أثراً طيباً .

فى ذلك اليوم - وكانت الحرب قد بدأت بانتصارات ألمانية أكبر ، وأخذت ألمانيا بعدها تنهياً لغزو بريطانيا - وصل إلى مقر قيادة كيسلرنج الذى كان يتولى قيادة الأسطول الجوى الثانى المربط فى بلجيكا ضابط إيطالى عظيم ، هو الجنرال (رينوكورسو فوجيه) قائد الفيلق الجوى الفاشى الذى رأى الدوتشى ببعد نظره أن يجعله يشترك مع الألمان فى انتصارهم القادم « المؤكد » .

وكان يحضر هذا اللقاء بين القائدين الألمان والإيطالى ، الوزير هرمان جورنج الذى بدا حماسه وسخريته عندما قال للمبعوث القادم من لدن موسوليني : « إننى أنصحكم بأن تسرعوا فى الاستعداد للاشتراك مع القوات الألمانية . . . فى خلال ثلاثين يوماً على الأكثر سوف نقضى تماماً على سلاح الطيران الملكى البريطانى ، وتبدأ قواتنا فوراً فى الهبوط إلى الجزيرة ! » وتراخى الجهاز العسكرى الإيطالى طويلاً ، وتباطأ فى إرسال طائراته برغم أن معركة

بريطانيا قد بدأت ، فلما وصلت أسراها الأولى إلى (كاب جريس) يوم ١٩ من أكتوبر ، كان الموقف العسكرى قد تغير بصورة جذرية : ذلك أن الإنجليز كانوا في سبيلهم إلى كسب المعركة الجوية وخاصة بعد أن فقد الألمان ١٧٥٠ طائرة من طائراتهم هوت محترقة في البر والبحر . وعند ذلك قل الحديث عن هبوط قوات هتلر إلى الجزيرة ، بل كاد أن يتوقف .

“ “ “

وبعد ذلك خيل أن قدر كيسلرنج العسكرى يباعد بينه وبين الإيطاليين ؛ فقد أرسله الفوهرر إلى روميا حيث عاش مرة أخرى في جويشيه جو الانتصارات الألمانية التي تحققت في فرنسا ، وتعاون هو والقوات المدرعة التي خصصت للاستيلاء على موسكو . غير أنه عندما ساءت الأمور في روسيا وتحول مجرى الحرب فيها بعثوه إلى إيطاليا ، ومعه ٦٠٠ طائرة ؛ لكي يقوم بدور البطولة في مهمة عسكرية جديدة ، هي غزو جزيرة مالطة . لم تكن مفاجآت الحرب وما فيها من ارتفاع وانخفاض ، قد أثرت في كيسلرنج أو قللت من تفاؤله ، وكان في ذلك تفسير لاحتفاظه الدائم بعطف هتلر . فهو لم يقل (لا) قط ، وبعد دائماً بالنجاح تلو النجاح ؛ كما يوافق على طول الخط على أى خطة تضعها القيادة العامة . وكان النقاش يدور منذ زمن حول إنزال قوات المحور في مالطة ، وتحدث عن هذا الموضوع الماريشال الإيطالى (أوجو كافاليرو) مع هتلر . وعقد في شهر يناير ١٩٤٢ بشأنه مؤتمر مع الجزرالات الألمان والإيطاليين واليابانيين في (جارميش بارتكيركن) .

وعجل وصول كيسلرنج من الاستعداد للعمل . إنه رجل عسكرى يقوم بنفسه بأخطر الأمور ، ومن أجل ذلك شرع على الفور في عملية استطلاع جوى فوق الجزيرة الصغيرة ، ثم عاد وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن مالطة تمثل تهديداً خطيراً للقوافل التي تحمل الإمدادات إلى القوات الألمانية العاملة تحت قيادة روميل في أفريقيا ، وخاصة بعد الهزيمة التي أنزلها الإنجليز بالقائد الإيطالى (جراتزبانى) .

ولأن الفيلدماريشال كيسلرنج مطبوع على الطاعة والتفاؤل ، فإنه بعث إلى جورنج تقريراً يقول فيه : « إن مالطة قد أصبحت في حوزتنا بنسبة سبعين في المائة » . بل إنه فعل ما هو أكثر من ذلك ؛ إذ ذهب إلى القيادة الألمانية العليا ؛ لكي يقنع هتلر شخصياً بالعملية . فلما فرغ من إيضاح رأيه أخذه الفوهرر من ذراعه في ود ، وقال له : « اضمن . . . فسوف أتصرف فور المستطاع » .

وطرأت تحولات جديدة على سير الحرب ، فتقدمت القوات الألمانية على الجبهة الروسية ، وسيطرت تماماً على البلقان . غير أن العلاقات السياسية والعسكرية بين حلفاء المحور بدأت تسوء ، وأصبح الألمان هم السادة ، والإيطاليون هم العبء الثقيل الذى يستحب التخلص منه ؛ ولم يحف كيسلرنج - خلال شهور الاستعداد لغزو مالطة - أنه لا يمكن أى ثقة بالقيادات الإيطالية ، إلى جانب أنه راح يسخر من تملل روميل طنباً لمزيد من العناد ، فبدأ فى نظره هو التكنيكى الهادى مجرد قائد يلهو ويمرح فى رمال الصحراء !

وقد نشبت بينه وبين المارشال الإيطالى (كافاليرو) كذلك عدة مشادات هدف من ورائها إلى انتزاع قيادة العملية من الجنرال أنطونيو جاندینی ؛ لكنى يعهد بها إلى الجنرال الألمانى (لوهر) ؛ كما أنه بعث بتقارير كثيرة إلى هتلر يطلب فيها منه أن يوقف ذلك الجواد الجامح الذى يدعى روميل .

وفى يوم ٢ من مارس بدا كأن الغزو يوشك أن يبدأ بعد ساعات ، عندما هاجم كيسلرنج مالطة بـ ١٠٨ طائرات ؛ وكانت الخطة الفنية المستخدمة هى نفسها التى استخدمت فى معركة بريطانيا ؛ فبعد الغارات الأولى على مالطة بدأت هجمات قاذفات القنابل من ارتفاع عال ، وذلك لإجبار المقاتلات البريطانية على الطيران فى الأجواء العليا . وعندما تصل الطائرات الإنجليزية إلى آخر مداها إذ بقاذفات قنابل ألمانية أخرى تجيء ؛ لكنى تضرب أهدافها من ارتفاع منخفض .

ولم يكن هتلر مقتنعاً بكل الافتناع بضرورة العملية ، فاستدعى جنرالاته فى شهر أبريل ، وأجرى معهم الحوار التالى ، الذى تركه كيسلرنج مسجلاً فى وثائقه الخاصة ، ونقطف منه الجزء التالى :

هتلر - إن جورنج يرى أن فى الإمكان أن يحدث فى مالطة ما حدث فى جزيرة (كريت) . وفكرة وقوع خسائر كبيرة فى جنود المظلات ليست محبة إلى نفسى على الإطلاق .

كيسلرنج - لا يمكن إجراء أى مقارنة بين الحمتين ؛ فحول مالطة حراسة من النيران لن تصمد سوى بضع ساعات وعليها أن نفتحمها بقوة كافية وفى أكبر عدد ممكن من النقاط .

روميل - لو أن الفتيق الأفريق استولى على طبرق فإن ذلك سوف يسهل الجملة إلى أقصى حد .

كيلرنج - اوافق على ذلك ، على أن يكون للهجوم أهداف محدودة . والحق على القول بأن الاستيلاء على مالطة شرط جوهري لاستمرار الحرب في البحر المتوسط

• • •

كان الفيلد مارشال كيلرنج على حق ، ولكن أحداث الحرب ، ونفاد الصبر الذي أبداه روميل وهتلر ، كان من شأنها أن رجحت كفة الهجوم البري . ولقد كان هتلر هو الذي ألغى عملية الهبوط في مالطة ، بهذه الرسالة التي بعث بها يوم ٢٣ من يونيو إلى موسوليني وجاء فيها : «إن القدر يا عزيزي الدوتشي قد أتاح لنا فرصة لن نتاح مرة أخرى على المسرح الحربي ! إن الجيش الثامن البريطاني من الناحية العملية يمكن اعتباره قد دمر : ذلك أن آفة الحظ في المعارك تقف إلى جانب المحاربين مرة واحدة . فإذا هم لم يعرفوا كيف يسكون بها في مثل هذه اللحظة فإنهم لن يتوصلوا إلى ذلك أبداً » .

وسرعان ما انضم المارشال الإيطالي (أوجو كافاليري) إلى هذا الرأي ، فقد ذهب إلى قيادة كيلرنج في درنه ليقول له : إن الاستيلاء على مالطة غير هام ، وإن من الأفضل أن يعمق الهجوم في شمالي أفريقيا ؛ وامتنع كيلرنج أشد الامتناع برغم أن انتصارات القليل الأفريقي قد تواترت . إلا أنه لم يستطع أن يوجه أى نقد إلى الأعمال التي يقوم بها روميل في إبان مجده . وبينما هو يزحف على (مرسى مطروح) في طريقه إلى الإسكندرية . أخذ تعاونه معه يصبح أكثر صعوبة يوماً بعد يوم ، كما أنه راح يتخلف عن الذهاب إلى لقاءه ، وامتنع عن إخطار قيادة الطيران بالمبادرات التي بنى اتخاذها ، فضلاً عن أن شيئاً ما ظل في نفسه عن ذلك الرجل ، لا يقنع به .

ولقد حان وقت النقد العلني بعد موقعة (العلمين) ، وبعد التحول الكبير في الحرب في مصر وفي ستالنجراد : ففي ذلك الوقت أصبح روميل لا يعتقد في النصر ، فهو لن يكون إستراتيجياً عظيماً كما يقول عنه كيلرنج ، ولكنه مجرد قائد ذكي .

وهنا كان مصير الحرب قد تحدد ، والشيء الوحيد الذي كان يمكن الجيش الألماني أن يفعله في رأي روميل الواقعي . إنما هو أن يخسر هذه الحرب في كرامة !

• • •

وعندما تراجعت القوات الإيطالية والألمانية أمام الضغط الإنجليزي . واستقرت في تونس . بعث روميل إلى القيادة العليا يقول : «إن البقاء في أفريقيا طويلاً يعتبر بالنسبة

للمجموعة جيوش المحور انتحاراً حقيقياً . . . ونظراً لخطورة الموقف فإنني أطلب أن يتخذ قرار سريع فيما يتعلق بالمعركة المقبلة في تونس» .

إن مثل هذه الصراحة والاستقلال في الرأي قد اعتبرها رجل مثل كيسلرنج أمراً غير مفهوم : ذلك أن مفهومه عن التسلسل الرئاسي مختلف ؛ كما أن فكرة أن يرى رأياً غير رأى هتلر أو القيادة العليا . . لا تحظر له على بال : ففي المعلومات التي كان يبعث بها إلى قائده وحاميه المارشال جورنيج كان يختلط الحقد وسوء النية بالنسبة لزميله روميل ؛ فقد كتب عنه يقول : «لست قادراً على أن أعرض بوضوح رأيي ، ويجب أن أعرض بوضوح رأيي ، وهو أن الفيلق الأفريقي لم يحارب بعد العلمين ، بالعزيمة نفسها التي كان يحارب بها من قبل . وقد كنت أود لو أن لي بعض قواته . . .

ولم يخف كيسلرنج ارتياحه عندما غادر روميل تونس يوم ٩ من مارس ١٩٤٣ ؛ فقد كان في أوج السعادة لتخلصه من غريمه ، فأصبحت له قيادة الفيلق الأفريقي الذي بدا كأنه لا يعرف الوضع المأساوي الذي هو فيه . وقد بلغت به الحال أن وعد القيادة العليا بعمليات خرافية ، وبمناورات يقوم بها ، من شأنها أن تنزل الهزيمة بالإنجليز أولاً ، ثم بعد ذلك بالأمريكيين الذين نزلوا في المغرب .

غير أن هؤلاء قد أعادوه إلى صوابه في عنف ، فوجهوا إليه هجوماً ضارباً في شهر أبريل التالي ، ولقنوا فرقة هرمان جورنيج المدرعة التابعة له درساً مريراً ، ثم أجبروه في شهر مايو على الجلاء عن ذلك الجزء الذي اعتبر باب أوروبا ، ومنذ تلك اللحظة حتى نهاية الحرب ، اضطر كيسلرنج أن يقتصر على أمر واحد ، هو تأخير الهزيمة ، وعرقلة تقدم جيوش الحلفاء التي نزلت في جزيرة صقلية .

* * *

وقد اجتمع كيسلرنج وروميل للمرة الأخيرة معاً عندما سقط نظام الحكم الفاشي في إيطاليا وقبولها للهدنة ، ثم ما رآته ألمانيا من ضرورة إعادة احتلالها ، ونزع سلاح ماتيق من جيوشها ، حتى الدبابات الإيطالية كانت في رأي كيسلرنج «خبة أمل» كاملة ، أما مارضى عنه فهي قطع المدفعية الأربعة التي تكدست في شمال إيطاليا .

وتوقف المهجوم يوم ١٨ من فبراير ، ثم عاد واستأنف يوم ٢٥ ، فاحترقت نتيجة لذلك احتياطات ثمينة . عند ذلك ثار غضب هتلر ، فبعث ببرقية إلى كيسلرنج يقول له فيها : «أريد

أن أرى وجه ذلك الشخص الذى أفسد جنود .

وقصد وفد من عشرين ضابطاً كبيراً يقودهم الجنرال (فستفال) ، ليقدم تقريراً إلى الفوهرر ، وظل ثلاث ساعات يعرض عليه الموقف العسكرى الصعب ، وحالة التسليح ، وعدم وجود الطيران . ومن الأمور الغريبة أن هتلر استمع إليه وتركه يتحدث . فلما انتهى التقرير أسر (كيتل) رئيس أركان حرب الجيش الألمانى إلى الجنرال (فستفال) قوله : « لو أن واحداً منا هو الذى قال له ما قلت . . . لأمر بشنقه ! » .

وكائناتاً ما كان الأمر فإن المعجزات ليست كثيرة في الحرب ، كما أن كيسلرنج لم يحقق أى واحدة منها إلا يوم ١٥ من مارس عندما استطاع « الشياطين الخضراء » التابعون لفرقة المظلات الأولى صد الهجوم الذى قام به الجنرال الأمريكى (كلارك) على مدينة (كاسينو) الإيطالية ، وحشد فيه ٣٥٠٠٠ رجل و ٤٠٠ دبابة . إلا أنه كان واضحاً أن تلك مجرد وقفة في الحرب ، وليست تغييراً جوهرياً في الموقف العسكرى .

وفي ربيع عام ١٩٤٤ زاد خطر رجال العصابات في إيطاليا ، مما بعث أكبر القلق لدى الجنرال (فولف) الحاكم العسكرى الألمانى الذى سارع بإنشاء قيادة خاصة لمكافحةها ، وجعل مقرها في مدينة (مونزا) ، وخصص لها أربع فرق كاملة بتولى قيادتها الجنرال (تسفيد) . ولم يكن كيسلرنج معجباً بحرب العصابات هذه ، واعتبرها واحدة من الحروب الصغرى ، وحاول التقليل من شأنها ووصفها بالأعمال الإجرامية . وقد كتب في مذكراته يقول : « إن أعضاء هذه العصابات مخربون يعملون ضد القوانين وضد الإنسانية ! إنهم جنائى يقودهم أشخاص مثلهم ، فيسرقون ويقتلون وينهبون ، كلما لاحت لهم الفرصة ، إنهم وصمة عار تتكون من خليط من الجنود الإيطاليين . . . الذين لا يتورعون عن ارتكاب أدنى الجرائم » .

• • •

٥٥

على أنه كان هناك وراء هذا الشعور بالاشمئزاز ، نوع متزايد من القلق ، عبر عنه كيسلرنج في تقارير أخرى ، جاء فيها : إن الجندى الألمانى الذى يحارب في إيطاليا يرى في كل مدنى - رجلاً كان أو امرأة - مخلوقاً يتهدد لقتله غدراً . . . ويتوقع أن تنطلق عليه من كل نافذة في كل بيت إيطالى رصاصة ترديه !

ولقد كان هناك سبب آخر يحمل رجلاً مثل كيسلرنج على القلق والانشغال ، هو حرصه على عدم التخلّى عن جزء ولو صغيراً من سلطاته بالتزول عن احتكار مكافحة الإرهاب الذى

يقوم به رجال العصابات الإيطاليون . . . الجنود العاصفة الألمان .

ومن أجل ذلك راح يرهق نفسه ؛ لكي يبرهن للقيادة العليا على أن مقاومة الثورة في أحد مسارح الحرب مثل إيطاليا أمر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسير الحرب ، ولابد لها من قيادة واحدة مسئولة عن كل منطقة النشاط العسكري . وهذه القيادة هي التي يتولاها ، والتي يجب أن يخضع لها كل من يعمل في مكافحة رجال العصابات بما فيهم الضباط الكبار في فرق العاصفة .

وقد أمكن التوصل إلى حل وسط في ذلك يقضى بأن الذين يقومون بالحملة على رجال العصابات هم جنود العاصفة بشرط أن يتلقوا الأوامر في ذلك من الفيلدمارشال كيسلرنج . ولما كانت هذه العمليات قد انتهت دائماً بالفشل ، فقد أطلق على كيسلرنج أنه « قائد الهزائم الرائعة » .

غير أن فشله هذا لم يحجب قدراته كفائد بعيد النظر لا يقيم وزناً للإجراءات الضخمة أو التضحيات الجسيمة ؛ كما انضج عندما بدأ الحلفاء ينفذون عملية (دياديم) في غزوهم لإيطاليا ، وهي العملية التي بدأت في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ١١ من مايو .

* * *

كانت خطة الحلفاء أن تنطلق قواتهم التي احتشدت جنوب روما ومعها ٢٤٠٠ مدفع من رأس جسر أقيم في مدينة (أنزيو) ؛ لكي تهاجم القوات الألمانية التي أخذت تتقهقهر منسحبة إلى الشمال ؛ لكي تقضى عليها قبل أن تصل إلى مدينة (كاسينو) ، وكانت قوات الحلفاء هذه مكونة من الجيش الأمريكي الخامس وملحقاته : أى قوات الدول الحليفة الصغرى ؛ وكما هي العادة فإن هذه القوات الأخيرة هي التي تدفع بها القيادة أول ما تدفع إلى المذبحة . وفي هذه المرة قام بهذا الدور المغاربة والبولنديون العاملون تحت إمرة الجنرال (أندرز) فور أن أصدر القائد العام الجنرال ألكسندر أمره بالهجوم يوم ٢٣ من مايو .

وسرعان ما تحطم خط (جوستاف) الذي احتمت وراءه القوات الألمانية . إلا أن كيسلرنج قد نجا من هذا الاقتحام نتيجة لقدرة قواته الفارقة على المناورة ، وكذلك نتيجة لخطأ ارتكبه الجنرال الأمريكي كلارك الذي لم يصدع لأوامر القائد العام الجنرال ألكسندر بالتقدم نحو مدينة (فالوتوني) ، واتجه بدلاً من ذلك مباشرة إلى روما تطلعاً منه إلى أن يرتبط اسمه بأول عاصمة معادية يدخلها الحلفاء .

ولقد دخل كلارك العاصمة الإيطالية ظاهراً يوم ٢ من يوليو ، غير أن الألمان استطاعوا مرة جديدة الإفلات من الحصار ، واتجهوا تبعاً للخطة التي وضعها كيسلرنج نحو الشمال ، حيث أقاموا خطاً دفاعياً جديداً يبعد ستائة كيلو متر ، عن الخط القديم الذي انهار . إن نقاشاً طويلاً قد دار حول سلوك كيسلرنج خلال هذا الانسحاب ، ويقول رجال العصابات والمدنيون الإيطاليون من ضحايا الإجراءات التي اتخذها : إنه كان مثل (عطيل !) . والواقع أنه إذا أخذنا بما كان يتبع في الحرب العالمية الثانية من ارتكاب للفظائع ، فإن سلوك كيسلرنج يبدو مما يعتبر مباحاً في أى حكم عسكري . ولو أنه أراد لكان ممكناً أن يكون أكثر وحشية وقسوة ، إلا أننا لا نعرف : هل اعتداله هذا راجع إلى طبيعته الحذرة ، أو إلى شعور بالرحمة كامن فيه ، أو إلى اتجاه انتهازى ؟ والحقيقة هي أنه ابتداء من ربيع عام ١٩٤٥ ، أخذ جميع القادة الألمان يفكرون في تكوين رصيد أدبى لهم لدى الحلفاء . وكانت الطريقة (الوحيدة) لذلك هي أن يعاملوا الشعب الإيطالي في رفق ، وأن يدخلوا في مفاوضات مع الشركات الصناعية الإيطالية التي تحولت ، لتصبح ممثل الحلفاء الذى يضعون فيه كل ثقتهم . . .

* * *

هذا هو السبب الذى جعل كيسلرنج لا يصر على تدمير المصانع الإيطالية ، ويتجنب تحويل المدن الإيطالية إلى ميادين معارك ، وراح ينتظر بدوره لخطة الهزيمة . وقد كتب المؤرخ الإيطالى (فاليانى) يقول : إنه لو كان نزول الحلفاء في جنوى فرنسا قد حدث في شهر سبتمبر ١٩٤٣ كما كان ينتظر ، ثم هوجم شمال إيطاليا على الفور ، لما تردد كيسلرنج في تدمير كل الصناعات الإيطالية . وربما كان ذلك محتملاً . . . إلا أن كلمة (لو) لا مكان لها في كتابة التاريخ .

إن كيسلرنج في نظر التاريخ - رجل طموح متعطش إلى السلطة ، لكن فيه نوعاً من التوازن . ولقد حدا به الحذر أن ينتظر حتى اليوم الأخير في الهزيمة قبل أن يسلم الجيش الذى يقوده إلى الحلفاء الذين تدفقوا على جميع أرجاء إيطاليا في شهر أبريل ، ولقد كان ذلك كافياً لإنقاذ حياته ، وليضمن له شيخوخة مطمئنة ومحترمة ، وفي هذا كانت آخر مناوئاته الناجحة .

الفصل الثاني والعشرون

فردريش فون باولوس

آخر المراحل : ستالنجراد

كان هناك جيش يقوده فون باولوس في روسيا ، هو الجيش الألماني السادس الذي اعتبر فناؤه نقطة التحول الحاسمة في الحرب العالمية الثانية .

وقصة هذا الجيش لم تبدأ عند مدينة ستالنجراد التي حوصرها ، وإنما تقرر مصيره في بقعة إلى ما وراء ذلك بكثير ، وهي بقعة تمتد إلى الغرب من هذه المدينة ، وعند ضفاف نهر صغير مجهول ، يقال له نهر (إكساي إيزاولوفسكي) :

في هذه البقعة بالذات فشل الهجوم الذي قام به الجنرال الألماني - (هوث) بجيش المدرعات التابع للواء (هونرسدورف) نتيجة للمقاومة الباسلة التي لقيها من جانب كتيبة حملة البنادق السوفيت رقم ١٣٧٨ التي تتبع اللواء العشرين من المدفعية المضادة للدبابات ، ومعها اللواء المدرع الخامس والخمسون . وكان يقودهما ضابطان برتبة كولونيل هما : (دياسامتر) و (أصلانوف) . . .

كانت المنطقة سهلاً منبسطةً مترامى الأطراف تتخلله فجوات عميقة تراكت فيها الثلوج في تلك الأيام القارسة البرودة في ديسمبر ١٩٤٢ ، وبسطت فوقها طبقة غليظة من الجليد كانت تنهار تحت وطأة القنابل المتساقطة عليها ، فلا تلبث أن ترتفع منها ألسنة النيران التي تمسك بالدبابات الألمانية المحتبسة فيها .

ولو كان الجنرال (هوث) هذا قد استطاع أن يعبر بمدرعاته تلك البقعة لاختلف مصير معركة ستالنجراد ، وربما مصير الحرب بأكملها ، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك نظراً إلى أن عناصر كثيرة وقفت ضده : من بينها مشاعر من الخوف والخيرة استولت في ذلك الوقت على بعض جنرالات هتلر .

ولقد وضع الفيلدمارشال فون مانشتاين الذى أثقّق عالمياً على اعتباره أنه أكبر عقلية في هيئة أركان الحرب الألمانية خطةً جسوراً لتخليص هذا الجيش تستند أساساً على عمليتين ، وقد عهد بالعمية الأولى التى أسماها (إعصار الشتاء) إلى الجنرال (هوث) الذى عليه أن يتقدم على رأس جيش المدرعات السابق ذكره ، فيزحف على ستالنجراد ، ويفتح لنفسه بين القوات المحاصرة فجوة تكفى مرور ثلاثة آلاف طن من المؤن والذخائر لازمة لقوات فون باولوس ، لكي يقوم بدوره بتنفيذ العملية الأخرى التى أطلق عليها اسم (دوى الرعد) عندما تلقى من مانشتاين الأمر بذلك .

وكان الهدف من هاتين العمليتين تمكين القوات المحاصرة من الخروج من المدينة . والانضمام إلى قوات الجنرال (هوث) .

وللمحصول على موافقة هتلر على هذه الخطة جعلوه يعتقد أن المقصود منها توصيل الإمدادات إلى الجيش السادس ؛ لكي يتمكن من الصمود داخل ستالنجراد . فإذا ما تمكن هذا الجيش من الانسحاب فإن الفوهرر سوف يستسلم للأمر الواقع ؛ كما فعل في مرات أخرى سابقة .

وفى يوم ١٢ من ديسمبر تقدمت مدرعات (هوث) بأمر من مانشتاين ، واندفعت إلى الأمام ، وهاجمت الوحدات السوفيتية وبددت شملها ، ثم أخذت ترحف في اتجاه ستالنجراد .

كانت تلك أياماً درامية فقد كانت المقاومة تقضى : إما أن يكسب الألمان كل شيء ، أو يخسروا كل شيء !

ولقى (هوث) في طريقه اعتراضات تزايد كثافتها باستمرار من جانب السوفيت ، فاضطر إلى التوقف ، ولكن بعد أن أصبح على بعد خمسين كيلو متر فقط من ستالنجراد . وهذه الكيلومترات الخمسون ليست بالنسبة لفون باولوس عقبة لا يمكن تخطيها . فما زالت لديه قوات وأسلحة كافية ؛ لكي يواجه مسألة الخروج من المدينة .

إنها الفرصة الأخيرة : فإما نجاة الجيش السادس من الحصار ، وإما أن يفنى على بكرة أبيه ! غير أن فون باولوس طلب من فون مانشتاين أن يبعث إليه عن طريق الممرقة الكاتبة التى تربطه بمدينة ستالنجراد بسلطات كاملة للهجوم ؛ لكن مثل هذا الطلب كان معناه جعل مانشتاين يسجل في وثيقة رسمية ، أنه خرج عن طاعة هتلر ، وكان ذلك حقاً أمراً كبيراً .

وهكذا رد عليه مانشتاين بأنه لا يستطيع أن يقدم إليه ما طلب ، وتركت المشكلة لقرار تصدره القيادة العليا ، وظل فون باولوس ينتظر ، والوقت يمر ، وهو عاجز عن اتخاذ قرار إلى أن اضطر مانشتاين أن يأمر الجنرال (هوث) بالانسحاب .

* * *

وهكذا فشلت الخطة التي ما كان يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا تمت في طي الكتمان ، وباتفاق سرى بين الجنرالات. وربما كان مانشتاين يطلب أكثر مما يجب من الرجل - أى فون باولوس - الذى قال عنه الجنرال هايم فى تقريره السرى كضابط ما يلى : «يعمل فى بطء وحذر ، ولكن مع ميل إلى التأمل العميق والطويل فى أى قرار قبل أن يصدر بشأنه الأوامر اللازمة . والخلاصة : أنه لا يقرر فى تسرع» .

إن الأسطورة التى تحيط به تنسب إليه أنه يحمل أحد الألقاب النبيلة . وهو ما يفسر كلمة (فون) التى تسبق اسمه ، ولكن الحقيقة هى أن فردريش باولوس ما كان يستطيع الادعاء بأنه ينحدر من أصل أرستقراطى : ذلك أن أباه إرنست كان يعمل كاتباً فى أحد المعاهد ، على حين كانت والدته (مارتا نتليك) وهى سيدة فى غاية الجمال ، ابنة مدير ذلك المعهد نفسه . وبفضل الترقية التى حصل عليها عليها عشية استسلام ستالنجراد ، فإن فون باولوس سوف يصبح ذات يوم - هو وروميل - أصغر ضابط عظيم ؛ إذ كان فى الثانية والخمسين يحمل رتبة فيلدمارشال . غير أن وجهه الشبه بينه وبين روميل تتوقف عند هذا الحد : فلقد ولد فى شهر سبتمبر ١٨٩٠ فى (بريتناو جرساج) وأتم دراسته الثانوية فى (كامبل) ، ثم تقدم مباشرة للالتحاق بالبحرية التى رفضت طلبه : ذلك أن البحرية سلاح تقليدى مترمت يلتزم بقواعد صارمة فى اختيار كوادره .

وعند ذلك أبلغ فون باولوس والديه أنه يريد أن يصبح محامياً ، فالتحق بالفعل فى عام ١٩٠٩ بكلية الحقوق بجامعة (ماربورج) إلا أنه ما كاد يقضى فيها ستة أشهر حتى وجد نفسه مدفوعاً إلى الجيش ، حيث التحق بكلية إعداد ضباط المدفعية التى تخرج منها فى العام التالى برتبة ملازم .

* * *

وقد تميز فون باولوس بطول القامة ورشاقتها ، مما جعله موضع إعجاب النساء . فأطلق عليه زملاؤه اسم «الضابط ذو السكس إيبيل» . وفى خلال إجازة قضائها فى (الغابة السوداء)

التقى هو وفاته تدعى هيلينا كونستانس ، فتزوجها في عام ١٩١١ ، وأنجب من هذا الزواج ثلاثة أبناء : فتاة أسمها (أولجا) ، وتوأمين هما (فردريش) و (إرنست) اللذين كانا ضابطين برتبة ملازم في الحرب العالمية الثانية . وقد قتل أحدهما وهو فردريش - بينما كان يحارب في إيطاليا ، وكان أبوه عند ذلك قد وقع في الأسر .

وحتى زوجته (هيلينا) توفيت بينما كان أسيراً في ٩ من نوفمبر ١٩٤٩ ، بعد سبع سنوات من معركة ستالنجراد بغير أن تراه مرة أخرى ، حتى عندما نقنه الروس سراً من موسكو إلى (نورمبرج) للإدلاء بشهادته ضد القادة النازيين .

ولقد ذهب فون باولوس إلى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، في العام الذي رزق فيه بابنته (أولجا) . وقد استرعى الأنظار إليه في أواخر هذه الحرب ، عندما رقى إلى رتبة ملازم عام ١٩١٨ ، وحصل على وسامين لشجاعته في موقعة على الجبهة الفرنسية ، لكن ألمانيا بدأت عند ذلك تترنح ، وإذا بالحرب تسير نحو طريقها الطبيعي . إلا أن فون باولوس لم يهجر الجيش ، فقد اختير من بين الأربعة آلاف من الضباط الذين سمحت معاهدة (فرساي) بأن يحتفظوا برتبهم وبذلاتهم العسكرية .

ولقد كان ذلك هو الخطأ الذي وقع فيه الحلفاء المنتصرون ، لأن هذه المجموعة من الضباط بالذات - وجميعهم مترمنون وتملؤهم الرغبة في الثأر - هم الذين نشأ على أكتافهم الجيش الألماني الجديد الذي سوف يضع نفسه ذات يوم في خدمة أدولف هتلر .

• • •

لم يكن هناك أي شيء في تلك الأعوام يوحى بحدوث ذلك الانقلاب المثير في الأفكار لدى فون باولوس خلال فترة الأسر .

في عام ١٩٢٠ انضم إلى انقلاب (كاب) الرجعي ، وفي عام ١٩٢٢ دخل هيئة الأركان العامة المركز العصبي للجيش ، وفي العام التالي أرسل إلى كاسل وشتونجارد ، وفي عام ١٩٣١ نقل إلى برلين ، وعمل في وزارة الحرية مدرساً للتكتيك وتاريخ الحرب . وكان معنى ذلك أن عدداً كبيراً من ضباط الجيش الألماني يمرون من بين يديه .

لقد طرأ تحول ضخم الآن على حياته العملية : فقد انتقل من بطولات الحرب العالمية الأولى لكي يجلس وراء المكاتب . فإلى جانب الإستراتيجية ، نراه يتخصص في أساليب الإمدادات ، وأصبح خلال وقت قصير أحد ضباط أركان الحرب الممتازين قادراً على التفكير

العقل أكثر منه على الحركة ، ولما كان رجلاً ميالاً إلى الصمت ومنضبطاً ، كان يعتقد أنه لا يستطيع قبول رئيس مثل هتلر ، بمذاقه الغوغائى ، وسلوكه المسرحى وخطاباته المستيرية . إلا أنه ارتبط به ، وإن لم يعلن عن ذلك ، ربما بتحفظ الجندى العقلى إزاء الرؤساء السياسيين ، ولكن من غير المحتمل ألا يكون فون باولوس قد تأثر بالوبرقة التى كان هتلر يقطعها على نفسه فى المبادئ العامة ، بقيام ألمانيا العظمى .

وفى عام ١٩٣٤ أصبح جنرالاً ، فلما كان عام ١٩٣٥ إذا بنا نراه رئيساً لأركان حرب القوات الميكانيكية ، وهى أحد مراكز العمليات الحساسة . وهنا أخذت شهرته كمنظم عبقرى تتسع حتى إذا اندلعت الحرب العالمية الثانية أخذه فون رايشناو معه فى البداية رئيساً لأركان حرب الجيش العاشر الذى عمل فى بولندا عام ١٩٣٩ ، ثم بعد ذلك بعام رئيساً لأركان الجيش السادس العامل فى الميدان الغربى .

وكانت العمليتان السياسية والجغرافية اللتان قام بهما هتلر فى أوروبا ، تحملاً لتوقيع فون باولوس ، إلى جانب غيره من التوقعات .

* * *

إن من النادر أن نرى فى تاريخ الجيوش مثل هذا الاختلاف فى الطباع ، الذى وضع فى الجيش الألمانى ، فلقد كان رايشناو رجلاً سريع الغضب ، فيه حيوية تفوق كل تصور . أما فون باولوس فكان هادئ الأعصاب ، يستطيع الجلوس طويلاً ، دقيقاً ، يحيا فى خيمة للتفكير بين المبرقات الكاتبة وأجهزة التليفون والخرائط ، وكله استعداد عند اللزوم ، لكى يمضى الليالى على مكتبه ، لكى يضى على خطط المعارك طابعاً هندسياً كاملاً ، لا يترك أى شىء للصدف ، وتقوم حساباته على توقع كل شىء .

وعندما أرسلوه فى مهمة للتفتيش فى شمالى أفريقيا عاد وكله اشمئزاز من الأعمال الارتجالية التى تميز بها (روميل) ، بل إنه ألح إلى ضرورة أن يستبدل به قائد آخر .

وقد اختاره الجنرال (هالدر) فى أواخر صيف ١٩٤٠ ، ليعمل معه ، ثم دعاه إلى قيادة هتلر العامة فى (زوسين) ، ليعهد إليه بوضع خطة الهجوم على روسيا ، وهى الخطة التى أطلق عليها اسم «عملية ذى اللحية الحمراء» .

ومرة أخرى انكب فون باولوس على الخرائط ، وراح يحدد المسافات ، ويحسب المنحنىات ، ويقدر قوى الصدام ، واحتياجات تموين الجيوش ، وكل ما يمكن أن تتطلبه

أكبر عملية هجوم يقوم بها الجيش الألماني .

ولقد سأله قضاة محكمة (نورمبرج) ذات يوم : هل كان يرى أن الهجوم الذي وقع على روسيا عمل عدواني ؟ فقال : « كان رأيي أنا وغيري خلال الوضع الذي كان قائماً وقتئذ - بوصفي جندياً - أن أقوم بواجبي كاملاً لوطني ! » .

وهنا اعترض أحد القضاة بقوله : « برغم معرفتك للحقائق ؟ » فأجاب : « إنني لم أدرك إلا متأخراً الطابع الإجرامي في ذلك العدوان عندما أصبح لدى الوقت للتأمل ، والربط بين المقدمات والنتائج ، ولكن في ذلك الوقت لم أكن أعرف سوى بعض الحقيقة » .

• • •

وقد وجهوا إلى فون باولوس سؤالاً آخر : ألم يكن قد فطن إلى العيوب الأساسية في عملية « ذو اللحية الحمراء » وأنه نتيجة لفشل هذه العملية ، سوف يبدأ الانحدار بالنسبة لألمانيا ؟ غير أنه رد بأنه لم يكن هناك شيء جعله يفطن إلى ذلك . حتى مذكراته قد التزم فيها الصمت إزاء هذا الموضوع .

والواقع أن الحظوة التي وقعها على الخرائط جاءت كما هي العادة غاية في الكمال . غير أنها لم تأخذ في الاعتبار - بما فيه الكفاية - رد الفعل لدى الروس .

وهكذا فإن الجيش الألماني - بعد أن دمر جيوشاً كاملة ، واحتل كل روسيا البيضاء ، ودول البلطيق ، وثلاثة أرباع مخازن القمح الأوكرانية - إذا به يتوقف فجأة حيث لم يتصور أحد : أي أمام موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي .

وكان هذا هو أول خطأ تقع فيه أداة العدوان هتلري ، أما الخطأ القاتل (الثاني) فيسمى ستالينجراد . وحتى هذا فإنه اقترن باسم فون باولوس .

على أنه كان لا يزال هناك أمر واحد ينقص هذا الرجل ، لكي يصعد إلى قمة المجد العسكري الألماني ، وهو أن يتولى قيادة جيش في الميدان . ومع ذلك فإنه عندما مرض فون رايشنآو ، وأصبح غير قادر على مباشرة قيادة مجموعة جيوش الجنوب والجيش السادس ، ويقترح أن يتولى فون باولوس قيادة هذا الجيش ، فإنه وافق على الفور .

وجاءه أمر التعيين يوم ٥ من يناير ١٩٤٢ قبل بضعة أيام من وفاة فون رايشنآو ، وربما لم يدرك أحد في البداية أهمية المهمة التي عهد بها إلى فون باولوس ، والأهداف الرئيسة للجهاز الحربي الهتلري ، نظراً إلى أن كلاً من موسكو ولستنجراد في الشمال .

ولكن فون باولوس تلقى في شهر أغسطس أمراً بالزحف على نهر الفولجا واحتلال ستالنجراد في الوقت الذي انطلقت فيه مجموعة أخرى من الجيوش في الطرف الجنوبي ، لكي تصل إلى القوقاز ومنابع البترول السوفيتية .

وبدأ الهجوم على روسيا يوم ١٩ من أغسطس ، واندفعت القوات الألمانية كالسهام عبر الأراضي السوفيتية .

واجتازت طلائع سريعة نهر الدون ، وفي يوم ٢٣ وصل طابور ألماني مدرع إلى نهر الفولجا ، وفي يوم ١٣ من سبتمبر دخل الجيش السادس ستالنجراد محتلاً المدينة بأسرها تقريباً . وهنا أعلن هتلر على العالم أن الروس قد انتهوا ، ودالت دولتهم !

* * *

لكن الفوهرر لم يدخل في اعتباره قدرة رد الفعل لدى العدو ، والواقع أن الروس قد دفعوا إلى أتون الحرب بقوات جديدة في شهر نوفمبر التالي قدر عددها بمليون ونصف مليون رجل . اقتحموا الجزء الشمالى الغربى من ستالنجراد في القطاع الذى تحتله قوات من رومانيا ، والجزء الجنوبى عند الجهة الألمانية .

وهكذا وقع الجيش السادس في الحصار ، وانغلقت عليه ثغرة هائلة الحجم ، ولو أنه كان لا يزال هناك ستار ضعيف من القوات تقف إلى الخلف ، وليس من المستحيل اقتحامه . إن رجلاً في مثل ثقافة فون باولوس واستعداده العسكرى ، لا بد أن يكون قد أدرك أن الأمر الوحيد الممكن لإنقاذ جيشه هو الانسحاب السريع ، أو بمعنى آخر التراجع سريعاً إلى الوراء ، غير أنه في هذا الوقت بالذات بدا واضحاً تماماً الفارق بين ضابط متمرس بمجرد رسم العمليات في مكتبه على الخرائط ، وبين آخر قادر على اتخاذ القرارات الفورية في ميدان المعركة .

ولقد كان فون باولوس من السذاجة مما جعله يطلب الإذن يوم ٢٢ من نوفمبر من هتلر قبل أن ينسحب : ذلك أن الرد الذى جاءه كان سلبياً ، ويتضمن الأمر بالأمر بإعادر الجيش السادس نهر الفولجا ، وأن عليه أن يتغلق على نفسه داخل دائرة ، انتظاراً إلى أن يتم فك هذا الحصار من الخارج في الربيع القادم .

ولو أن الشخصية التي تتولى القيادة هنا كانت أكثر ثباتاً من فون باولوس ما أطاع صاحبها هذا الأمر ، لكن تصرفاً من هذا القبيل يمليه الدافع الداخلى الغريزى يتعارض صراحة

وشخصية فون باولوس الذى صدع للأمر ، فحكم بذلك على جيش يضم ٢٤٠٠٠٠ جندى بالفناء !

ولاحث له فرصة أخرى في شهر ديسمبر للخروج من الحصار . إلا أنه بدلاً من أن ينهزها راح يطلب من فون مانشتاين أمراً « مكتوباً » كان من المستحيل على هذا الأخير أن يرسله إليه . ولقد كان الاستسلام عند هذه النقطة هو الحل الوحيد الذى يمكن به إنقاذ حياة عشرات الآلاف . إلا أن فون باولوس تهادى في عناده . وقرر المضي إلى النهاية في المقاومة ، وهو يردد كلمات الولاء لهتلر ، وهى كلمات من المؤكد كان ذكاؤه يأبى الاقتناع بها . ولكنه كان لا يزال يذكر ما قاله له هتلر في الرسالة التى رقاها بها إلى رتبة فيلدمارشال : « ليس هناك ضابط يحمل هذه الرتبة . . . قد استسلم في الجيش الألماني ! » .

وربما كان الفوهرر يحث بذلك فون باولوس على الانتحار ، غير أن هذا انتهى به الأمر أخيراً إلى الاستسلام يوم ٣١ يناير ١٩٤٣ ، فضمن بذلك بقاءه على قيد الحياة . . . ولكن ليس بقاء جنوده الذين تكدست جثثهم في العراء تحت حطام تلك المدينة على نهر القولجا !

* * *

وحتى فترة أسرفون باولوس كانت بدورها موضعاً للتناقضات تماماً كالأعوام التى تولى فيها القيادة : فقد أنشأ عددٌ من ضباط الجيش السادس في الأسر ما أسموه (الاتحاد الديمقراطي للضباط الألمان) الذى دخل في إطار اللجنة الوطنية لألمانيا الحرة التى أسسها بعض المنشقين الشيوعيين .

فقد دعوا فون باولوس للانضمام إليه ، ولكنه لم يقبل إلا في شهر أغسطس ١٩٤٤ عندما بلغه نبأ إعدام اثنين من الضباط الألمان العظام ، هما الفيلدمارشال (فيتزلين) والجنرال (هوبنر) لانتهاهما في مؤامرة اغتيال هتلر . وقد أعلن انضمامه إلى «اتحاد الضباط الألمان» يوم ٨ من أغسطس مع نداء وجهه ضد الفوهرر يدعو فيه إلى السلام .

وبعد أن عاش حياة بدخ في (داتشيا) وضعها الروم تحت تصرفه خارج موسكو ، عاد إلى ألمانيا عام ١٩٥٣ . ليستقر في مدينة (درزدن) في المنطقة الشرقية ، ولم يعد أسيراً إلا لما يعتريه من حيرة وقلق .

وبينما كان ابنه (إرنست) يتحدث إليه في رسائله عن انتقاله إلى ألمانيا الغربية بعث يسأله : « وهل تضمن لى . . . أنهم لن يعتقلوني ، أو يقدموني إلى المحاكمة ؟ »



المارشال الألماني فون بارلوس
خلال انسحابه مع الجيش
الخامس من روسيا



بدأت عملية (ذو اللحية
الحمراء) يوم ٢٢ يونيو ١٩٤١
بأكبر هجوم عرفه التاريخ. وقد
اكتسحت قوات الرايخ الروس
وأُسرت معهم مئات الألوف
وتقدم الألمان بدباباتهم مظفرين
على جبهة طولها ٣٢٠٠ كيلومتر
وهنا نبدو دبابات فون كليست
أثناء تقدمها

وعهد إليه السوفيت بمنصب فخرى ، ولكنه لم يسجل اسمه قط في حزب الشيوعي . وقد
توفي يوم الأول من فبراير ١٩٥٧ . نتيجة إصابته بمرض خبيث شل حركته تدريجاً ، وهو في
السادسة والستين . . . في يوم الذكرى الرابعة عشرة لسقوط ستالينجراد .
ولقد وجدت في مذكراته العبارة التالية : « لو أنني انسحبت من ستالينجراد وتركته دون
مقاومة لقال الشعب الألماني علي : إني مسئول عن هزيمتنا في الحرب ، ولقامت بذلك أسطورة
« خيانة ستالينجراد » . وما وعى الألمان الدرس التاريخي من هذه الحرب ! .
غير أن هذه العبارة جاءت متأخرة أكثر مما يجب ، ولذلك فإنها لم تقع أحد .

الفصل الثالث والعشرون

إرفن روميل

أسطورة الصحراء

إن الأسس التي قام عليها تاريخ روميل الحافل . قد وضعت في أفريقيا بين عامي ١٩٤١ . ١٩٤٢ . فلقد أحرز هناك بقوات قليلة العدد ، انتصارات سريعة دوخت الحلفاء ؛ حتى لو لم تكن انتصارات نهائية .

وقد أسهم تشرشل في جعله « أسطورة » تداعب الخيال عندما قال في مجلس العموم البريطاني : « إن أمامنا خصماً جسوراً حاذقاً لا قبل لنا به ، ولا أجد حرجاً من القول بأنه قائد عظيم . . . برغم مذابح الحرب ! »

وعند ذلك لم تضع أجهزة الدعاية التي يشرف عليها (جوبلز) هذه الفرصة ، فراحت تكيل المديح والثناء لروميل الذي كان يتقبل بارتياح كل ما يكتب عنه .

ولما لم يكن من طبقة العسكريين الأرستقراطيين ؛ وإنما ينتمي إلى أسرة متواضعة ، كان من اليسير وضعه في مواجهة الجزالات التقليديين ، وأن يجعلوا منه بطلاً شعبياً ونازياً مغرماً في نازيته ؛ حتى لو لم يكن كذلك .

والواقع أن روميل برغم أنه لم يوافق على بعض الأوامر التي تقع تحت طائلة القانون ، كان رجلاً بالغ الإخلاص لهتلر ، وكان يمكن أن يظل على هذا الإخلاص لو أن مصير الحرب كان في مصلحة ألمانيا .

فهو لم يغير مشاعره إلا عندما أدرك أن هتلر قد وطد العزم على أن يسوق بلاده في طريق الضياع الذي كان مقدراً لشخصه . وكانت هذه هي الشعبية التي اكتسبها روميل ، والتي جعلت القائمين بمؤامرة يوليو يتصلون به في آخر لحظة ، ويدعونه للانضمام إليهم إيماناً منهم بأن مجرد ذكر اسمه كفيل بأن يجتذب موافقة الجماهير الألمانية .

وكانت هذه الشعبية نفسها هي التي حملت هتلر عندما اكتشفت المؤامرة - وكان ينتظر أن يحكم عليه بالإعدام - هي التي شفعت له ، وجعلته يعامله في رفق .

ومعروف أن روميل لم تكن نهايته أن سلم للجلاذ ، كما حدث للمنامرين الآخرين ، كما أن أسرته لم تتعرض للاضطهاد ، وإنما سمح له بأن يتعاطى سماً ، ثم تنسب وفاته إلى جراح أصيب بها في الحرب !

وقد أقيمت له جنازة ضخمة على حساب الدولة ، وظلت أرملته تتلقى حتى عام ١٩٤٥ دعوة رسمية لحضور احتفال سنوي يقام في ذكره . وهكذا لم يساور أحداً أي شك في أن هذا الذي يحدث مسرحية متعمدة .

وترجع أول أنباء عن الحقيقة إلى يوم ٢٧ من أبريل ١٩٤٥ على إثر تصريح أدلى به ابنه الأصغر (مانفريد) الذي كان والده قد أحاطه علماً بكل شيء قبل أن يقتل نفسه . وليس من شأن هذه النهاية الفريدة إلا أن تزيد من الشهرة التي تدعمت بين أولئك الذين حاربوا تحت إمرة روميل ، حتى بين أعدائه في الحرب : ذلك أن الإنجليز بصفة خاصة الذين تغلبوا في نهاية المطاف عليه يبههم أن يضخموا من صورته لكي تكبر من ثم صورتهم ! . على أن الكتب التي صدرت عن روميل ابتداء من الباحثين والدارسين الجادين إلى الكتاب الساخرين لا تعد ولا تحصى . وهكذا تكونت أسطورة تدعى (روميل) تمثله للعالم رجلاً بالغ الشجاعة ، لا يشعر بالتعب أبداً ، دائماً على رأس قواته الزاحفة ، يحبه جنوده إلى حد العبادة ويحشاه أعداؤه ويعجبون به ! فهو المحارب ذو التقاليد التي وضعها (إسبرطة) وهو النبيل الذي يحتقر النازيين فيما عدا هتلر ، لأنه يشعر نحوه بشيء من الضعف ، قابل للزوال ! هذه الصورة الأخلاقية قد أصبحت شعبية ، كصورته الأخرى في قصته في الصحراء التي رسمته قائداً ذا عيني زرقاوين ، وابتسامة باردة ، ووجه صارم ولكنه جميل ، وسترة جلدية فضفاضة ، ووشاح أصفر اللون حول عنقه ، وغطاء رأس تملؤه نظارات الميدان . ولكنه في الساعات الحرجة يظهر بين رجاله في قلب الرمال ، وقد ارتدى ثوب الاستعراض والصليب الحديدي على صدره !

إن من الصعوبة بمكان الكتابة عن روميل منفصلاً عن الأماكن المعروفة التي حارب فيها ، وذلك لما أضفاه عليها من صفات عسكرية رفيعة ، بل إن هذه الصفات سوف تلقى في

المستقبل مزيداً من التقدير كلما تكشف أمور جديدة من حرب الصحراء .
والواقع أن ما كشف عنه البريطانيون مؤخراً من أنهم كانوا يستخدمون جهازاً سرياً أتاح
لهم أن يلتقطوا كل رسائل روميل وحل رموزها فكانوا يعرفون عن طريقها مسبقاً جميع
تحركاته ، والقوات المحدودة التي تعمل تحت قيادته - يجعل الفضل الذي حاق بقوات الحلفاء
عدة مرات أمام القوات الألمانية أمراً لا يغتفر !

• • •

ومع ذلك فإن كل هذا المديح يجب ألا ينسبنا أن هناك بعض الأصوات التي ارتفعت في
الماضي ، والتي لا تقر في روميل كل هذه الصفات . وفي مقدمة أصحاب هذه الأصوات ،
الجنرالات الألمان التقليديون الذين يكن لهم روميل العداء ، ويعبر عن احتقاره لهم إذ يسميهم
« جنرالات المكاتب » .

على أن من بين هؤلاء بعض العقول العسكرية الكبيرة ، مثل « هالدر » الذي لم يتردد في
كيل المديح لروميل خلال بعض الهجمات الخطيرة التي قادها . . . لقد اعترفوا له ببراعة
التكتيك ، ولكنهم أخذوا عليه انعدام الرؤية الإستراتيجية ، وقلة اعتماده على فنون
الإمدادات .

وربما لم يكن الأمر صداماً بين مفاهيم متعارضة ، وإنما تطلع الجنرالات المحيطين بهتلى إلى
الجهة الروسية ، وهو ما جعلهم يرون في أفريقيا مجرد قطاع ثانوي لا يستدعي سوى الحيلولة
دون انهيار الإيطاليين فيه . ثم كانت هناك انتقادات رؤساء روميل الشكليين (أمثال الجنرالات
جاريبولدي وباستيكو وكافالليرو) ، وبعض الرؤساء المساعدين مثل (جامبارا) الذين
استشعروا أن روميل يتخطاهم ، بل كان يحتقرهم ويسخر منهم ،

فلقد كان هؤلاء الجنرالات الإيطاليون يكرهون عادة في روميل هي التي تجعله يحارب دائماً
على رأس قواته ، إذ لم يكن في ذلك مجرد مثال خطير بالنسبة لهم ، وإنما كانت هذه العادة
سبباً يجعلهم لا يقفون له على أثر عندما يتطلب الأمر اتخاذ قرارات هامة .

وفضلاً عن ذلك كان يؤلم القواد الإيطاليين ما كان يوجهه إليهم روميل من لوم من أجل
عدم كفاية العناد الذي يقدمونه لقواته الزاحفة ، وقد وجدت هذه الانتقادات حليفاً في
(كيسلرنج) خصم روميل اللدود الذي كان دائم الذم فيه لما كان يعلنه في البداية من تفاؤل ،
ثم بعد ذلك من أجل تشاؤمه خلال المرحلة الأخيرة من معارك أفريقيا ، وهو التشاؤم الذي

رأى كيسلرنج أنه ليس له ما يبرره .

ولا شك أن وراء روح العداء لروميل لدى الجنرالات الإيطاليين الحسد الذى يكونه له .
غير أنه لا يمكن القول بأن كل انتقاداتهم له يتعين رفضها جملة وتفصيلاً .

ويتعين لكى نرسم صورة واقعية لثعلب الصحراء أن ندرس بعض الفصول من الحرب
الأفريقية التى قيلت فيها أحكام متعمقة استناداً على نقد خصوم روميل ، وفى الوقت نفسه على
ملاحظات موضوعية مأخوذة من محللين يقدرونه تماماً

ولنأخذ أول نصر أفريقى يحققه فى أبريل ١٩٤١ : وهو استعادة (برقة) ، حيث قضت
قوات الجنرالين البريطانيين (ويفل) و (أوكونر) قبل ذلك بشهرين اثنين على جيش
(جراتزبانى) الإيطالى .

كانت اندفاعا البريطانيين قد توقفت عند أبواب (طرابلس) بقرار من تشرشل الذى
اقتضته ظروف الحرب فى البلقان أن يسحب بعض القوات من أفريقيا ليعث بها إلى اليونان .
وهكذا جاء شهر مارس من ذلك العام ولا شىء قد بقى من «قوات الصحراء الغربية» القديمة
التي انتصرت على الإيطاليين .

فلقد جمع البريطانيون تحت قيادة الجنرال (نيم) - وهو قائد جديد على الصحراء -
فرتين اثنتين هما الفرقة الأولى مدرعات والفرقة الأسترالية التاسعة مشاة . إلا أن هذه الفرقة
الأخيرة التى يقودها الجنرال (جامبير بارى) لم تكن مزودة بسوى بضع عشرات من الدبابات
الخفيفة ، وبعض دبابات (م١٣) كانت قد استولت عليها من القوات الإيطالية المهزومة
وكذلك الفرقة الأسترالية التاسعة ، فإنها لم تكن بقيادة الجنرال (مورشيد) أفضل حالاً ؛ فقد
سحب لواءان من ألويها الثلاثة وأرسل إلى اليونان ، وحل محلها لواءان أقل تدريباً .
والأكثر من ذلك أن قلة الوسائل الميكانيكية اضطرت لواءين أستراليين إلى عدم الابتعاد
عن ميناء بنغازى ، على حين رابط اللواء الثالث فى طريق .

والواقع أن الجنرال (ويفل) الذى كان منهمكاً أشد الانهماك فى اليونان ، وفى أفريقيا
الشرقية والعراق ، حيث كانت تطل بوادر الثورة ، قد خفض كثيراً من استعداداته العسكرية
فى (برقة) ؛ إذ كانت حساباته تقوم على أن التهديد الألمانى لن يصبح شيئاً ملموساً إلا فى
منتصف شهر مايو .

ولم يكن كل الخطأ في هذا التقدير يقع على كاهله ، لأن هيئة الأركان الألمانية أمرت (روميل) ألا يتحرك قبل أن يتم تعزيز الفرقة (الوحيدة) التي يقودها ، وهي الفرقة الخامسة الخفيفة بالفرقة الخامسة عشرة مدرعات ، كان يتوقع أن ينتهى نقلها إلى ليبيا في شهر مايو . غير أنه لا برلين ولا القيادة البريطانية في القاهرة قد أدخلتا في حسابها مزاج روميل الذى جعله لا ينتظر حتى ذلك الميعاد .

كان (روميل) قد هبط في طرابلس في جو من الهزيمة يوم ١٤ من فبراير ، فعمد على الفور إلى دفع وحدات صغيرة إلى الأمام ، لكى يحبس نبض الجهاز العسكرى البريطانى ، فافتتح بضغفه . وهكذا نراه يغزو بسهولة يوم ١٤ من مارس موقعاً متقدماً في (العقيلة) ومن ثم يقرر ألا يتوقف ، ولم يكن لدى الألمان غير فرقة واحدة هي كما قلنا الفرقة الخامسة الخفيفة ، ومعها مجموعة استطلاع ، وكتيبتان من حملة المدافع الرشاشة المحمولة ، وفصيلتان مضادتان للدبابات ، وبعض المدافع ، و ١٣٠ دبابة نصفها خفيفة ، ثم اللواء الخامس مدرعات . وجاء الإيطاليون من جانبهم فضلاً عن بعض وحدات مشاتهم الإستاتيكية ، بفرقة (آريست) المدرعة اسما فقط ، وباللواء الثانى والثلاثين المزود بعربات حمولة ثلاثة أطنان ، وباللواء ١٣٢ مدفعية الذى ترجع قطعه إلى حرب ١٤ - ١٩١٨ . ثم اللواء الثامن من جنود الهجوم ، وفصيلة من راكبي الدراجات البخارية ، وأخيراً الفصيلة السابقة مدرعات المزودة بدبابات (١٣م) يقودها جنود غير مدربين .

وفيما بين يومى ٣١ مارس و ٢ من أبريل اقتحمت الفرقة الألمانية الخامسة الحصار المضروب على (مرسى البريقة) ، ففر أمامها جزء من الفرقة البريطانية الثانية مدرعات . وفى يوم ٣ من أبريل دخل روميل (أجدابية) حيث أبلغته قوات الاستطلاع الجوى وجود تحركات معادية خلفية في أماكن كثيرة من (برقة) ، فانتشر روميل هذه الفرصة مقتنعاً - كما روى هو بعد ذلك - بأن «السرعة وحدها هي كل شيء» .

وبغير أن يعبأ بالأوامر التى أصدرها القائد الإيطالى (جاريبولدى) بضرورة التزام الحذر والوقوف ساكناً في مكانه ، قسم روميل قواته القليلة ثلاث مجموعات طوابير ، وأطلقها على شكل (مروحة) في قلب (برقة) وحاول أن يحدو حذو المناورة التى قام بها البريطانيون في شهر

فبراير عندما قصفوا على القوات الإيطالية ، وهي أن يتجاوز طوابير العدو المتخلفة على طول الساحل الليبي ، لكن قواته لم يصل منها إلى (بنغازي) سوى الطابور الذي كان ناحية اليسار ، أما الطابوران الآخران اللذان تجرّأ إلى مجموعات صغيرة فقد ظلّا يضربان في الصحراء للانضمام بعضهما إلى بعض في (مخيلي) .

ومن هناك يتم بعد ذلك قطع طريق انسحاب العدو ، بقفزة إلى (درة) أو إلى (تميمي) التي على خليج (مجة) على بعد ثمانين كيلو متر من درة .

ونعرض الآن الاتجاهات العامة ، وتكوين الطوابير الألمانية والإيطالية والمختلطة . ومن المهم هنا أن نأخذ المناورة في مجموعها وعلاقتها بالتحركات المعادية التي وقعت في الوقت نفسه : فلقد احتلت المجموعة الاستطلاعية الألمانية بنغازي ليلتي ٣ ، ٤ من أبريل ، فأمرت القيادة البريطانية قواتها بالانسحاب على طول الطرق الجبلية ، وهذه القوات هي اللواء المتقدمان من الفرقة الأسترالية التاسعة . وإلى جانب ذلك ، حاولت إحباط التهديد الذي تتعرض له : بأن أرسلت إلى (مخيلي) ما تبقى من الفرقة الثانية مدرعات .

غير أن دبابات الجزال (جامبير باري) تبذرت كلها على طول الطريق ، وذلك للعطب الذي أصاب بعضها ، أو لنقص الوقود نتيجة لاحتراق المخزون منه في (موسم) . والواقع أن قيادة الفرقة الثانية مدرعات هي وحدها التي لحقت بالقوات في (مخيلي) التي وصلت إليها كذلك قوات لواء الفرسان الثالث الهندي التي وصلت لتوها من مصر .

وكان هذا التحرك كافياً لجذب اهتمام روميل إلى (مخيلي) التي بدت في نظره ليس مجرد مرحلة بسيطة في حركة نهديف إلى عزل (برقة) ، وإنما النقطة التي تحتشد فيها جموع قوات العدو التي يتعين أن يوجه إليها الضربة القاصمة ، وفقاً للمبدأ المعروف عن نابليون الذي يقول : « اضرب الجموع تنهار الفروع ! »

وهكذا فإنه أبرق صبيحة يوم ٥ من أبريل إلى الكولونل (شيفرين) قائد طلائع الطابور الخلفي قائلاً : « مخيلي حرة ، انجم إلى هناك بأقصى سرعة » ، ولكنه عاد بعد بضع ساعات ، بعد أن أبلغته وحدات الاستطلاع الجوي أن « مخيلي محاصرة حصاراً قوياً ، وأن حركة نقل كثيفة تتجه بالسيارات إلى الشرق » ، فكذب في مذكراته ما يأتي : « لم يعد هناك وقت للضياع ، إذا لم نكن نريد أن نجد العشب فارغاً ! »

ولكى يعجل بتحركه فإنه عمد في الفترة بين اليومين الخامس والثامن من إبريل ، إلى الاندفاع بشخصه في المعركة : فأقلته طائرته الخاصة من طراز (ستورش) ، وراح يحلق بها فوق طوابيره ، وهبط بالقرب منها لشحذ همتها ، واستقل سيارة ، ثم عاد إلى طائرته ، وراح يجمع كل قواته ، ليدفع بها نحو (مخيل) ، وجرى شخصياً ومعه ثلاث سيارات نقل حاملة ٣٥ خزاناً مملوءة بالوقود ، ليمد بها القوات الإيطالية التي يقودها الكولونل (فابريس) بعد أن فرغت خزاناتها .

وطار مرة أخرى بحثاً عن طابور يقوده الجنرال (أولبريش) ضلّ في الصحراء ومعه العدد الأكبر من الدبابات الألمانية والإيطالية ، وقد عثر عليه (روميل) ووجهه مرتين إلى الطريق الصحيح . وقد تعرضت حياته للخطر عندما هبط إلى جانب طابور من السيارات اعتقد أنه من قواته ، لولا أن فطن في آخر لحظة أن الخוזات التي يرتديها الجنود ليست من النوع الألماني ، فتمكن من التحليق على حين كانت تطلق المدافع الرشاشة البريطانية تتابع . وفي مكان آخر أوشك أن يقع في الأسر عندما هبط لنجدة طاقم مدفع ألماني عزلوا في الصحراء ، ولكنه نجا بأعجوبة .

• • •

إن تلك الطاقة الهائلة التي بذلها روميل ليست مما لا يمكن تفسيره : ذلك أن قواته - بما فيها القوات الإيطالية - تواجه الصحراء للمرة الأولى في حياتهم ، ويتعرضون للثب فيها ، فلنكى يعتادوها ويتحركوا فيها بكل نشاط كان لابد من (روميل) الذي كان مثلهم جديداً على الصحراء ، ولكنه وهبت له غريزة خاصة ، وإحساس مرهف باتجاهات الرياح ! ولنا أن نتخيل مدى الحاس الذي كان يملأ رجاله عندما يرون قائدهم يقف بينهم ، ومقامسته لهم المتاعب والأخطار !

وفي يوم ٧ من أبريل كانت (مخيل) قد ضرب حولها حصار ، ولكن القوات التي قامت به كانت بالغة الضعف ، وعند ذلك عمد روميل - انتظاراً لمجيء دبابات الجنرال (أولبريش) - إلى إرسال مندوب إلى القوات البريطانية التي وقعت في الحصار . يدعوها إلى الاستسلام ، ولكنها رفضته .

وفي يوم ٨ من أبريل تمت المناورة كما أرادها روميل ، فقد تم احتلال (مخيل) بقوات ألمانية وإيطالية ، وسقط في الأسر ألفان من البريطانيين من بينهم عدد من الجنرالات .

كان انتصاراً كاملاً للقائد الألماني أضاف إليه نصراً آخر في (درنة) ، حيث أسر ثمانمائة جندي ، من بينهم هذه المرة جنرالان بريطانيان كبيران : هما الجنرال (نيم) والجنرال (أوكونر) الذي سبق له نفسه أن انتصر على قوات إيطاليا ، وكان ويفيل قد بعث به في آخر لحظة إلى الصحراء ؛ ليكون مستشاراً للجنرال نيم ولكن برغم هاتين الضريبتين ، فإن الجزء الأكبر من القوات الأسترالية التي كانت في حالة انسحاب راح يتجه عن طريق البحر إلى (طبرق) ، إلى حيث وصل لواء أسترالي آخر قادم من اليونان .

• • •

لم يتوقف (روميل) طويلاً أمام انتصار (مخيلي) ، فراح يضرب بدون جدوى يومى ١١ - ١٣ من أبريل تحصينات طبرق التي أخذت تدافع عنها أربعة ألوية أسترالية مع بقايا الفرقة المدرعة الثانية. وقد استطاعت أعداد صغيرة من القوات الإيطالية والألمانية الوصول إلى الحدود المصرية واجتيازها ، غير أنه استحال عليها التقدم أكثر من ذلك ؛ لأن طبرق ظلت حجرة عثرة في طريق مواصلاتها ، ولم يتخلص روميل منها قط .

والواقع أن (طبرق) قد عطلت تحركاته طوال ذلك الصيف ، ثم منعت الأزمة التي حدثت بعد ذلك في إمداداته عن طريق البحر عن الإعداد لهجوم كبير عليها حتى شهر نوفمبر التالي ، وهو الهجوم الذى ضاع أثره نتيجة لهذا الانتظار الطويل الذى أتاح الفرصة لهجمة بريطانية جديدة مع ما ترتب عليها من تطورات معروفة . وقد اعترف روميل فيما بعد بأن هذا التوقف كان هو الخطأ القاتل الذى أوقعته فيه القيادة العليا في برلين ؛ إذ إن العدو قد أقلت منه عندما لم يوجه إليه الضربة القاضية على الفور !

والواقع أن هذا الدرس كان قاسياً على رجل مثل (روميل) أعلن منذ وطئت قدماه أرض طرابلس ، أن لا هدف له سوى القاهرة والسويس . ولكنه أدرك منذ هذه اللحظة أن هدفه هذا أصبح مستحيلاً . فلقد كتب بينما كانت المعركة على أشدها يوم ٨ من أبريل يقول في خطاب إلى زوجته : « لست واثقاً . . هل كان التاريخ الذى تحمله هذه الرسالة صحيحاً ؟ . . لأننا فقدنا كل إحساس بالزمن ، والمعركة التي كانت تجري في مصلحتنا . . . أوشكت أن تتحول ضدينا . . ! »

ذلك أن روميل كان يمكن بإمدادات محدودة الوصول إلى القناة ، ثم يقيم اتصالاً مع الثورة التي نشبت في العراق ، ويضع يده على ما فيها من حقول للبترو . ولو أن ذلك قد

حدث لكانت ضربة ذات أهمية عالمية ؛ إذ إن تركيا بدورها كانت ستقع بين ذراعى المحور ، بما يترتب على ذلك من عواقب خطيرة على المعركة التى كانت ستبدأ ضد روسيا .

• • •

ولقد لاحت فرصة الاستيلاء على (طبرق) لروميل فى الفترة بين يومى ٧ ، ٨ من أبريل لو أنه كان قد حصل على الإمدادات التى طلبها ، ولو كان قد أحيط علما بالموقف وكيف تطور . لكن المعلومات التى كانت لديه وقفت عند يوم ٥ من أبريل ؛ مما جعله يستमित لثلاثة أيام فى الهجوم على الحشود الإنجليزية الهندية فى (مخيل) بغير أن يفتن إلى أن المشكلة الحقيقية إنما هى الحيلولة دون تجمع القوات المنسحبة إلى (طبرق) بالقوات التى كانت فيها .

فلو أنه اكتفى بضرب حصار على (مخيل) ثم أسرع إلى الطريق الساحلى كما كانت تقضى خطته الأصلية ، لاستطاع أن يقضى على اللوامين الأستراليين القادمين من بنغازى ، ثم ما كان يستحيل عليه بعد ذلك أن يقضى على اللوامين الآخرين المرابطين فى طبرق : أى أنه كان عليه أن يسحق طبرق فى البداية ، ثم يتصيد كل القوات التى كانت متجهة إليها . غير أن الأولوية الأربعة تجمعت فى هذه المدينة ، واستندت إلى ما فيها من تحصينات ؛ مما جعلها «عظمة ضخمة» على طوابير روميل الخفيفة .

إن وجود روميل بين قواته المتقدمة لا يمكن التقليل من قيمته ، إلا أن انعزاله فى تقدمه هذا عن مقر القيادة الخلفية ، وانقطاع الاتصال بينها ، جعلها تلعب الصحراء بفقد الرؤية الإجمالية لساحة القتال ، ويغيب عنه ما قرره الخبراء العسكريون العالميون الذى درسوا هذه المعارك : من أن الاستيلاء الفورى على طبرق كان سيغير الإطار الاستراتيجى للحرب تغيراً جذرياً .

إن مذكرات الفيلد مارشال روميل لا تحتوى على أى إشارة إلى ذلك ، ولكن أعوانه المقربين قد ردده ، كما أن تشرشل نفسه كان قد أدرك مدى خطورة طبرق ، وهو ما يتضح من الرسائل التى كان يبعث بها فى تلك الأيام من شهر أبريل إلى الجنرال (ويفيل) ؛ وقد تنفس الصعداء عندما فانت الفرصة على روميل .

• • •

١٥ من يونيو ١٩٤٢ .

فى ذلك اليوم كانت قمة معركة (الغزالة) ، وقد أوشك روميل أن ينجى ثمرة ثلاثة أسابيع من

القتال العنيف ، فلقد تمكن بعمليات حربية رائعة من طرد القوات الفرنسية من (بيرحكيم) ، وانتصر على البريطانيين في (جاد الأحمر) و (جسر الفرمان) ودمر الجانب الأكبر من مدرعات الجيش الثامن . وكان عليه الآن أن يقطع طريق الانسحاب على الفرقة الأولى من قوات جنوب أفريقيا التي يقودها الجنرال (بينار) ، والتي تخلفت قليلاً في مواقع (الغزالة) . وفي محاولة من روميل للوصول إلى الطريق الساحلي ، فإنه أطلق ما تبقى لديه من الكيبيتين المدرعتين التابعتين للفيلق الأفريقي ، وهما الكتيبة الحادية والعشرون والكتيبة الخامسة عشرة ، لكن رجال المدرعات كانوا في غاية الإرهاق من شدة الحرارة ، ونتيجة للأيام العشرين في قتال لا يتوقف ، فقد غلب النعاس الكثيرين منه داخل دباباتهم ، فراح روميل يركض بنفسه ، لكي يوقظهم ويشجعهم .

ووصلت دورية من سبع دبابات إلى (بالباية) ولكن قضى عليها ، وتمكن الجانب الأكبر من قوات جنوب أفريقيا من الفرار قبل أن تدعم الحلقة الألمانية المضروبة حولها . وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً توقف روميل الذي انتصر في (طبرق) وفي (مرسى مطروح) - توقف أمام (العلمين) ، وكانت القوات التي أوقفته هي بعينها قوات جنوب أفريقيا التي يقودها الجنرال (بينار) .

وهكذا فشل السباق الذي كان يقوم به في طريقه إلى (الأهرام) وهو يبعد عن الإسكندرية بأقل من مائة كيلو متر !

ولو أن قوات (بينار) كانت بدلاً من مصيدة العلمين في أحد معسكرات الأسرى الألمان ، لكان من المرجح أن يمر (روميل) منطلقاً إلى هدفه : فهل كان من الأمور المحتممة أن تتمكن هذه القوات من النجاة من الكماشة الألمانية ؟

إن الجنرال (مالنهايم) رئيس إدارة المعلومات في قيادة روميل قد وضع كتاباً بعنوان (معركة الدبابات) قال فيه : «لقد صدر الأمر إلى الفيلق الأفريقي بعد هزيمة المدرعات البريطانية بأن يتجه شمالاً ، وأن يقطع طريق (بالباية) ، على حين أن الجيش العشرين الإيطالي الذي يتكون من فرقة (آريست) وفرقة (تريستا) قد عهد إليه بمهام ثانوية ، هي مجرد أعمال حراسة ، ولكن لو أن الفرق المدرعة الخمس الألمانية والإيطالية قد دُفِع بها للزحف على (بالباية) لحالت دون تسرب جموع القوات المعادية من (الغزالة) ، أما الفيلق الأفريقي الألماني وحده فلم يعد قادراً على النهوض بهذا العمل » .

فهل لم يعهد روميل إلى الإيطاليين بأى مهمة جادة ؛ لأنه لم يكن يتقن فيهم أو لأسباب أخرى ؟

وعندما نعود إلى معركة (العلمين) حيث أحرز البريطانيون نصراً حاسماً على قوات المحور بما ترتب على ذلك من شعور روميل باليأس الكامل من نجاح مخططه ، تقفز إلى السطح تلك الشائعات التى ترددت فى تلك الأيام عن تخلى الألمان عن القوات الإيطالية فى أفريقيا ؛ لتقع فى الأسرى ، وما قبل من أنهم استولوا على سيارات النقل الإيطالية ، وخصصوها للقوات الألمانية وحدها .

ولقد صدر فى عام ١٩٤٦ كتاب للجنرال (ميسى) الإيطالى عن هذا الموضوع ، أبرأ فيه الألمان من تهمة (السرقه) ، وقال فيه : إن ما حدث كان مجرد امتناع عن إعادة تلك السيارات . والواقع أن الإيطاليين كانوا قد أعاروا الفيلق الألمانى الذى جاء لنجدتهم فى أفريقيا مجموعة من عربات النقل ؛ ليستخدمها بصفة دائمة ، فلما تقرر سحب قوات المحور بصورة نهائية بعد معركة العلمين طلبوا من روميل إعادتها لهم ، ولكنه لم يفعل .

ومن هنا فإن كل ما يمكن اتهمه به هو أنه لم يرع للزمالة فى الحرب حقها : أى أنه لم يتقاسم هو والإيطاليون جميع المصادر المتاحة له . وقد ظلت هذه القضية معلقة حتى الستينيات عندما قدم الجنرال الإيطالى (مانشينيلى) الذى كان ضابط اتصال بقيادة روميل . وثيقة قديمة لم يفتن إليها أحد من قبل جاء فيها : إن روميل كان قد طلب يوم ٣٠ من أكتوبر من ذلك العام - أى قبل انهيار قوات المحور بخمسة أيام - أن يقوم بأول انسحاب إلى خط ٢٨ جنوباً (أى خط فوكه) ، وأن يستعير من أجهزة الاتصال الإيطالية ١٥٠٠ سيارة ؛ لكى ينقل بها قوات المشاة الإيطالية بالذات

غير أن روما رفضت هذا الطلب ، وقرر كل من هتلر وموسوليني ألا يكون فى (العلمين) إلا أحد أمرين إما النصر وإما الموت ! ولكن روميل كان يائساً من النصر ، فلم ترسل له نتيجة لذلك أى سيارة

وعلى ذلك لا يكون روميل مسئولاً عن النهاية المأساوية التى لقيتها القوات الإيطالية التى ضاعت بين التيه فى الصحراء والوقوع بمئات الألوف فى الأسر ، فضلاً عن أن إنقاذ هذه

القوات لم يكن شيئاً هاماً بالنسبة له . والواقع أن كل مكاتباته في أثناء الحرب كانت تنضج بالاحتقار للنصفاء العسكرية الإيطالية ؛ فليس هناك إذن مجال للدهشة إذا هو رأى بوصفه رجلاً مهتة الحرب أن من الأفضل إنقاذ الوحدات ذات الفعالية القتالية وكانت هذه بطبيعة الحال هي القوات الألمانية .



الجنرال روميل ، لعب الصحراء ، الذي تولى
قيادة الجيش الأفريقي الشهير ، لدخول قوات
الحلفاء
وعندما تولى القيادة في الحجة الغربية بعد ذلك ،
كانت نظريته فيها يختص بالنقطة التي سيتم فيها
غزو الحلفاء لفرنسا أقرب إلى الصواب
وفي معركة فرنسا ، كانت الفرقة السابعة المدرعة
بقيادته ، هي أول من وصل إلى الساحل الشمالي
الفرنسي



الجنرال جودريان قائد القوات الألمانية المدرعة

obeikandi.com

الفصل الرابع والعشرون

كارل فون فولف

حاكم إيطاليا المفوض

ما كادت إيطاليا تتوقف عن الحرب وتعلن الهدنة يوم ٨ من سبتمبر ١٩٤٣، حتى وصل صباح اليوم التالي (كارل فولف) مندوب الفوهرر والقائد العام لقوات العاصفة الألمانية إلى الأراضي الإيطالية ، فقد اتصل به هتتر في مقر قيادته في بروسيا تليفونياً ، وأبلغه الأمر التالي : انتقل على الفور إلى إيطاليا ومعه هيئة القيادة . لفرض الاحتلال الألماني عليها .

والواقع أن ضباط هيئة قيادة كارل فولف التي تشمل قوات العاصفة وقوات البوليس كانوا قد احتشدوا في ميونيخ منذ شهر أغسطس ، لكي يضعوا مشروع احتلال الأراضي الإيطالية ، سواء أعلنت روما الهدنة أو لم تعلنها ، وعندما وصل هؤلاء الضباط إلى مدينة (بولزانو) كانت المدينة قد سقطت بالفعل في أيدي الألمان . وعلى الفور فتحوا القصر الملكي فيها ، واستقروا فيه . ومن هناك راحوا يتابعون العمليات العسكرية ، وبالأحرى عملية نزع سلاح القوات الإيطالية التي تولاهما (كيسلرنج في الجنوب ، وروميل في الشمال . وفي يوم ٩ من سبتمبر كان كارل فولف يسيطر تماماً على أكبر سلطة عسكرية ممكنة في دولة محنة .

وقد وصف هو نفسه منصبه هذا بأنه « القائد الأعلى لقوات العاصفة والبوليس ، والمفوض العام للجيش الألماني في إيطاليا ، والمستشار السياسي للدوتشي الإيطالي في الشؤون البوليسية والحربية ، وربما كان في هذه العبارة الطويلة شيء من التهويل ، ولكن الوصف وجوهه كانا دقيقين تماماً .

ولم يكن في استطاعة كيسلرنج أولاً ، أو فون فيتجنجهوف بعد ذلك - أي قادة القوات العاملة - تجاهله أو الاستغناء عنه . ذلك أنه لم يكن هناك أمر صغر أم كبر يوجه إلى الجنود فيما يتعلق بالعمليات الحربية يمكن أن يصدر عنهم ، إلا إذا كان فولف قد أحيط علماً به .

وابتداء من يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ - وهو تاريخ محاولة اغتيال هتلر - أخذت سلطة فولف تتزايد : فقد عين قائداً أعلى للجبهة الخلفية وللادارة الألمانية في إيطاليا : أى أنه أصبح السيد المطلق لكل ما يحدث في إيطاليا ، وراء خطوط القتال . وقد أسماه البعض «روح إيطاليا» على حين قال عنه آخرون إنه «سجان موسوليني !»

ومع ذلك فإن هذا الجنرال الذى يعلو الجنرالات ، وهذا الرجل الذى يتبعه عملياً أكبر شخصيتين في جيش الرايخ الألماني ، لم يتول قط قيادة أى وحدة تخوض الحرب ، ولم يوجه أى معركة ، ولا يعرف شيئاً عن التكتيك . ولا يفقه كثيراً أو قليلاً في الاستراتيجية ؛ كما أن من المرجح أنه لم يذهب قط إلى أى خط أمامي . . . إلا للتفتيش !

إن السلطة التي كان يتمتع بها سلطة سياسية ، أو سلطة بيروقراطية خاصة من ذلك النوع الذي يعهد به إلى رجال يتنمون إلى طبقة عالية ، بل باللغة الاستعلاء . ويوصفه خلاصة الرياضات والذراع الأيسر لهملر ، فإن العمل الذي أمتهنه كان يجرى في حى قوات العاصفة التي لا ينال منها شيء باعتبارها قوات الفوهرر الخاصة ، والضمان المسلح والبوليسى للوطنية الاشتراكية ، وكان هذا الرجل الذى يأتي على قمة هرمية عتيقة هو الذى وقع عليه اختيار هتلر ؛ لكي يتولى حكم إيطاليا بمن فيها من إيطاليين وألمان من عسكريين ومدنيين .

» . . .

وعندما وصل كارل فولف إلى إيطاليا كان في الثالثة والأربعين ؛ إذ كان مولده في (درمشتاد) عام ١٩٠٠ . لقد كان من الناحية الجسدية نموذجاً للرجل الآرى ، كما جاء في الأحلام العنصرية للجنس التوتونى : فقد كان طويل القامة ، له هيئة الأبطال ، أشقر الوجه والشعر ، له عينان زرقاوان وأسنان لامعة . تبدو مطابقة لاسمه ومعبرة عنه : (إذ إن فولف بالألمانية معناه الذئب) . وهذه الصفات التي تجمعت في هذا المقاتل بغير قتال . أصبح له سحر جسدى أبله ، ولكنه لا يقاوم .

أما ما كان يدور في رأسه فقلائل هم الذين كانوا على علم به . ولا بد أن دهاءه الشديد هو الذى جعله يصل بمثل هذه السرعة إلى مركزه هذا . وإلى جانب الدهاء احتقاره للعرف والتقاليد والأخلاق . ولكن لا شيء أكثر من ذلك ؛ فقد كان معروفاً أنه أجوف كالطاووس ، يهيم بالألقاب ، وفيه ضعف شديد نحو الجميلات من النساء ، وبخاصة الأميرات الإيطاليات اللاتي كان له معهن عدة فتوح .

لم يكن لكارل فولف إذن أى ماض بطولى فى الجندية يؤهله لكى يحتل منصب القائد الأعلى للقوات الألمانية التى احتلت إيطاليا . كل ما هناك أنه كان رجل حزب بارع ، إذ انضم إلى الحزب الوطنى الاشتراكى منذ كان غلاماً ، ثم كان من أوائل الذين سجلوا أسماءهم فى صفوف قوات العاصفة ، وكان من حسن طالعهِ أنه راق لقائد هذه القوات وهو هتلر الذى كان يناديه فى بعض الأحيان باسم « فولفشين » أى الذئب الصغير . وإذا نال إعجاب هذا السيد فإنه انطلق إلى الأمام متعجلاً . فلما اندلعت الحرب ، وكان قد أصبح رئيساً لأركان حرب هتلر ، عيّن ملحقاً لدى القيادة العامة للقوهر فى (راستنبورج) ، ليكون هزة اتصال بين القيادة العليا لقوات العاصفة ، وقيادة القوات المسلحة . وكان هذا المنصب واحداً من التى تفضى على شاغلها مكانة عالية ، ويدخل فى نطاق أكبر وأهم عشر شخصيات فى الرايخ الألمانى .

وأحب (فولف) قوات العاصفة وأخلص لها ، لكن ليس بالقدر الذى أحب به ربيبه وحاميه . ولقد كان بارعاً فى التعرف على أفكار رئيسه السرية ، وفطن إلى أنه إذا كان هناك بعض كبار الزعماء المتعصبين فى الرايخ الثالث يعدون أنفسهم لما سوف تاتى به الأيام . فى محاولة لإنقاذ أنفسهم من الضياع الهتلرى ، فإن هتلر على رأسهم وفى مقدمتهم . والواقع أن هتلر بدأ قبل محاولة اغتيال هتلر ، بحبس النبض سواء لدى الحلفاء الغربيين أو لدى المقاومة . وكان (فولف) بوصفه مستودع أسرار سيده هو الذى أتى يوم ٢٦ من أغسطس ١٩٤٣ بوزير مالية بروسيا ، وهو جوهانس بوبيتس ؛ لكى يلتقى سرا وهتلر . وكان بوبيتس هذا ضالعا فى المؤامرة التى تستهدف حياة القوهر . هذا الجانب من شخصية (فولف) سوف يكون فيه الرد على الدهشة التى اعترت أولئك الذين تساءلوا فى سذاجة عن السبب الذى جعل حامى الوطنية الاشتراكية الألمانية فى إيطاليا ، يقرر التخلي عن الرايخ وعن سيده ويتركها لمصيرها . ثم يوقع صلحاً منفرداً مع العدو ! والحقيقة هى أن المتطرفين هم دائماً أول من يسارع الى عقد المواقف مع العدو المتصر .

وكان (فولف) يعرف إيطاليا جيداً ، ولذلك اختاره هتلر ليحكمها بعد يوم ٨ من سبتمبر الذى وقعت فيه روما الهدنة : فلقد زارها للمرة الأولى عام ١٩٣٠ ، ثم استقبله موسوليني عام ١٩٣٦ فى قصر (البندقية) فأحدث لديه انطباعاً قوياً . وعندما قام الدوتشى برحلته المظفرة إلى

ألمانيا عام ١٩٣٧ ، كان (فولف) رئيساً لبعثة الشرف التي رافقته خلال هذه الزيارة ، مما وطد العلاقة بين الرجلين ، كما زاد منها أن هتلر اصططحبه معه في زيارته الرسمية لإيطاليا بعد ذلك . ثم إنه هو الذى تولى الإشراف على الاستفتاء الذى جرى بين سكان التيرول عام ١٩٤٠ ، فاختاروا ألمانيا وطناً لهم .

من هنا فإن (فولف) يعرف الكثير من الشئون الإيطالية ، وله في روما عدد كبير من المعارف والأصدقاء الذين يحتلون مناصب هامة ، ومن بينهم (بوفارينى جويدي) وزير البوليس الإيطالى .

هذا هو الرجل الذى ظل عشرين شهراً يمسك وحده بزمام الأمور ، ليس بالنسبة لمصر إيطاليا التى تحت الاحتلال الألمانى فحسب ، وإنما كذلك بالنسبة لمصر كل إيطاليا . ولقد قيل : إنه لم يكن حاكماً شرساً ، ربما لأن روحه لم تكن كذلك ، وربما لأن دهاءه جعله يترك للآخرين الأعمال الشائنة ، وربما لأن علاقته مع النظام الفاشى الجديد كانت سياسية أكثر منها عسكرية . وقد يكون السبب كذلك أن الشراسة تجرده مما كان يجتذب إليه أجمل نساء إيطاليا ، ويصرف عنه أهل الملئق والرياء من الأثرياء الذين كانوا يتقربون إليه لما يعرفون من أن في يده بالنسبة لهم حق الموت وحق الحياة .

ولقد تفاخر - فيما بعد - بأنه لم يكن شرساً ، بل لقد كتب يقول : إنه كان دائم التدخل لإلغاء الأوامر القاسية ، وبحول دون القيام بأى عمل انتقامى ضد رجال المقاومة الإيطاليين ، ومحرم مجرد استخدام كلمة «رهائن» . ولكنه عندما يقول ذلك ، فإنه إما لا يقول الحقيقة ، وإما أنه يحاول أن يبعد عن نفسه الأوزار التى تقع عادة على عاتق المهزمين .

والواقع أنه لم يبرأ من عدد من المسئوليات الخطيرة ، أهمها ما ثبت في محاكمته عام ١٩٤٦ من أنه أعد مشروعاً لترحيل اليهود الإيطاليين في أثناء الحرب في الوقت الذى كانت فيه ألمانيا تعمل بكل طاقتها في هذا المجال . أما الفضل في عدم نقل شركة فيات لصناعة السيارات بعالمها الذين كان عددهم يبلغ سبعين ألفاً في ذلك الوقت ، وكل آلاتها وأجهزتها وإداراتها من إيطاليا إلى ألمانيا ، فإنما يعود إلى السفير (راهن) ، وليس إلى (فولف) .

وهناك يوم من الشهور العشرين التى حكم فيها إيطاليا هو الذى حدد مصيره ومصير البلاد التى سيطر عليها ، وذلك هو يوم ١٠ من مايو ١٩٤٤ عندما استقبله البابا (باتشيللى) في

الفاتيكان ؛ ويروى هذا اللقاء ضابط في قوات العاصفة برتبة كولونيل يدعى إيوجين دولمان كان وزيراً مفوضاً من قبل هتلر في روما ، وكان قد رافق فولف حتى باب القاعة التي جرى فيها اللقاء مع البابا ، ودبرته أميرة إيطالية حسناء هي (فيرجينيا بوربون ديل مونتى) في محاولة منها لإيقاظ العاصمة روما من ويلات الحرب : ففي هذا اليوم عملت دبلوماسية الفاتيكان على إقناع (فولف) بالدخول في اتصالات مع الحلفاء . وكان البابا هو الذى وعده بعدم توجيه أى اتهام إليه بعد الحرب ، ورتب اللقاءات التي جرت في سويسرا ، ومهدت لاتفاقه مع (آلن دالس) ، وتوقيع صلح (كازرتا) .

وكان ذلك تحولاً عجيبياً من رجل كان يعد من طبقة النازيين الكبار .

• • •

وفي إيطاليا اختار (فولف) مقر قيادته بالقرب من موسوليني ؛ إذ كان مسئولاً عن حراسته ، وعن القرارات التي يتخذها . وقد ظلت العلاقة بين الرجلين طيبة إلى أن قطعها الدوتشى عندما اكتشف أن (فولف) قد دخل في مفاوضات مع الحلفاء بدون أن يبلغه شيئاً من ذلك . ولقد كان موسوليني على بعد بضعة خطوات منه ، وكذلك الوزراء الإيطاليون الرئيسيون ، ومساعدته (كابلي) ، والسفير الألماني (راهن) . وكان (فولف) ينقل إلى الدوتشى أوامر هتلر بصفة دورية ، فينقلها بالاحتجاج لما يناله من جرائم من مهانة ، ولعجزه عن عمل شيء إزاء ذلك .

وقد تظاهر (فولف) بالاستقامة في تصرفاته إزاء الرئيس الإيطالي ، غير أنه كان يعرف تماماً أنه هو وحده السلطة التي يحسب لها حساب . وقد حدث أن رغب موسوليني في عزل وزير البوليس (جويدى) إلا أن (فولف) عارض في ذلك ؛ لأنه كان يعتبره سنداً له في إيطاليا ، فلما احتج الدوتشى على هذا الاعتراض وبعث اثنين من كبار معاونيه لبحث الأمر مع الحاكم الألماني ، إذا به يعتقلها ، ويرسلها إلى معسكر (داخاو) .

والتقى الرجلان مرة أخرى عندما قرر موسوليني الانتقال إلى (ميلانو) ، وهي الرحلة التي اعتقله خلالها رجال المقاومة ، وحاكموه ثم أعدموه . وفي هذا اللقاء كانت المعاملة بينهما فاترة ؛ فقد زال الإعجاب الذي كان (فولف) يكنه للدوتشى الذى أبلغه أنه يتولى مغادرة (جاردا) فاعترض الألماني على ذلك بصورة شكلية .

والواقع أن (فولف) كان في أعماق قلبه يريد له أن يذهب إلى حيث كانت نهايته ،

وبالطريقة التي انتهى بها . وقد تبين ذلك فيما بعد من اللامبالاة التامة ، وربما جاز القول من النذالة التامة التي بدت من فرقة الحراسة المكونة من قوات من جنود العاصفة يرأسها الملازم (بيرزر) الذي كان يتلقى أوامره من (فولف) شخصياً : فعندما كان على هذه الفرقة أن تقاتل وتموت في (دونجو) دفاعاً عن موسوليني الذي اعترض طريقه رجال المقاومة واعتقلوه ، إذا بها تتركه لهم ، وتفر طلباً للنجاة ، وعلى رأسها قائدها !

ولقد كان إيوجين دولمان الذي سبقت الإشارة إليه أكثر من عاش بالقرب من (فولف) خلال فترة حكمه لإيطاليا ، وقد يجوز وصف هذا الرجل بأى شيء فيها عدا أنه متعصب : ذلك أنه كان ذكياً ورفيقاً ، مثقفاً كثير الشكوك ، يحتقر الأغبياء والحمقى . واختار طريق قوات العاصفة . لأنه وجد أن مصلحته في ذلك . وقد كان دولمان هو الذي أدخل (فولف) إلى المجتمع الراقى في روما ، وجعله يتعرف إلى الشخصيات التي يعتد بها ، ويتصل بكبار المتعاونين مع ألمانيا ، وأقنعه قليلاً قليلاً بأن بلاده قد خسرت الحرب ، وأن من البلاهة عدم الخروج منها في الوقت المناسب بأقصى ما يمكن من الفائدة ، وخاصة في دولة مثل إيطاليا . ويذكر دولمان جيداً عبارة قالها له ذات يوم أمير يدعى (بولوف) اشتهر بالحكمة والواقعية تعرف به في شبابه في روما ، قال له : «إذا أردت يا عزيزي دولمان أن تشق طريقك جيداً في الحياة فانتبه إلى ما يفعله الإيطاليون ، ثم افعل مثلهم . إنهم أناس يعرفون دائماً كيف يخرجون سالمين في جميع الظروف» . وكان هو يكرر هذه العبارة أمام (فولف) ، فيضحك منها هذا مسروراً ، ولكنه في أعماق نفسه وعى هذا الدرس .

ولقد كان دولمان هو الذي أخذه من يده تقريباً نحو الاتفاقيات التي عقدها مع آلن دالس ، ونحو اللقاءات التي جرت في سويسرا . وكان دولمان هو الذي جاء له بجياد (كيسلرنج) خلال هذه المفاوضات إن لم يكن بموافقته ، ثم بعد ذلك باشتراك خليفته (فيتينجهوف) . وأيضاً باشتراك حاكم التيرول القوى (هوفر) .

وكذلك فإن دولمان هو الذي رافقه إلى لقاء (البابا) يوم ١٠ من مايو ١٩٤٤ ، وأعاره حلة مدنية بدلاً من ثوبه العسكري .

وقد جاءت نهاية الحرب ، على حين كان (فولف) وزوجته الثانية (فريدا) وصديقه

المخلص دولان في مدينة بولزانو الإيطالية ، حيث وصلت في شهر مايو قوات الحلفاء ، لكي تنقلهم إلى معسكر الاعتقال . كان ذلك في أحد أيام الربيع الرائعة ، فراحوا يتناولون الشاي في إحدى الشرفات ، وبدأ كأن الحياة قد استأنفت من جديد مسيرتها الزهرة . وقد أقتلهم بعد ذلك إحدى سيارات الجيب في رفقة ضابط أمريكي . وبعد أن تنقل (فولف) في عدة أماكن في إيطاليا ، وأدلى بشهادته خمس مرات في محاكمات نورمبرج ، أطلق سراحه وأصبح حراً ، وهكذا مدد الحلفاء ما عليهم له من ديون !

وحاكمه الألمان بصورة شكلية ، وكان ذلك في نطاق عملية تصفية النازية في هامبورج عام ١٩٤٩ . وقد صدر الحكم على (فولف) بوصفه واحداً من قادة قوات العاصفة بالسجن أربع سنوات ، ثم أطلقوا سراحه على الفور باعتبار أنه قضى هذه المدة في الاعتقال لدى القوات الأمريكية .

وكان كارل فولف عند ذلك في التاسعة والأربعين من عمره ، ووراء ظهره ماضٍ كاد يدخل في ذمة التاريخ . وربما كان هو الوحيد من بين الكثيرين الذين تولوا القيادة في إيطاليا فيما بين عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٥ الذي لا يزال على قيد الحياة . وقد أصبح اليوم في الثامنة والسبعين ، وتحول إلى حطام إنسان من قسوة الذكريات . أما الذي أضاعه في شيخوخته فهو جنون العظمة ، والتطلعات التي اعترته في آخر أيامه إلى أن يترك وراءه مذكرات ضخمة يدافع فيها عن نفسه

فلقد عاد (فولف) إلى بيته ، وسرعان ما أصبح ثرياً : فقد افتتح وكالة للنشر في مدينة كولونيا حقق من وراثتها أرباحاً كبيرة ، فهدأ نفسه سكناً فاخراً ، وأقام فيلا عند بحيرة (ستارنبرج) بالقرب من ميونيخ ، وأعد بيتاً ملائماً لزوجته الأولى التي أنجبت له أربعة أبناء ، وجعل من ابنه الأكبر مساعداً له في أعماله ، وأخذ كل شيء يسير على ما يرام ، إلى أن كان ذات يوم سيطرت عليه فيه رغبة جامحة في كتابة مذكراته .

كان هدفه الأول أن يبرئ ذمته لدى الشعب الإيطالي . فكتب عشر مقالات نشرتها له مجلة إيطالية أسفرت عن نجاح باهر ، ولو أن مضمون مذكراته كان مديحاً في نفسه ، وذكراً لأعمال معروفة للجميع . ويبدو أن هذا النجاح قد ازدهاه ، فأعاد الكرة بمجموعة أخرى من المقالات وجهها هذه المرة إلى الشعب الألماني ، وكان ذلك من سوء طالعهِ : ذلك أنه تناول فيها المشكلة اليهودية ، فتحدث عن عمليات ترحيل اليهود من ألمانيا وغيرها من الدول التي

خضعت للنظام النازى . وأورد مبررات لهذه العمليات ، ودوره فيها ، ولو أنه كان أميل إلى الاعتذار عما بدر منه .

غير أن الحلقة الأخيرة ما كادت تذهب إلى المطبعة حتى صدر أمر بمصادرتها وحظر نشرها ، ثم ألقى القبض على (فولف) . ولم يمض أسبوع إلا كان قد صدر عليه حكم بالسجن . وكان هذا عام ١٩٦٢ . عندما لم يكن باقياً إلا قليل على انتهاء العمل بالقانون الخاص بقضايا تصفية النازية التى كان منتظراً أن يتم التصرف فيها جميعاً عام ١٩٦٢ . وجرى محاكمته بناء على الاتهام الوحيد الذى كان لا يزال سارياً وهو الاتهام باضطهاد اليهود . وجاء الحكم : السجن ١٥ عاماً .

وكان طبيعياً ألا يظل طويلاً فى السجن ، فقد حمل على الاعتذار وطلب المغفرة ، كما أنه صدرت عدة قوانين بالعمو استفاد منها . فأطلق سراحه بعد حين . غير أنه خرج هذه المرة وقد أصبح إنساناً انتهى أمره .

وهو يعيش الآن على هامش الحياة بعد أن بات شيخاً فانياً . وكما هى طبيعة الشيوخ فإنه لا يتحدث إلا عن الماضى .

ومن الغريب أن ماضيه يتفق تمام الاتفاق مع ذكرى ترتبط بطريقة (فرويد) بزهوره القديم ، وبنزعه إلى ما لا يدوم ، إنها «شاح النسر الرومانى» بصليبه الضخم الذى رفعه فى الماضى إلى مرتبة الفرسان الوهمية ، وهو الشاح الذى ابتدعه موسولبنى عام ١٩٤٤ ، ولم يُمنحه لرجل آخر سوى (فولف) وهو يكتفى الآن بهذا الفخر .

الفصل الخامس والعشرون

فرديناند شيرنر

آخر من استسلم . . .

التاريخ هو ٢٩ من أبريل ١٩٤٥ ، والساعة الرابعة صباحاً. وفي داخل المخبأ المدرع تحت دار المستشارية في برلين كان هتلر يجعل كلاً من جوزيف غوبلز ، ومارتن بورمان ، وفينلهلم بورجدورف. وهانز كريس ، يوقعون بوصفهم شهوداً على وصيته السياسية. وبينما هو يفعل ذلك ، كانت أصوات المدافع السوفيتية المروعة تزداد اقتراباً !

وفي هذه الوثيقة التاريخية ، يصم هتلر بالخيانة كلاً من هرمان جورنج وهنريتش هملر . وبعدد أعضاء الحكومة التي يتعين أن تخلفه ، ويعهد بها إلى الأدميرال (كارل دوينيتس) ، ويولى القيادة العليا للجيش الجنرال فرديناند شيرنر .

وهكذا فإنه من بين ذلك العدد الكبير من الجنرالات العظام الذين احتضنهم نظام الحكم الهتلري وخاضوا الحرب خمس سنوات ، يبق على رأس الجيش الألماني جندى بافارى أصبح شهيراً بفضل الحيوية التي بذلها في مهنته ، والأساليب (التوتونية) في علاقاته مع معاونيه المباشرين والجنود

وقد حصل (شيرنر) على عصا القيلد مارشال يوم ٥ من أبريل ١٩٤٥ : أى قبل فون جرايم بعشرين يوماً ، وذلك بعد أن استحق مجموعة ضخمة من الأوسمة والنياشين العسكرية الكبرى .

ويدخل فرديناند شيرنر التاريخ بوصفه الجنرال الألماني الذي كان آخر من استسلم للحلفاء في الأيام المتساوية في حياة الرايخ الثالث ، ثم أصبح الشخصية الرمزية لما خلفه النظام الهتلري والحرب الباردة ، وهمة الوصل بين ألمانيا الأمس وألمانيا اليوم .

وقد ظل مخفياً عشر سنوات بعد أن اعتقله الأمريكيون وسلموه إلى السوفييت شيراً آراء

متضاربة حول مصيره ، ثم عاد وظهر في الوقت الذي أخذت فيه ألمانيا تتأهب لإعادة تسليحها .
وعلى أى حال فإنه شخصية مزعجة ، وربما كان ذلك هو السبب في الحكم الذي أصدرته
عليه إحدى المحاكم الفيدرالية بالسجن مدة طويلة ، ثم خفف بعد ذلك .

• • •

ولد فرديناند شيرنر في ميونيخ يوم ١٢ من يونيو ١٨٩٢ لأسرة ثرية أتاحت له دراسة
أدبية ، فحصل على شهادة الثانوية في شهر يولية ١٩١١ غير أنه في اليوم التالي لحصوله عليها
تطوع في لواء المشاة البافاري المراتب في ميونيخ وعاد بعد ذلك لإتمام دراسته بجامعة المدينة ،
ثم في جامعتي لوزان وجرينوبل ، فتخصص في اللغات الأجنبية ، وهو التخصص الذي جعله
يقيم بعض الوقت في إيطاليا .

ومع بداية الحرب العالمية الأولى نراه يسرع للانضمام إلى لواء المشاة البافاري ، وخاض معه
جانباً من معارك الحرب . وقد حارب طويلاً على الحدود الإيطالية ، حيث جرح ثلاث
مرات ، فحصل على وسام الجدارة نتيجة إصابة خطيرة في ساقه اضطر بسببها أن يتوكل في سيره
على عصا ببقية أيام حياته .

ولم يلبث (شيرنر) في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى أن انضم للحزب الاشتراكي
الوطني ، وأصبح عضواً في الفرق الخاصة التي تولت إخماد الانقلاب الشيوعي الذي وقع في
ميونيخ عامي ١٩١٩ ، ١٩٢٠ . وإذ سار في طريق عسكري مكن يستند على إعداد دراسي ،
وعلى الفرص التي أتاحتها الحزب لكوادره التي كان هو واحداً منها . فإنه استطاع الالتحاق
بهيئة الأركان ، ولكن بعد أن علق على ثوبه العسكري ثلاثة أوسمة رفيعة حصل عليها
باستحقاق في أعوام ١٩٢٦ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٧ ، وهنا الحقوه بإدارة (الجيش الأجنبية)
لمعرفته الجيدة باللغتين الإيطالية والفرنسية ، وأخذ يحاضر في كلية درزدن الحربية حيث اكتسب
شهرة المدرب الصلب الذي يتخرج من تحت يده ضباط كالفولاذ .

وفي الوقت نفسه راح يعمل بلا كلل للتمتع في الفنون العسكرية يدعم بها مهنته معارضا
الاستقراطية العسكرية الألمانية وتقاليد القديمة في مناصب القيادة ، وعالج بحذر شديد
اتصالاته بتنظيم الحزب النازي ، وجعل من نفسه داعية لضرورة حاجة الجيش ليكون بدوره
تحت السيطرة السياسية . وقد أكسبه ذلك عطف هتلر الذي فتح له الباب على مصراعيه لكي
يصنع مستقبلاً عسكرياً مرموقاً .

وأُلحق في أكتوبر ١٩٣٧ بأحد ألوية الجبال ، ورحل معه إلى النمسا عندما تم ضمها إلى ألمانيا ، ثم إلى تشيكوسلوفاكيا خلال أزمة السوديت .

وفي الأول من أغسطس ١٩٣٩ حصل على وسام جديد ، ولما اندلعت الحرب كان من أوائل الجنود الألمان الذين دخلوا بولندا ، ثم ذهب إلى الجبهة الغربية مع الفرقة السادسة من قوات الجبال ، واشترك في المجموعة التي درست الإعداد لعملية «سبع البحر» الغامضة . ورفق إلى رتبة (ميجورجنرال) في يوليو ١٩٤٠ ، ثم انتقل في ربيع ١٩٤١ إلى الجبهة اليونانية مع الفرقة السادسة التي اقتحمت خط (متكساس) يوم ٦ من أبريل . وحصل على وسام «صليب الفرسان»

وقاد (شيرنر) خلال ٢١ يوما قواته ، فاكنتسحت (لاريسا) يوم ١٩ من أبريل . وممر (ترموبولي) يوم ٢٢ من أبريل ، واستولى على (إكروبولي) يوم ٢٧ من أبريل . وفي تلك الأيام أصدر إلى ضباطه نداءه المشهور الذي قال فيه : «إن علينا نحن الضباط أن نعطي جنودنا تعليماً عسكرياً يدخل في اعتباره في المكانة الأولى قيمة حياة كل منهم . ونحن نخل بواجبنا إذا ركزنا على التدريب الفني وحده بغير التعليم السيكولوجي» .

ويترك (شيرنر) اليونان وجزيرة كريت حيث ترابط فرقة الجبال السادسة التي يقودها ، وانتقل إلى جبهة (مورمانسك) ، فانضم إلى مجموعة الجيوش العاملة هناك .

وفي يونيو ١٩٤٢ رقى إلى رتبة الجنرال في قوات الجبال ، وفي الفترة ما بين نوفمبر ١٩٤٣ وفبراير ١٩٤٤ كان يقود مجموعة الجيوش (نيكوبول) . ولشهرين أرسل إلى هيئة الأركان العامة عاد بعدها ليتولى قيادة مجموعة الجيوش العاملة في (أوكرانيا) ، فحارب في القرم وفي رومانيا ، وفي الكريات حتى خط دنستر .

وقام يوم ٧ من أبريل ١٩٤٤ بحملة تفتيشية على الجيش السابع عشر . وعاد منها بتقرير يسوده التفاؤل ندم بعد ذلك عليه ، إذ أبرق إلى القيادة العليا يقول : إن كل شيء على مايرام ، وإن الدفاع عن منطقة القرم أصبح مؤمناً .

• • •

غير أنه سرعان ما خاب تقديره ، إذ إن الجيشين الثاني والخامس عشر السوفيتيين بقيادة المارشال (تولبوكين) أخذوا يهاجمان في عنف الجيش الألماني السابع عشر الذي يتولى قيادته الجنرال (جاينيك) الذي قرر في البداية أن يتحصن في (سيباستوبول) ، ثم طلب بعد ذلك

التصريح له بتركها والجلاء عن القرم . ولم يستطع (شيرنر) إلا أن يشاركه في هذا الطلب ، ولكن هتلر كان مصراً على تحويل (سيباستوبول) إلى قلعة لا يختلف مصيرها ومصير ستالينجراد إذا لم يحضر الجنرال البافاري إلى (برخستجان) للباحث مع القوهر ومحاوّل إقناعه . وفي هذه المناسبة برهن هتلر بصورة ملموسة على ثقته في (شيرنر) ، فقبل طلبه ، ووجه غضبه إلى قائد الجيش السابع عشر ، فعزله عن القيادة وطرده من الجيش .

وفي بداية شهر مايو ١٩٤٤ تولّى (شيرنر) مسئولية تنظيم الجلاء عن (سيباستوبول) وعن القرم ، وبصفة عملية تصفية الجيش السابع عشر . كانت تلك أياماً مرعبة بالنسبة للمسؤولين عن الجبهة : فقد أعنى كل من أريك مانشتاين قائد مجموعة جيوش أوكرانيا الشمالية ، وإيفالد كلايست قائد مجموعة جيوش أوكرانيا الجنوبية .

وخلف مانشتاين فالتر مودل ، أما كلايست فقد حل محله (شيرنر) نفسه . وتراكمت الكوارث الألمانية من أسبوع لأسبوع ، ومن شهر لآخر ، حتى إذا كان يوم ٢٤ من يوليو ١٩٤٤ نقل (شيرنر) ليتول قيادة مجموعة جيوش الشمال العاملة في شبه جزيرة (كولاندي) مع الجيشين الثامن عشر والسادس عشر ، وبمجموعها ٢٢ فرقة . لكي يقاتل على جبهة البلطيق أمام الهجوم الكاسح الذي شنته القوات السوفيتية التي انطلقت لطرد القوات الألمانية عن حدودها .

وفي وسط هذه الكوارث استطاع (شيرنر) أن يبرز ويسترعى أنظار هتلر ، الذي تأثر من أساليبه العسكرية وليس من نتائجها ، فنحّه ليلة رأس السنة لعام ١٩٤٥ أعلى وسام ألماني وهو وشاح «الماسات» فأضيف إلى أوسمة «أوراق الغار» و «صليب الفرسان» وغيرها .

وتسلم (شيرنر) يوم ١٧ من يناير ١٩٤٥ أخيراً ، آخر قيادة يتولاها ، وهي مجموعة جيوش وسط ألمانيا التي كان عليها أن تتلقى الصدمة السوفيتية النهائية في سيليزيا بوصفها آخر معاقل الرايخ الثالث ، وكذلك في تشيكوسلوفاكيا حيث تعمل الجيوش التاسع والسابع عشر والأول والرابع .

وفي هذه المعركة اليائسة ، انتهج الجنرال البافاري شعاراً جديداً يقول : «القوة من خلال الخوف» وهو عكس الشعار القديم وهو : «القوة من خلال البهجة» .

• • •

لقد بنى (شيرنر) لنفسه سمعة العسكري الصلب ، سواء بين السكان المدنيين في المناطق

المختلة . أو بالنسبة للجنود بصفة خاصة الذين كان يطالبهم بالنظام المطلق وفقاً لتعاليم المدرسة العسكرية الألمانية ؛ كما حددها واحد من أساتذتها هو الفيلدمارشال (جراف فون مولتكه) الذى مازالت الكلمات التى أدلى بها عام ١٨٩٢ فى الرايخستاج محفورة فى ذهن الجنرال البافارى .

هذه الكلمات تقول : « السلطة من أعلى ، والطاعة من أسفل : ذلك أن النظام هو الروح الحقيقية للجيش . فالنظام هو الذى يجعل الجيش ما ينبغى أن يكون ، والجيش بغير نظام ما هو إلا مؤسسة باهظة التكاليف ، ومن ثم غير قادرة على مواجهة الحرب ، وخطيرة فى وقت السلم » .

إن الرغبة فى جعل الجيش الألمانى صورة من النظريات التى وردت فى كتاب (كفاخى) الذى وضعه هتلر تكملاً فى (شيرنر) التزمت العسكرية الألمانى التقليدى . الأمر الذى صنع منه جنرالاً لا روح له . يقول الأعداء : إن نجاحاته العريضة إنما ترجع فقط إلى عنفه الوحشى ، وانعدام المثل العليا لديه ! ، ثم إنه هو نفسه يفخر بوصف شخصه بأنه « إستراتيجى سيئ » . وجندى عظيم » . فلقد كان الإرهاب هو القاعدة (الوحيدة) فى علاقته بجنوده ، لاقتناعه بأنهم لا يتأثرون إلا بالقوة . وبالوعود الرنانة . وتفسر هذه الطريقة من التفكير التى حركها فيه هتلر سر ارتقائه الخاطف فى مهنة الجندية . إلى جانب أن (شيرنر) استحق تقدير الفوهرر ؛ لأنه كان أول من أدخل تدريس النظريات الاشتراكية الوطنية بين الضباط الألمان .

وهناك أمثلة كثيرة تقيم الدليل على تشدده ، منها : أنه عندما كلفه هتلر بإعادة تنظيم مجموعة الجيوش (١) بعد هزيمتها فى رومانيا ، رأى بالقرب من (كارشاو) مجموعة من الجنود قوامها ٤٥٠٠ جندى ، وهى تنسحب فى حالة من الفوضى بعد تلك الكارثة ، وعند ذلك قضى بأن كل جندى أو ضابط لا يحمل معه عتاده وسلاحه يعدم رمياً بالرصاص ، مالم يقدم تبريراً لذلك . وكان من بين الذين أعدموا عدد من ضباط أركان الحرب فى قيادى جورنج وروزنبرج . وقد احتج رجال السياسة على ذلك ، ولكن (شيرنر) لم يتراجع عما قضى به ! .

وأناحت له القيادة الجديدة أن يطبق نظريات النظام بأعمق ما تكون ، وذلك فى الوقت الذى فرض فيه الجيش الأحمر عليه انسحاباً لأمعدى عنه من سيليزيا . والواقع أن السوفييت أوقعوا (شيرنر) فى كهاشة من الصלב : فمن الشمال تضغط الجبهة

الأوكرانية الأولى بقيادة (كونيف) . ومن الشرق الجبهة الرابعة بقيادة (مالينوفسكى) . وحتى من الغرب كان الجيش الأمريكى الثالث الذى يقوده الجنرال (باتون) يستعد للقيام بهجومه ، أو على الأقل قطع الطريق أمام الانسحاب الألمانى المحتمل .

ومع ذلك : وفى خضم الكارثة الكاملة التى يواجهها الجيش الألمانى كان على (شيرنر) بالذات أن يتولى قيادة أكبر قوة عسكرية ألمانية مازالت فى أوروبا بأسرها .

وفى مطلع ربيع عام ١٩٤٥ كان (شيرنر) يأمل وفقاً لخطة نظرية بحته أن يضع مشروعاً لإقامة « قلعة وطنية » على الحدود بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا يحارب فيها آخر معركة ، وحذالو كان هذا بوجود الفوهرر ، وجعله يفضلها على عش النسر فى جبال الألب البافارية . غير أنه فى بداية شهر مارس كان الجنرالان السوفيتيان (كونيف) و (تروف) قد تغلبا على مقاومة قوات (شيرنر) فى سلوفاكيا ، واحتلا إقليم مورافيا بأكمله تقريباً . أما (مالينوفسكى) فقد احتل بدوره قلعة (براتيسلافا) ، وأخذ يتجه مباشرة نحو (فيينا) .

وفى بداية شهر أبريل كانت الأمور قد تقررّت . ومع ذلك فإن (شيرنر) قد استفاد من هذه الأوضاع . فى يوم ٥ من أبريل - وكان قد أفتح هتلر بأن مجموعة جيوشه هى الوحيدة التى يمكن أن تؤثر فى المستقبل - تلقى عصا القيلد مارشال وقدم فى مقابلها التأكيد بأنه سيحارب حتى آخر رجل . وبينما راح رجال كثيرون من مدنيين وعسكريين يهزون رؤوسهم من حوله وكلهم شك فيما يؤكده الفوهرر من ثقة فى النصر الهائى ، كان (شيرنر) هو الوحيد الذى أقسم أمامه بيمين الولاء .

هذا هو السبب فى أن هتلر قرر تعيينه قائداً لمقر قيادة الجبال الذى كان فى الأيام الأولى من شهر أبريل لا يزال يفكر فى الانسحاب إليه ، ليقاوم فيه حتى النهاية . وعندما تلى فى محباً المستشارية يوم ٨ من أبريل تقرير مفصل عن الموقف العسكرى ، تنبأ هتلر بالسلوك الذى يمكن أن يقدم عليه الروس ، وأعلن أنه مقتنع بأنهم سوف يتجاهلون برلين ، ليركزوا ضغطهم على تشيكوسلوفاكيا ، لكى يدوروا حول جبال بوهيميا ، ويصلوا إلى الدانوب .

وقد أفتحه ذلك بضرورة إرسال ثلاث فرق مدرعة إلى (شيرنر) بالرغم من قلة الرجال تحت تصرفه .

يبد أن فاجعة الرايخ الثالث كانت توشك أن تم فصولاً ، وبصورة محتومة . فيينا راحت

الجيش الألمانية في تشيكوسلوفاكيا تحاول وقف تقدم الروس في مورافيا ، كان هتلر يستحرف في برلين بعد أن عين دوينيتس رئيساً للحكومة ، (شيرنر) قائداً أعلى للجيش .

وراح الأدميرال الكبير ابتداء من الأول من مايو يحاول جمع بقايا الجيش الألماني الذي تفتت بعد الهجوم البريطاني المفاجئ ، وتفرق في مناطق لا اتصال بينها . ومن بين الثلاثة ملايين من الرجال الذين كانوا لا يزالون يحملون سلاحاً في أيديهم ، كان حوالي المليون تحت قيادة (شيرنر) .

وقرر الأدميرال دوينيتس أن يكسب بعض الوقت دون أن يخافه أى شك في إمكان حدوث فجوة بين الحلفاء الأمريكيين والبريطانيين من ناحية ، والروس من الناحية الأخرى ، يمكنه استغلالها . غير أنه أوصى جميع القادة بأن يحاولوا الاستسلام للغربيين وليس للسوفيت . وبينما كان فون فريدبورج يتفاوض هو ومونتجومرى للتوصل الى صلح منفرد ، استدعى (دوينيتس) إلى فلنسبرج حيث يقيم جميع المسؤولين عن قطاعات الجيش التي مازالت تقاتل ، ، فبعث (شيرنر) إلى هذا الاجتماع رئيس أركانه وهو الجنرال (اولدفيج فون ناتزمر) ، ليلنع رئيس الدولة الجديد أنه لن يوافق على الاستسلام وأنه سيقاقل من القلعة البوهيمية إلى آخر رصاصة .

غير أن دوينيتس كان قد اتخذ قراره وانتهى الأمر ، فعاد مبعوث (شيرنر) سراً إلى مقر قيادته ، ثم وصلت ظهر يوم ٧ من مايو بريقة من القيادة العليا تتضمن أمراً بالاستسلام في الساعة صفر من يوم ٩ من مايو .

وهكذا تبدد أمل (شيرنر) في عقد صلح منفرد مع الغربيين ، وهو ما كان يحمله قادراً على الاستمرار في محاربة السوفيت . وعند ذلك اقترح (ناتزمر) مشروعاً للانسحاب إلى الخطوط الأمريكية يقوم به الجيش الألماني السابع عشر والجيش الأول مدرعات ، على حين يقوم الجيش الرابع مدرعات بحماية هذا الانسحاب .

لكن (شيرنر) كان يشعر بالاضطراب من جراء أمر الاستسلام ، فأخذ يصيح بأعلى صوته : إنه لن يحترمه ، فاجتمع معاونوه ونصحوه بالأيفعل ، فاضطر أن يقبل مشروع (ناتزمر) . غير أن اليأس الذي ملأ قلبه دفعه إلى الرغبة في الفرار ، فخلع ثوبه العسكري دون أن يفكر في أنه بذلك إنما يتخلى عن قواته ، ويتركها لمصيرها !

* * *

ومن المرجح أن المشروع قد نفذ يوم ٩ من مايو. ونقول من (المرجح) لأن التواريخ تتعارض هنا مع بعضها البعض : فقد ألقى (شيرنر) ثوبه العسكري. وارتدى ملابس الفلاحين ، ووضع في جيبه أوسمته ونياشينه ، وبدأ ينسحب مع أركان حربه . وقد سار في مقدمة صف العربات الطويل . وعندما استطاع أخيراً أن يضع يده على طائرة صغيرة من طراز (ستورش) فإنها لم تلبث أن أفلته واختفى عن الأنظار . ربما على أمل أن يصل إلى مقر القيادة الجبلية ، ولا يدري أحد هل كان ذلك لكي يقاتل حتى الموت ، أو لمجرد الاختفاء ٢٠ على أنه يؤخذ من كتاب وضعه (جورجن تورفاند) عن هذه النقطة أن (شيرنر) عاد إلى الظهور مساء يوم ١٤ من مايو ؛ إذ شوهد في حانة سان جوهان في إقليم التيرول ، وهو لا يزال مرتدياً ثياب الفلاحين ، وعليه السترة التقليدية لبافاريا التي ينحدر منها ، فتعرف عليه أحد الضباط ، وفي صباح اليوم التالي اعتقله الأمريكيون. وفي الوقت نفسه كانت جيوشه تستسلم أخيراً ، وقد أطيقت عليها قوات السوفييت والقوات الأمريكية من جميع الاتجاهات ، وكان ذلك يوم ١١ مايو. فكانت آخر من استسلم.

وطالب السوفييت به لأن لهم لديه حساباً يريدون أن يتقاضوه ، فنقل (شيرنر) إلى الاتحاد السوفيتي في أواخر شهر يونية ١٩٤٥ ومنذ ذلك الوقت . ولعشر سنوات لم يعرف شيء عنه ، ولكن تسربت بشأنه بعض الشائعات فقد قيل : إنه أُلحق عام ١٩٥٠ بالقيادة العليا لقوات كوريا الشمالية ، وانهم نقلوه عام ١٩٥١ ليلقي محاضرات في التكتيك العسكري في إحدى كليات المشاة السوفيتية. وفي عام ١٩٥٢ أكدت صحيفة بريطانية أن (شيرنر) في الشرق الأوسط حيث يعمل لحساب السوفييت في تدريب أحد الجيوش العربية . أما الحقيقة فهي أن الفيلدمارشال الألماني الأسير الذي قضى أعواماً طويلة في معتقل (جولاج ٢٧) السوفيتي صدر عليه حكم يوم ١١ من فبراير ١٩٥٢ من المحكمة السوفيتية العسكرية العليا يقضى بسجنه ٢٥ عاماً. غير أنه ما كادت تنقضي على ذلك سنتان ؛ حتى أطلق سراحه فجأة يوم عيد الميلاد عام ١٩٥٤ ، وبعد أن أمضى بضعة أيام في موسكو وصل فجأة أيضاً إلى برلين ، وكان ذلك يوم ١٨ من يناير ١٩٥٥ ، حيث استقبله في القطاع الشرقي منها وفد من الجزرالات الألمان القدامى . ومندوب عن السفير السوفيتي ، وكبار المسئولين في الحزب الشيوعي .

إن الروم لم يجتاروا هذه اللحظة بالذات لظهور (شيرنر) اعتباطاً : فقد كان النقاش يدور في ذلك الوقت في جميع أنحاء العالم حول احتمال أنه من المناسب إعادة تسليم ألمانيا .



لم يتردد فريدريش شروتر ، وهو الوطني
الاشتراكي المتحمس . في أن يعصى أوامر
هتلر . ولد كاث مع كل من مودل وروميل
وكليترنج واحداً من الماريشالات الأربعة الذين
يحملون وسام أوراق الغار الذهبي المصنع
بالماس ، وهو أعلى وسام ألماني .



سيب ديترهش الجنرال في قوات العاصفة ،
حكم عليه بالسجن مدى الحياة ، لأنه أمر يوم
١٧ ديسمبر ١٩٤٤ بإعدام ٧١ أمريكياً .

ومثل هذه الشخصية من شأنها إثارة الكثير من الجدالات ، وبالفعل انطلقت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى لتكشف عن الوثائق المؤيدة والمعارضة لفيلدمارشال ، فقبل عنه : إنه واحد من أفضل من يمثلون الطبقة العسكرية الألمانية ، في حين قال آخرون : إنه جنرال سياسي نازي ، شق طريقه بالإرهاب ، وأنه مجرم حرب . وإزاء هذه الاتهامات انتقل إلى ألمانيا الاتحادية ، ولكن الاتهامات تابعت ، فقدموه للمحاكمة حيث أصدروا عليه حكماً بالسجن أربعة أعوام ونصف العام ، ولكن فرديناند شيرنر آخر ضابط يرقبه هتتر إلى رتبة الفيلدمارشال ، وآخر جنرال يستلم في الحرب ، لم يمض في السجن سوى عامين : من ٤ من أغسطس ١٩٥٨ إلى ٣ من أغسطس ١٩٦٠ .

الفضل السادس والعشرون

قادة الجيوش

في الرايخ الألماني الثالث

إن ذلك الضابط الألماني العظيم الذي لقبوه باسم «الجنرال المثالي» . قد مات متحرراً في سجن سالسبورج ، وكان ذلك يوم ٢٤ من مايو ١٩٤٥ عندما وضعت كبسولة صغيرة من سم السيانور نهاية لحياة (روبرت فون جرايم) فيندمارشال الرايخ الألماني البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً .

فلقد وقع أسيراً في أيدي الحلفاء يوم ٨ من مايو ؛ إذ كانوا قد اعتقلوه على حين كان يحاول تنفيذ آخر أمر تلقاه من القوهرر : ذلك أنه كان ضابطاً ابن ضابط ، وأمضى حياته كلها وهو لا يرتدى غير الثوب العسكري . وقد خاض الحرب العالمية الأولى ، فلما انتهت ظل في الجيش ، حتى بعد أن تفككت ألمانيا في تلك السنوات المظلمة التي جاءت بعد معاهدة الصلح ، وقيام الجمهورية ، وذهاب الإمبراطور غلبوم الثاني إلى المنفى .

وكان فون جرايم من الضباط الأوائل الذين انضموا إلى صفوف السلاح الجوي الألماني في الثلاثينات . وفي الطيران قطع أهم خطواته في مهنة الجندي . فلما اندلعت الحرب العالمية الثانية أرسل إلى الجبهة الشرقية قائداً للفرقة الجوية السادسة ، فقاتل السوفييت ، ودمرهم الجانب الأكبر من طائراتهم . ويصفه زملاؤه بأنه رجل نقي صاحب مثل عليا ، لم يحاول قط أن يصطدم مع السلطة ، فإن النازية عنده تعني سياسة . وفون جرايم يضع كل آماله في الجيش ، فهو يشعر أنه جندي ، وليس نازياً .

أما ألمانيا فهي وطنه ، وهي دولة من الدول الكبرى ينبغي أن تعود إلى الدور الذي هي جديرة به ، ولكن حرباً لم يخضها الألمان جيداً فخسروها لسوء طالعهم قد جعلتها موصومة بغير

مهر .

كان فون جرايم رجلاً مطيعاً للأوامر ، مكافحاً بكل ماله من قوة ، ورجل تكتيك جيد . أحرز نجاحات ملحوظة كان من شأنها أن أثرت الشهرة التي لازمته كقائد محارب بالكثير من المجد .

وكان عليه في النهاية أن يتراجع بدوره أمام الهجوم الكاسح الذي شنّه الجيش الأحمر ، فقد كانت تعوزه وسائل المقاومة . وطائراته يقل عددها يوماً بعد يوم ، فاضطرته الأحداث إلى الوصول بقيادته إلى ميونيخ في بافاريا ، وتلقى يوم ٢٦ من أبريل ١٩٤٥ أمراً عاجلاً من الفوهرر : وكان عليه أن يذهب فوراً إلى محباً المستشارية في برلين حيث يعيش هتلر ساعاته الأخيرة . وكانت هناك (حناريتش) وهي الطائرة الباردة والمدربة الشهيرة لصواريخ ف ٢ ، فتولت قيادة الطائرة التي حملت فوق جرايم . وهبطت به في ميدان براندلبورج .

وتلقى فون جرايم من هتلر ، وهو مندهل من المفاجأة . وكله إخلاص حتى النهاية لدوره كجندي عليه أن يطيع الأوامر دون أن يناقشها - تلقى عصا الفيلدمارشال وتعيينه قائداً عاماً ل سلاح الطيران الألماني بدلاً من ذلك « المهرج » جورنج ! وكانت في انتظاره كذلك مهمة ثقيلة . هي أن يقلع بطائرته على الفور ، ويصل إلى (بلون) ، حاملاً أمراً بالبقاء القبض على هنريش هملر .

كان فون جرايم مجروحاً في قدمه ، فإن المدافع الرشاشة الأمريكية قد أصابته خلال رحلته الجوية . ولكن الجزال كتم آلامه ، وبعد أن ضمد جرحه على عجل صعد إلى الطائرة ، وأقنع بها إلى (بلون) . وفشلت المهمة . وانهار الرايخ ، وأصبح كل شيء طليلاً وخراباً . وإذا كان من غير المجدي البحث عن هملر واعتقاله ، فإنه هو الذي وقع أسيراً في أيدي الأمريكيين .

وعندما أغلقوا عليه باب الزنزانة راح يتأمل في الماضي ، ويبحث في الحاضر . أما المستقبل فكان معتماً خافلاً بالمخاطر ، فلم يسعفه شيء حتى إخلاصه للسلاح ، فلجأ إلى (السيانونر) الذي زوده به هتلر ، لكي ينجو من هزيمة ثانية نهائية ، أحس بأنه ليس على الإطلاق مستعداً لمواجهة ، ولم يكن هو الوحيد من بين الضباط العظام في الجيش الألماني الذي يفضل الموت على (العار) ، أي الاستسلام بدون قيد ولا شرط .

فقبل ذلك بشهور قليلة - أي في يوم ١٩ من أغسطس ١٩٤٤ - قتل ضابط آخر يحمل رتبة الفيلدمارشال نفسه في (ميتر) ، تاركاً وراءه رسالة طلب تسليمها إلى هتلر ، بمثابة وصيته الروحية . إنه هانز جونتير كلوجه الذي كتب في هذه الرسالة يقول :

«عندما تقرأ رسالتى هذه فإننى لن أكون على قيد الحياة ؛ فلتست بقادر على أن أتحمّل اللوم بأننى قد عرضت للخطر مصير الجبهة الغربية ، باستراتيجية خاطئة » .

وفى مكان آخر من الرسالة يقول : . . . ياسيدى الفوهرر . . . أصدر قراراً بوقف الحرب ، فإن الشعب الألماني قد تحمل آلاماً لا قبل لبشر بها . ويتعين أن نضع لها حداً » .

إن الكلمات الأخيرة لهانز جوتتركلوجه حافلة بالنقد للسياسة المتطرفة ، وهى على أى حال النتيجة المنطقية لتلك الأحداث التى عاشها الجنرال كجندى . فقد دخل وهو مازال شاباً صغيراً السلك العسكرى ، وتخرج ملازماً فى جيش بروسيا فى التاسعة عشرة من عمره . وكان ذلك عام ١٩٠١ . وحارب (كلوجه) فى الفلاندر خلال الحرب العالمية الأولى ، واحتل رينانيا عام ١٩٣٦ . وتولى بعد أربعة أعوام قيادة الجيش الرابع الذى اجتاحت بولندا .

ومع بداية عملية (ذو النحية الحمراء) كان على الجبهة السوفيتية . وفى يوم ١٦ من ديسمبر ١٩٤١ أصبح قائداً لمجموعة جيوش الوسط خلفاً للجنرال فون براوشيتش الذى أغفاه هتلر من هذا المنصب . وحصل على رتبة فيلدمارشال فى يونيو عام ١٩٤٠ . وفتح مدينة (ستولنسك) الروسية ، وضرب حصاراً حول نصف مليون جندى من الجيش الأحمر . وقد وصل مع جيوشه المظفرة فى زحفه حتى أربعين كيلو متر من موسكو .

وفى يوم ٣ من يوليو ١٩٤٤ كان قائداً عاماً للقطاع الغربى الميدانى حيث كان يعمل قبل ذلك الجنرال فون روندشتت ، ثم حصل على قيادة مجموعة الجيوش (ب) عندما جرح رومبل وعاد إلى الوطن .

لم تكن إستراتيجية الحرب المعجومة تتضمن أى أسرار بالنسبة لقون كلوجه ، ذلك الجنرال ذى الطابع القديم الذى لا شئ لديه سوى المنهج والخطط الميدانية المتقنة . غير أنه لم يرث عن قدماء الضباط فى الجيش البروسى ، ذلك الاحتقار الذى يكونه للحياة الإنسانية . فهو يحمى رجاله . ويحاول التنبؤ بمعرفة مكانم الخطر ، فيعد لها مقدماً الدفاعات اللازمة .

ثم إنه لا يعجب بالنازيين ، ولم يكن مقتنعاً بأحقية هتلر فى قيادة القوات الألمانية المسلحة ؛ لأنه ليس عبقريه عسكرية . ويؤمن كوجه بما يسمى «الحرب النظيفة» ، ويكره المذابح ، والإبادة الجماعية. وقد اشترك ولو بدور ثانوى فى مؤامرة ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ ضد هتلر . وعندما راح رجال الحساب وقوات العاصفة يحققون فى نشاطه ، كان يتولى قيادة انسحاب الجيشين الخامس والسادس اللذين تعرضا لحصار قوات الحلفاء .

وأصدر إليه هتلر الأمر بأن يقاوم مهما كان الثمن ، لكن فون كلوجيه لم يأخذ كلمات الدكاتور في اعتباره ؛ فقد كان يضع نصب عينيه أمراً واحداً ، هو أن جيوشه وجنوده يجب أن تنجو وعزله هتلر نتيجة لذلك ، وعين بدلاً منه الفيلدمارشال (مودل) . وكان ذلك يوم ١٧ من أغسطس ١٩٤٤ .

كان فون كلوجيه قد بدأ يوقن أن بلاده قد خسرت الحرب ، ولكنه ظل يفكر في أن في الإمكان إنقاذ ألمانيا . وهذا هو ما دفعه إلى الكتابة إلى برلين ، وهو أيضاً ما حمله على أن يقتل نفسه . فلقد كان يعتقد أنه بمثل هذا العمل المثير يمكنه أن يجعل هتلر يغير خططه ، لكنه بطبيعة الحال كان يخدع نفسه ؛ إذ إن انتحاره لم يسفر إلا عن بضع كلمات تسم بالاحتقار تقوه بها الفوهرر . . .

وهذا المصير نفسه كان في انتظار (فانر مودل) الفيلد مارشال الذي تولى قيادة القطاع الغربي بدلاً من فون كلوجيه : فلقد كان مودل بدوره استراتيجياً بارعاً ، وتكتيكياً جيداً ، وجندياً حتى أعماقه . محاطاً دائماً بالتقدير المشوب بالاحترام من الضباط والجنود ، وهو يكبر فون كلوجيه بعام واحد ؛ إذ ولد في جنتين يوم ٢٤ من يناير ١٨٨١ والتحق بالجيش عام ١٩٠٩ ليتدرب في اللواء الثاني والخمسين البروسي للمشاة . فلما جاءت النازية استطاع أن يصعد بمخطوات واسعة حتى قمة مهنته العسكرية التي بدأها متأخراً .

ولم يكن (مودل) رجلاً سهلاً ، فقد دافع حتى النهاية عن القرارات التي اتخذها ، طالما أنه كان مقتنعاً بسلامتها . وما كان يخشى مواجهة هتلر ، فكان يرد على صراخه بصراخ مثله ، لكي يجعله يتقبل نظرياته . وعندما ذهب يحارب في الاتحاد السوفيتي قائداً للجيش المدرعة اشتهر بأنه « رجل المواقف الميثوس منها » . وعندما أمره هتلر بأن يصمد في وجه الهجوم السوفيتي الكاسح في شهر أغسطس ١٩٤٣ فإن (مودل) امر رجاله بالتراجع حتى خط (الدنيبر) ، لأنه رأى أن ذلك وحده فيه إنقاذ للقوات التي يقودها .

واستدعاه هتلر إلى دار المستشارية وراح يهاجمه ، ويوجه إليه اللوم ، ويهدده بأقصى أنواع العقاب ، ولكن (مودل) أخذ يدافع في صلابة عن القرار الذي اتخذ ، وقدم الحجج الدامغة التي أقنعت الفوهرر الذي اكتفى بأن أمره بفترة راحة .

وفي بداية يناير ١٩٤٤ تولى قيادة مجموعة جيوش الشمال في قطاع لتنجراد ، وفي

أغسطس كان على رأس مجموعة الجنوب في الكريات. وخلف فون كلوجه ، وأصبح قائداً لقطاع الغربى ، وأصدر أمراً لقواته بالتراجع حتى الحدود الغربية لألمانيا ، واشترك في معركة (الأردن) التي كانت آخر جولة يائسة لجيش هتلر .

وشاهد في ذهول تفكك الرايخ ، وبينما كانت نقله سيارة يوم ٢١ من إبريل ١٩٤٥ بالقرب من (راتنجن) إذا به يسمح طابوراً أمريكياً متقدماً . ولم يرض فالتر مودل فيلد مارشل الرايخ أن يقع أسيراً في أيدي العدو ، لكنه لم ير بصيصاً من الأمل . وأدرك أن النهاية باتت قريبة

وعند ذلك حيا الضباط الذين معه . ووضع رصاصة في مسدسه ، وأطلقها على رأسه ، فخر صريعاً وهو يحمل على صدره وسام أوراق الغار الذى حصل عليه بوصفه أفضل قائد ألماني في الشهور الأخيرة من الحرب .

وهكذا فإنه مثل (فون جرايم) و (فون كلوجه) رأى أن الموت أهون من الهزيمة بالنسبة لرجال تحت تصرفهم فرق وجيوش يستخدمونها كما لو كانت رقعة شطرنج ، ويحكونها بكل دقة . فهم لا يقبلون أن يمرغوا في الوحل تلك الأعلام المظفرة ، تاركين مهمة تسليمها إلى العدو المنتصر لرجال آخرين !

“ * ”

ولا تقتصر الأمثلة على سلوك فون جرايم ، وكلوجه ، ومودل ، في الجيوش المختفية . وإنما هناك ضباط عظام كثيرون اتسموا بحسن الاستعداد ، ومنهم على سبيل المثال (فيلهم فون ليب) الذى طلب بنفسه يوم ١٣ من يناير ١٩٤٢ أن يحال إلى الاستبداد نظراً لأنه لم يستطع التغلب على الحلاف الذى نشب بينه وبين القيادة العليا .

وقد حارب (فون ليب) كضابط مدفعية وهو في الرابعة والعشرين من عمره في الصين في أثناء حرب البوكسر عام ١٩١٦ ، فأهدى له الإمبراطور غليوم الثانى وسام الفرسان . وفي يونيو ١٩٤٠ اقتحم خط (ماجينو) ، ذلك الحصن الدفاعى الذى كان الفرنسيون يعتقدون أنه غير قابل للاختراق ، فأصبح فيلد مارشالاً في العام نفسه .

إنه أحد خبراء الحرب الدفاعية ، وقد كتب في ذلك مؤلفاً بعنوان (العمل الدفاعى) ، غير أنهم عهدوا إليه عام ١٩٤١ بمهمة هجومية لغزو كل من ليتوانيا وليتوانيا وأستونيا على رأس مجموعة جيوش الشمال . وقد انطفأت جذوة انطلاقته هجائه عند مدينة (ليننجراد) ، وكان

أول من أدرك أن من غير الممكن الاستيلاء على المدينة السوفيتية .
وكان من شأن بعض أحكامه في بداية الحرب أن خلقت حوله فراغاً ؛ لأن النازيين
لا يسمحون لأحد بنقد الحزب وزعمائه . وقد عرف (فون ليب) أنه غير مرغوب فيه في برلين ،
وفطن إلى أن هتلر يريد كبشاً للذداء ، لتعطية الفضل أمامه لتنجرد . وهنا سلم علامات رتبته
واستعفى من منصبه ، وأحالوه إلى الاستبداد منذ عام ١٩٤٢ . فظل بعيداً عن الحرب ، مما
عجل بظهور علامات الشيخوخة عليه . ثم رثى عام ١٩٤٥ في الثياب المدنية في أثناء محاكمات
نورمبرج . فراح يدافع عن الكثيرين من الضباط الألمان من اتهام أنهم مجرمو حرب .
كانت نظرية (فون ليب) لنفسه ولزملائه ، أن الجندي لا يمكن أن يخالف الأوامر ،
والمسئولية تقع على كاهل الساسة ؛ لأن العسكريين لهم دور واحد هو التنفيذ . وقد ألف عدة
كتب دعمت شهرته كجندي عظيم ، ثم توفي يوم ٢٩ من أبريل ١٩٥٦ ، ودفن في احتفال مهيب .

= = =

وعندما أدرك في عام ١٩٤٢ أنه لن يستطيع اقتناع القيادة العليا بسحب مجموعة جيوش
الشمال من جحيم (داميانسك) ثم تخلى عن منصبه ، فإن رجلاً آخر حل محله في القيادة ، هو
(جورج فون كوشلر) الذي يصغره بخمسة أعوام .
ومنذ بداية الحرب كانت هناك مهام يضطلع بها الجنرال كوشلر في الجبهة الشرقية في قيادة
الجيش الثالث الذي انطلق من بروسيا الشرقية ، ثم شدد الضغط في اتجاه (ناريف) على
بولندا . وقاد كوشلر رجاله ببراعة في هذا الهجوم ، فوصل طبقاً للمناورة العظمى التي وضعها
(هالدر) - وهذا الوصف من عند المؤرخ البريطاني ب . ليدل هارت - وصل إلى الخط
الدفاعي الممتد على نهر (بوج) إلى وراء قليلا من العاصمة البولندية وارسو ، وجعله تذرره
الرياح .

وكان كوشلر - مثله مثل الكثيرين من الجنرالات الألمان - يحقر النازيين . ويقول : إن
الأساليب التي تستخدمها قوات العاصفة ، وخاصة وحداتها التي تعمل في الأراضي المحتلة ،
تثير في نفسه أعمق مشاعر الاشمئزاز ! غير أنه لم يصنع شيئاً لوقف تلك البشاعات .
وكلف في عام ١٩٤٠ بالهجوم على هولندا بالجيش الثامن عشر ، ثم عاد إلى شرق فرنسا ،
حيث قاتل إلى جانب (فون كلوج) الذي كانت تفصل بينها خصومات ملحوظة .
وفي نوفمبر ١٩٤٣ كان عليه وفقاً للمناورة تم التنسيق لها ، أن يغزو (نيفيل) في الاتحاد

السوفيتي مع جيوش فون كلوج . وفي اليوم الثامن من ذلك الشهر قام فون كلوج به تنفيذ المناورة ، ولكن بخسائر فادحة ، وحقق هدفه المرسوم ، ورفض (كوشلر) في صبيحة اليوم التالي مساندة عملية فون كلوج الذي اضطر إلى التراجع بعد أن ذهب القتال الذي خاضه مدى !

وعلق هتلر في برلين على ما وقع ، فقال : إن كارثة (نيفيل) هذه إنما ترجع إلى ذلك الكبرياء الأحمق الذي يباعد بين الجنرالين .

على أن الفوهرر لم يكن ساخطاً على هذا الوضع الذي حاول استغلاله : فعندما كان يستقبل في (عش الذئب) الفيلدمارشال مانشتاين في شهر ديسمبر التالي قال له : إن رجال (كوشلر) هم أفضل جنود في الجبهة الشرقية ! وكان هتلر يريد بذلك التركيز على المنافسة بين جنرالاته ، حتى يحصل على أحسن النتائج .

غير أنه لم ينجح في ذلك ، فاستبدل كوشلر عام ١٩٤٤ بالجنرال (مودل) ووقع كوشلر في أسر الأمريكيين ، وحكم عليه في نورمبرج بالسجن عشرين عاماً باعتباره مسئولاً عن المذبحة التي تعرض لها رجال العصابات السوفيت . غير أنه لم يقض في السجن غير مدة قصيرة . وخرج ليقضى بقية أيامه في بيت صغير فوق الجبال . وتوفي في الستينات .

وهناك عدد آخر من الجنرالات الألمان البارزين ، منهم : الفيلدمارشال البافاري ماكسيمليان فون فيكس الذي حذر هتلر من حدوث نكسة للقوات التي كانت تحارب في البلقان ، وطلب منه الانسحاب منه نظراً لأنه لم يعد في الإمكان الدفاع عنه إذا تعرض لهجوم بقوات كبيرة . والواقع أن وصيته لقيت أذناً مصغية لدى الفوهرر ، فوافق على الانسحاب من بلجراد ، وكان ذلك أفضل عملية عسكرية تمت خلال الحرب .

وكان (فون فيكس) يبدو بعويناته كأنه أستاذ جامعة ضل طريقه وإذا به يلقى نفسه وسط الجنود ، وقد أحاله هتلر إلى الاستيلاء يوم ٢٢ من مارس ١٩٤٥ بعد أن وصفه قبل ذلك بشهرين بأنه . . . «رجل يشعر بالتعب من أي شيء ! ولم يعد قادراً على أي إمكانية جديدة» وقد جنبته هذه الإحالة التعرض للأضواء في محاكماته الخلفاء ، وبقى في الظل إلى أن توفي يوم ٨ من أغسطس ١٩٥٤ بالقرب من (بون) .

ومنهم كذلك (إرهارد ميلش) الذي أصبح فيلدمارشالاً وهو لا يزال في الثانية والأربعين . واعتبر (المهندس) الذي شيد السلاح الجوي الألماني : بفضله قدرته على التنظيم

والإدارة واختيار الرجال استطاع أن يبني الطيران النازي ، وأن يضمن عليه تلك الفعالية المشهورة التي لازمته خلال أعوام الحرب الأولى .

غير أنه وقع في خطأ هام هو أنه لم يكن يحب (جورنج) الذي تمكن من إقصائه عن هذا السلاح ، برغم أنه كما قال المؤرخ البريطاني (تلفورد تايلور) هو (العقل المدبر) فيه . وهناك كذلك (هوجو سبيرلي) قائد فرقة (كوندور) التي ذهبت تحارب في إسبانيا . وحصل على رتبة الفيلد مارشال عام ١٩٤٠ ، وانتهى به الأمر إلى السجن بعد انهيار ألمانيا . وتوفي يوم ٢ من أبريل ١٩٥٣ ، وهو يشعر بالندم على أنه لم يعترض قط على الهاوية التي جر أدولف هتلر ألمانيا إليها .

بيد أن الذي اعترض بالفعل على الفوهرر بالوسائل كافة كان جنرالاً آخر هو (إرفن فون فيتزليين) الذي يحىء في نهاية مجموعة الفيلد مارشالات في الرايخ الألماني من حيث الترتيب الأبعدى لأسمائهم :

إنه برومسي من (بريسلاو) ، وله تاريخ عسكري مجيد وراء ظهره ، ورجل لم يقتنع بالنازية قط ، بل إنه كان منذ عام ١٩٣٨ على اتصال بحركات مقاومتها ، وكان صديقاً لكاتاريس والجنرال لودفيج بيك . ثم إنه هو القائد الذي هزم فرنسا عام ١٩٤٠ عند الجبهة الغربية ، ثم أصبح حاكماً عسكرياً لها .

لقد كان (فيتزليين) واحداً من الذين دبروا مؤامرة ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ لتخليص ألمانيا من هتلر ، وبسبب مجموعة من الظروف المعاكسة وصل في ذلك اليوم إلى الاجتماع الذي عقد في وزارة الحربية ببرلين حيث كانت قيادة تلك العمليات التي تستهدف قتل الفوهرر متأخراً . فلما تناهى إلى علمه في الساعة العاشرة مساء فشل المؤامرة ، وتأكد أن هتلر لم يقتل بتلك القنبلة التي وضعها (فون ستاوفنبرج) في القيادة النازية العليا ، صعد فيتزليين إلى السيارة المرسيديس التي أتت به إلى العاصمة ، وعاد إلى بيته .

وقد اعتقلوه في الصباح التالي . وكان أول المتآمرين الذين حكم عليهم بالإعدام ، وتم شنقه يوم ٨ من أغسطس ١٩٤٤ .

لقد حاول الوقوف في وجه النازية بالطريقة التي استطاعها ، فلما فشل في ذلك دفع حياته ثمناً لأمل ضئيل داعبه وهم يضعفون الخبل حول عنقه ، صور له أن عهداً جديداً سوف يشرق على ألمانيا يتسم بالديمقراطية ، وتخلص فيه من الدكتاتورية !



الجنرال فرانز هالدر :

رئيس هيئة أركان حرب القوات البرية الألمانية ومن أعظم منظمى القوات المسلحة . وقد أثار غضب هتلر لكثرة اعتراضاته فطرده القوهر من الجيش يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٤٢ .



المارشال فون بوك :

كانت مهمته الاستيلاء على موسكو . ثم حل محله فون كلوج و آخر عام ١٩٤١ .



الجنرال أريش هوبنر :

قائد الجيش الألماني المدبر الرابع ، الذى أقامه هتلر لأنه أصدر أمراً لقواته بالتحقق من أمام موسكو .

obeikandi.com

الفصل السابع والعشرون

جنرالات الهزيمة

لكم هي قاسية ومريرة وبشعة كلمة «الهزيمة». فهي تعنى الضياع ، والانهيار ، وتبديد الآمال ، وانتهاء جميع الأحلام ، وانعدام الثقة فى النفس ، والشعور بأن كل شىء فى الحياة قد توقف ، ثم زال . وكل هذه تتضخم وتتضاعف عندما تقع الهزيمة بمن لم يكن يتوقع غير الانتصار !

ولابد أن ذلك كان شعور أدولف هتلر عندما زالت الأحلام التى داعبته عقب الانتصارات السريعة الأولى فى الشرق ، بعجز جيوشه عن اقتحام عاصمة الأعداء الألداء : موسكو . فهل كانت هذه واحدة من سخریات القدر ؟

إن الجنرال (بلومنتريت) رئيس أركان حرب الجيش الرابع الألمانى العامل على الجبهة الشرقية قد عاش كشخصية أولى ذلك التقدم الكاسح الذى أوصل الألمان فى صيف ١٩٤١ حتى مرمى حجر من العاصمة السوفيتية ، ثم بعد ذلك عاش الهزيمة المروعة التى نزلت بهم ، فتقوضت معها كل ما كان يراودهم من آمال وأحلام . فكيف كانت هذه الهزيمة الجزئية ؟ ولماذا كانت مقدمة للهزيمة النهائية ؟

* * *

لقد كان الجيش الألمانى الرابع الذى يتولى قيادته الفيلدمارشال فون كلوچه يدخل فى إطار مجموعة جيوش الوسط ، التى تتكون من الجيشين الرابع والتاسع ، ووضعت تحت قيادة الفيلدمارشال (فون بوك) وتضم ثلاثين فرقة من المشاة ، وخمس عشرة فرقة مدرعة ، وفرقة واحدة من الفرسان ، وكان يعمل مع هذه المجموعة من الجيوش فى تعاون وثيق ، الفيلق المدرع الثانى بقيادة الجنرال (جودريان) ، والفيلق المدرع الثالث بقيادة الجنرال (هوث) والفيلق مكن من قوات مدرعة ، وقوات وسيطة تعمل بين الفيلق ومجموعة الجيوش .

ولقد عهد في الخطة الاستراتيجية لمعركة روسيا إلى مجموعة جيوش الوسط - وبصفة خاصة إلى الجيش الرابع والفيلقين المدرعين - بمهمة الاستيلاء على موسكو ، وكان التخطيط الميداني كما يلي :

يقوم الفيلقان المدرعان ، المرابطان على جناحي مجموعة الجيوش . واللذان يقف بأحدهما (جودريان) عند برست ليتوفسك ، وبالأخر (هوث) عند سواليكي . باقتحام خطوط الأعداء والتقدم إلى (مينسك) . حيث يتعين عليها أن يلتقيا بعد أن يغلقا بمنورة هائلة طرق الكاشا ، ويوقعا في الحصار أكبر عدد ممكن من القوات الروسية .

وبينما تقوم القوات المدرعة بهذه العملية ، يتعين على فرق المشاة من الجيشين الرابع والتاسع أن تقوم بعمليات التفاف أقل من الأولى حجماً .

وقد تمت هذه العمليات التي بدأت يوم ٢١ من يولية ١٩٤١ وفقاً للخطة الموضوعة ، وانتهت يوم ٢ من يولية بحقيقة نتائج باهرة للمهاجمين ، هي وقوع ١٦٠٠٠٠ أسير روسي والاستيلاء على ١٢٠٠ دبابة و ٦٠٠ قطعة مدفعية .

وقبل أن تستأنف المعركة مرة أخرى . أعيد تنظيم مجموعة جيوش الوسط ، فأدمج الفيلقان المدرعان معاً ، لكي يتدفعا من جديد نحو الشرق ، ويخوضا كتلة واحدة ما عرف باسم (معركة مينسك) . التي استمرت من ٢ إلى ١١ من يولية .

وعندما تمت هذه المسلسلة من العمليات ، كانت قوات (فون كنجو) المدرعة قد أقامت اتصالاً بينها وبين ما سمي «خط ستالين» . وهو الخط الدفاعي الرئيسي الذي وراء نهري (دفيغ) و (الديبير) .

على أن هذا الخط لم يكن حصيناً على طول امتداده ، ولا مزوداً بوسائل دفاعية جيدة . الأمر الذي جعل دبابات جودريان وهوث تتخطاه ، ولو أن المقاومة الروسية أخذت تزداد بعد ذلك .

والواقع أن الروس تلقوا في ذلك الوقت بعض التعزيزات ، فراحوا يهاجمون جانبي الطوابير الألمانية المدرعة طوال الفترة من ١٢ إلى ٣٠ من يولية . وهنا توقف التقدم الحافظ الذي قام به الجيش الألماني الرابع لأسباب منها : النقاش الذي كان يجرى في القيادة الألمانية العليا حول الإستراتيجية التي يتعين انتهاجها .

وكم هو معروف فإن هتلر كان حريصاً على أن يضمن لنفسه المراكز الاقتصادية في أوكرانيا ، وفي حوض الدونيتز ، وفي القوقاز ، وهي جميعاً في القطاع الذي تعمل فيه مجموعة جيوش الجنوب ، أما موسكو فكان اهتمامه بها أقل ، إلى الحد الذي جعله لا يرى من الضروري بعد النتائج التي حققها جيشه الرابع العمل بعد ذلك ضد العاصمة الروسية .

غير أن من كان يرى عكس هذا الرأي ، إلى جانب فون براوشيتش قائد الجيش وهالدر رئيس الأركان - هو (فون بوك) قائد مجموعة جيوش الوسط ، وكانوا جميعاً متفقين على ضرورة القيام بعمل ضد موسكو ، على حين كان (فون كيجه) قائد الجيش الرابع يميل إلى مشاركة مفهوم هتلر الإستراتيجي .

ونتيجة لهذه الخلافات جرت مناقشات لانهائية لها ، مما جعل أسابيع طويلة تنقضي قبل التوصل إلى قرار . لقد رجحت في آخر الأمر فكرة أولئك الذين يقولون بمهاجمة موسكو ، لكن المشكلة الرئيسية التي فرضت نفسها هي : هل بقي وقت يسمح بالاستيلاء على العاصمة السوفيتية قبل أن يحل الشتاء الروسي الرهيب ؟

وقد قدر لتلك الأسابيع التي انقضت خلال شهر أغسطس في المناقشات أن يكون لها نتائج مدمرة على العمليات العسكرية الألمانية التالية التي قامت بها قوات الهجوم المكونة من الجيوش الثاني والرابع والتاسع ، ومعها الفيالق المدرعة الثاني والثالث والرابع .

“ “ “

وبدأت معركة موسكو الكبرى يوم ٢ من أكتوبر ١٩٤١ ، وانتهت المرحلة الأولى منها يوم ١٣ من الشهر نفسه ، بذلك النصر الكبير الذي أحرزه الألمان في (فيازما) بفضل حركة التفاف تقليدية . وعند ذلك بدأ الطريق إلى العاصمة الروسية مفتوحاً ، مما حدا بهتلر إلى تشكيل قيادة خاصة من سلاح المهندسين مهمتها تدمير الكرملين !

وفي يوم ١٥ من أكتوبر تحركت جميع القوات الألمانية نحو موسكو ، غير أن المقاومة الروسية ظلت مع دهشة الألمان الكبرى كما كانت لا تضعف ولا تلين ، بل إن القتال ازداد قسوة وقد أبحه استمرار وصول التعزيزات . وكان من شأن ذلك أن ترعزت ثقة الألمان الذين كان قد استقر في روعهم أنهم كسبوا المعركة .

ولما كانت القوات الألمانية قد أرهقها الجهد الكبير الذي بذلته في المعارك السابقة ونقص الإمدادات ، فإن حالتها المعنوية قد انخفضت بصورة ملموسة . يضاف إلى ذلك أن الأحوال

التي هي قرية بالحريف الروسي أخذت تعوق تحركات المدرعات الألمانية بتلك السرعة التي تتطلبها طبيعة الأعمال الحربية ، الأمر الذي جعل التقدم الألماني يتوقف تدريجاً .
وجرت آخر محاولة لاحتلال موسكو في منتصف شهر نوفمبر عندما بدأ الجليد يجمد التربة .
ويشجع الحركة لسائر أنواع الوسائل الميكانيكية ، فقد كان الجيش الذي عليه القيام بالهجوم الحقيقي على منطقة موسكو هو الجيش الرابع . وقد جرت العمليات القتالية الأولى لمصلحة الألمان بفضل الفيلق المدرع الرابع : إلا أن تغييراً مفاجئاً في المناخ ترتب عليه هبوط درجة الحرارة ٣٠ درجة دفعة واحدة . كان بمثابة الكارثة بالنسبة للجنود الألمان الذين لم يكونوا مزودين بما يقيم في مثل هذه الظروف .

ومع ذلك فإن مجموعات من الدبابات استطاعت بصعوبة بالغة أن تصل في زحفها إلى الضواحي الغربية للعاصمة الروسية . وفي أعقابها طلائعها من القوات ، وذلك في الأيام الأخيرة من نوفمبر .

غير أنه عند هذه النقطة بالذات ، إذا بالجليد والثلوج تتضافر معاً لكي تطفئ شعلة الاندفاع الهجومية الأخيرة للمدرعات الألمانية .

وهنا اندفعت قوات المشاة في الجيش الألماني الرابع ، لكي تساعد قوات المدرعات . وراحت تهاجم يوم ٣٠ من نوفمبر . وتمكنت من اقتحام بعض النقاط في الخط الدفاعي الروسي ، ولكنها سرعان ما تبين أنها غير قادرة على القيام بالمهمة الموكولة إليها وأنها لا تستطيع إحراز أي نصر . وعند هذا الحد ، أصدر (فون كلوج) أوامره بوقف الهجوم الذي أصبح لا أمل من ورائه ، ولا يؤدي إلا إلى خسائر لا جدوى منها .

وبهذه الهزيمة أمام أسوار موسكو ، توارى إلى الأبد ذلك الوهم في إمكان أن يحقق الألمان نصراً حاسماً في الشرق

وفي أفريقيا جاء (هانز جورج فون آرني) ليخلف روميل في قيادة قوات المحور ، وكان الوجود الإيطالي الألماني في ذلك الوقت قد تقلص إلى جزء من تونس فضلاً عن أنه أصبح في وضع حرج : ذلك أن القوات الإيطالية والألمانية كانت معرضة للهجوم من جانب جيوش الحلفاء القوية . فبات في موقف الضعف الذي زاد من خطورته استحالة حصولها على أي إمدادات عن طريق قناة صقلية التي أصبحت تسيطر عليها الوسائل الجوية والبحرية للحلفاء .

ومن العتاد والمؤن التي شحنت خلال شهرى مارس وأبريل من إيطاليا وبلغ وزنها ١٣٢٠٠٠ طن . لم تصل إلى هذه القوات في تونس سوى ٧٧٠٠٠ طن ، وهو ما يعادل ربع احتياجاتها الضرورية ، لكي تقيم أودها . وتستطيع أن تقاتل . وفي مثل هذه الظروف كان الأمر الذي أصدره هتلر لها ، وموجبه بتعين عليها أن تحتفظ بتونس بأى ثمن ، يعتبر ضرباً من الجنون .

وكان أول هجوم قوى بتعين على (فون آرني) أن يواجهه هو ذلك الذي قام به الجيش الثامن البريطاني الذي تقدم من الشرق متجهاً إلى (مارث) وهي مركز صغير في تونس ، وهي بين (مطمطة) وخليج قابس .

كان الهدف من العملية البريطانية هو كسر الخط الدفاعي في (مارث) ، ثم الاندفاع شمالاً في اتجاه (صفافس) (وسوسة) ثم بعد ذلك (تونس) .

وكانت المواقع التي تعرضت لهجوم البريطانيين يحتلها الجيش الأول الإيطالي ، بقيادة الجيرال (ميسيه) الذي قاوم ببسالة الهجمة البريطانية . بل قام بهجوم مضاد عنيف بفضل دعم الفرقة الألمانية الخامسة عشرة مدرعات . واستأنف الإنجليز هجومهم يوم ١٦ من مارس بعملية اقتحام قوية على الجناح الأيمن للجيش الإيطالي الأول في منطقة (الحامة) ، ولكن الوقت كان متأخراً بالنسبة للإنجليز لقطع انسحاب أعدائهم .

والمواقع أن الجيش الإيطالي قد تمكن من الصمود على جبهة تمتد من خليج (قابس) حتى مستنقعات (شط الجريد) ، وبلغ طولها ١١١ كيلو متر ، ويقوم فيها تلالن ارتفاعها ٢٠٠ ، ٣٠٠ متر بسيطران على السهل .

وراح الإنجليز يهاجمون هذه الجبهة ليلة ٥ من أبريل ، ولكن الفرق الثلاث التي زجوا بها في المعركة ردت على أعقابها تماماً ، ولو أنهم عاودوا الهجوم في اليوم التالي ، مستخدمين في ذلك عدداً كبيراً من قواتهم المدرعة .

وإزاء ذلك اضطر (فون آرني) أن يصدر أمراً إلى الإيطاليين بالتراجع إلى الوراء اتقاء للخطر الذي لاح إلى اليمين من جيش (ميسيه) الذي انسحب إلى خط (صفافس - سوسة) دون أن تشعر به القوات البريطانية المتقدمة .

وفي نهاية كل هذه التحركات أصبحت مجموعة الجيوش الإيطالية الألمانية العاملة في أفريقيا مصطفة على طول جبهة تمتد من (رأس سرات) إلى (جفنة) و (سبدي نسر)

و(الجيل) و(تاكرونة) و يبلغ طول هذه الجبهة ٢١٥ كيلو متر ، وتقف فيها ١٦ فرقة ، ولكن ينقصها الكثير من العتاد الأساسي والوقود . في مقابل ٢٠ فرقة للأعداء ، مزودة بكل ما تحتاج إليه من أسلحة وذخائر ومؤن ومهمات .

وتلقت الجبهة الإيطالية الألمانية الهجوم من الجنوب يوم ٢ من أبريل ، غير أن الجيش البريطاني العاشر الذي قام به فشل فشلاً ذريعاً ، إذ إنه برغم استيلائه على (تاكرونة) لم يستطع التقدم من حيث وقف عند (جيل جارسي) إزاء الدفاع الشرس الذي واجهه من القوات الإيطالية . إلا أن الهجوم البريطاني نجح في مناطق أخرى تسيطر عليها القوات التي تحت قيادة (فون آرنيم) حيث تمكن الجيش الفرنسي التاسع عشر من اجتياز (جيل فجرين) ، كما تمكن الجيش البريطاني الخامس من التقدم على صفتي (مجردة) وطرده العدو من مواقع دفاعية هامة . أما الجيش الأمريكي الثاني فقد نجح في التقدم إلى وادي (التين) ، ووصل يوم ٥ من مايو بقواته المدرعة إلى الخط الحديدي تونس - بنزرت . وجاءت في اليوم نفسه قوات متحالفة أخرى ، فاحتلت الضفة الشمالية من مستنقع (أشطل) الذي على بعد ١٥ كيلو متر من بنزرت . وعند ذلك أخذت القوات الألمانية تراجع نحو البحر .

وفي هذه الأثناء أخذ الحلفاء يتهيئون لشن هجومهم الأخير على القوات الإيطالية الألمانية التي انحصرت الآن في رأس جسر تونس .

وبدأ هذا الهجوم يوم ٦ من مايو بضربات عنيفة وجهها الجيش البريطاني التاسع ، انطلقت من فوهات مائة بطارية مدفعية ، وهجمات جوية مركزة تمهيداً لدخول القوات المدرعة في المعركة ، فلما غربت شمس ذلك اليوم كان الإنجليز قد أحرزوا تقدماً كبيراً . وفي اليوم التالي انطلق الجيش المدرع البريطاني السابع ، فدخل مدينة تونس . وفي الوقت نفسه تقريباً اقتحمت الفرقة الأمريكية التاسعة بنزرت ، على حين تجاوزت الفرقة المدرعة الأمريكية الأولى (بروت فيل) حيث انضمت إلى الفرقة الأمريكية السابعة .

وكان هذا الالتقاء هو نهاية الجيش الألماني الخامس المدرع الذي وقع بين فكي كمامة الجيشين الأمريكيين . وعند ذلك بعث الجنرال (فون فايرست) رسله إلى العدو للتفاوض ، ثم استسلم بدون قيد ولا شرط يوم ٩ من مايو . وسقوط مدينتي تونس وبنزرت واستسلام الجيش الألماني الخامس فإن ما كان يسمى (الجبهة الشمالية) قد انهارت تماماً ، وهي التي عهد بقيادتها

إلى الجنرال (فون آرنيم) ليطبل بها مقاومة قوات المحور في أفريقيا
أما الجبهة الجنوبية التي تشمل شبه جزيرة (رأس بون) ، فقد قسمتها الفرقة المدرعة
البريطانية المدرعة إلى جزأين يوم ١٠ من مايو . وطوقت بذلك الجيش الإيطالي الأول .
ووصلت إلى خليج الحمامات .

وعند هذا الحد لم يعد في إمكان قوات المحور إقامة أى دفاع منظم . فأدرك الجنرال
الألماني أنه لا جدوى من التضحية بمزيد من قواته ، فأعلن في الساعة السادسة من مساء يوم
١١ من مايو ١٩٤٣ استسلامه للعدو . وهكذا نكس بصفة نهائية علم الحرب الألماني في
أفريقيا بعد مقاومة مشرفة بين ندين غير متكافئين .

“ * “

وفي فرنسا : كان على (هانز شبيدل) رئيس أركان حرب مجموعة الجيوش الألمانية (ب)
أن يواجه نزول القوات البريطانية والأمريكية يوم ٦ من يونيو ١٩٤٤ . وكان يقود مجموعة هذه
الجيوش المارشال (روميل) ، الذي لم يكن يتوقع نزول الحلفاء في ذلك اليوم .

وترتيباً على هذا التقدير بدا كأن (شبيدل) بدوره لم يصدق النبأ الذي جاء من قيادة
الجيش الألماني الخامس عشر مساء ٥ من يونيو ، بأن نزول قوات الأعداء سوف يتم خلال
الساعات الأربع والعشرين القادمة ابتداء من منتصف تلك الليلة .

وعلى ذلك فإن القوات الألمانية لم توضع في حالة تأهب ، وبصفة خاصة الجيش السابع
الذي يربط في المنطقة التي قيل إن النزول سيكون فيها . وقد أدى هذا الإهمال إلى تسهيل
مهمة الوحدات الأولى لقوات الحلفاء .

وإلى جانب ذلك ينبغي ألا ننسى أن هتلر كان مقتنعا بأن عملية الإنزال يوم ٦ من يونيو
ماهى إلا مناورة يقصد بها التضليل ، وقد رتب كل استراتيجيته على هذا الاقتناع . ولقد
كانت نتائج اقتناع الفوهرر مدمرة دائماً . ومن أجل إيقاف القوات البريطانية والأمريكية على
الجبهة التي وصلت إليها يوم ١٢ من يونيو ، كان على القيادة الألمانية أن تلجأ إلى احتياطي
الجيش الخامس عشر الذي كان في أفضل وضع للتدخل .

لكن هتلر حال دون ذلك ، مما جعل مجموعة الجيوش (ب) التي تقع المسؤولية على كاهلها
تظل عملياً بغير أى تعزيز . وفي هذه الظروف اضطرت المجموعة التي يرأس أركان حربها

(شيدل) أن نحد من عملياتها ، وتقصرها على مجرد أعمال تكتيكية خارج نطاق أى رؤية استراتيجية ، فلقد كان اقتناع القوهر وعناده هما اللذان ساعدا على نجاح خطة الحلفاء الحربية . ولكن كما هى عادة هتلر فإنه التى تتبعه فشله على عاتق قائديه : فون رونشت قائد الجبهة الغربية ، وروميل قائد مجموعة الجيوش (ب) واستدعاها ليقدم لها تفسيراً عن «فشلهما» .

وقد روى (شيدل) ما دار فى هذا اللقاء ، فقال : إن هتلر كان ممتقع الوجه ، بادية الإرهاق ، فحياتها بعبارة موجزة ثم تحدث بمرارة عن عدم رضائه عن نجاح نزول الحلفاء ، وراح يعدد الأخطاء التى وقعت فيها القيادات المحلية . وقد ضاعفت بقية الحديث من الخلاف بين هتلر والقائدين فيما يتعلق بسير العمليات فى الغرب . غير أن القائدين طالبا بإعطاء مجموعة جيوشها مزيداً من حرية العمل ، ويعدم تقيدهما بالأوامر غير المعقولة التى يصدرها القوهر . وبعد ذلك بيومين بعث روميل بتقرير درامى إلى هتلر يوم ١٧ من يولية ، يقترح فيه مباشرة إنهاء القتال فى الجبهة الغربية ، ثم أصيب بجراح خطيرة من طلقات مدفع رشاش ، وبعد ذلك بيومين آخرين وقعت مؤامرة اغتيال القوهر . وحدثت موجة من الإرهاب بعد هذه المحاولة الفاشلة تعرض لها الجيش الألمانى ، فتم إعدام سبعة عشر جنرالاً ، وانتحر غيرهم ومنهم (روميل) ، و(فون شتولنجر) و (بيك) إلى جانب ضحايا كثيرين انتقم منهم هتلر . أما (شيدل) فلم يعتقل فى البداية ، وظل فى منصب رئيس أركان مجموعة الجيوش (ب) إذ كان أحد جيوشه وهو الجيش السابع منهمكاً فى صد هجوم أمريكى عنيف . كانت القوات الألمانية تواجه للمرة الأولى التفوق الأمريكى فى العتاد وفى عدد الطائرات مما عرضها لشبح الهزيمة . وفى يوم ٣١ يوليوبعث (شيدل) بعد أن تخلى عن منطقة (آفرانش) ذات الأهمية الاستراتيجية الكبرى برسالة إلى (فون كلوجه) يبلغه فيها أن الجناح الأيسر لمجموعة جيوشه قد انهار . وعند ذلك فقط تخلى القوهر عن اقتناعه القديم بأن الحلفاء سوف يتزلون قواتهم فى مكان آخر .

وقرر أن يبعث بتعزيزات لا بأس بها إلى (فون كلوجه) وهى فيلقان وأربع فرق ، وفى رأيه أن تستعيد مجموعة الجيوش (ب) بها منطقة (آفرانش) ، ثم تتجه بعد ذلك إلى (سان لو) ومن ثم تلتف حول الجيش الأمريكى الأول .

لقد كان هذا الأمر واضح السذاجة ، نظراً إلى أنه حتى المدرعات الألمانية فقدت جانباً كبيراً



الجنرال أولبريخت الذي كان أصبح وزير
للحربية في الحكومة الألمانية المؤقتة



الكونزل أوستر ، وهو من أعداء النازية
القدامى ، ولم يتردد عامي ١٩٣٩ - ١٩٤٠ في
تسليم الحلفاء أسرار هامة ، ولكنهم لم
يستخدموها . وقد أثار شكوك الحسبان . فطرده
من الجيش عام ١٩٤٣



الجنرال كارل هيريخ فون ستولباخ قائد عام
قوات الاحتلال في فرنسا ، وقد انضم صراحة
إلى المؤامرة . ولحق إعلان أبناء وقوعها قام
باعتقال جميع زعماء قوات العاصمة في
باريس . فلما فشلت المؤامرة شتقوه .

من قدرتها الهجومية . فلم يكن مثيراً للدهشة إذن أن يصاب فون كلوجيه وشبيدل بالحيرة والذهول ، إلا أن أى أمر يصدره هتلر إلى الجيش يتعين وفقاً للشعار العسكري الألماني أن ينفذ . وعلى ذلك بدأ الهجوم الألماني على (آفرانش) يوم ٧ من أغسطس . وبعد نجاح أولى تسمرت المدرعات الألمانية على الأرض ، وراحت القوات الجوية المتفوقة للعدو في تدميرها . وإذا انحصرت القوات الألمانية في منطقة (آفرانش) فإن الحلفاء طوروا هجومهم عليها ، وراحوا يبيدون مجموعة الجيوش (ب) ، التي حرم عليها الفوهرر الانسحاب .

وقد انتهى الهجوم الحليف الذي اتخذ شكل الكماشة طرفاها في (أورن) و (ديف) يوم ١٨ من أغسطس . بإبادة ١٥ فرقة ألمانية .

كانت هذه هي الهزيمة الثالثة لجيوش الألمانية ، التي لم تلبث أن تعرضت لهزيمة رابعة في إيطاليا باستسلام (فون فتنجهوف) ، واسترد الحلفاء بعد ذلك باريس يوم ٢٤ من أغسطس . وأخذت آمال الألمان تتبدد قليلاً قليلاً ، وشغل محلها اليأس الكامل ، والاقتناع بأن كل شيء قد ضاع . وكانت هذه هي بداية الهزيمة النهائية للنازية .